الجامع

في الخشوع

الطبعة الثانية

تأليف

عبد الرزاق بن فاضل الربيعي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الجامع
في الخشوع

تأليف

عبد الرزاق بن فاضل الربيعي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المؤلف: عبد الرزاق بن فاضل الربيعي

عنوان الكتاب: الجامع في الخشوع

الطبعة: الثانية

التأريخ: عام ١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م

الصفحات: ٥٨٦ صفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فيا أيُّها النَّاظرُ في هذا الكتاب! لك غُنْمه، وعلى مؤلفه غُرْمُهُ، ولك صَفْوُهُ، وعليه كَدَرُه، وهذه بضاعته المُزْجَاة تُعرَضُ عليك، وبَنَاتُ أفكارِه تُزَفُّ إليك، فإنْ صادَفَتْ كفؤًا كريمًا لن تعدم منه إمساكًا بمعروفٍ أو تسريحًا بإحسانٍ، وإنْ كان غيرَه فاللَّه المستعان، فما كان من صواب فمن الواحد المنَّانِ، وما كان من خطأٍ فمنِّي ومن الشيطان، واللَّهُ بريٌ منه ورسولُه (١).

---

(١) مقتبس من كلام ابن القيم في حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (١/ ١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أثنىٰ علىٰ الخاشعين والخاشعات، ووعدهم بالمغفرة وعظيم الحسنات.

أحمده حمد الخاشعين، وأشكره شكر الطائعين.

وأصلي وأسلم علىٰ أكمل الخلق خشية وخشوعًا، وأعظمِهم إنابة وخضوعًا، وأتمِّهم سجودًا وركوعًا.

وعلىٰ آله وأصحابه الذين كانوا يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، وعلىٰ من كان للمتقين الخاشعين قدوةً وإمامًا.

أما بعد:

فإنَّ منزلة الخشوع من منازل الأبرار التي لا يوفَّقُ لها إلا من وفَّقه الله، كما قال السندي عند شرح حديث: «**لا يبكي أحدٌ من خشية الله فتطعمَهُ النار، حتىٰ يُرَدَّ اللبنُ في الضرع**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٣) والنسائي (٣١٠٧) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١٠٧).

قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذا من التعليق بالمحال العادي؛ لِيدل علىٰ أن دخول الباكي من خشية الله في النار محال، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] قال: ولعلَّ الله تعالىٰ لا يوفِّق للبكاء من الخشية إلا من أراد له النجاة من النار »(١).

ولأجل تحقيق عبادة الخشوع، والوصول إلىٰ منازل الخاشعين؛ جمعت - بفضل الله تعالىٰ - في هذا السِّفر ما يُعين السائرين إلىٰ ربهم علىٰ الوصول، ونيل المأمول.

وقد اكتفيت بالجَمع والترتيب للأدلة والأمثال؛ وتنكَّبْتُ الإطالة وحشوَ الأقوال، حرصًا علىٰ إفادة كلِّ من يقرأ هذا الكتاب، من العلماء والمحبِّين والطُّلاب؛ آيات من كتاب الله، وأحاديث من صحيح سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن أقوال وأخبار السابقين الصالحين، من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان؛ لأن كلامَ السلف فيه بركة وإنْ قلَّتْ ألفاظه، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **كلامُهم قليلٌ، فيه البركة، وكلامُ المتأخِّرين كثيرٌ طويلٌ، قليل البركة** »(٢).

---

(١) حاشية السندي علىٰ النسائي (٦/ ١٢) حديث رقم (٣١٠٧). ط٢ مكتبة المطبوعات الإسلامية ١٤٠٦هـ.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٥٩) ط٣ الكتاب العربي ١٤٦١هـ.

وهو أحبُّ إليَّ وأنفع لي ولغيري، قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

دينُ النبيِّ محمدٍ أخبارُ — نِعمَ المطيةُ للفتى الآثارُ
لا ترغبن عن الحديث وأهلِه — فالرأي ليلٌ والحديث نهارُ
ولربما جهل الفتى سبلَ الهُدى — والشمس بازغة لها أنوار[(١)]

ويحتوي هذا الكتاب على:

١- مقدمة.

٢- خمسة فصول:

الفصل الأول: مقدمات عامة عن الخشوع؛ وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الخشوع ومعناه.

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع.

المبحث الثالث: علاقة الخشوع بالعلم وذهابه في آخر الزمان.

المبحث الرابع: ثمرات الخشوع.

المبحث الخامس: بيان الألفاظ المقاربة للخشوع في المعنىٰ.

المبحث السادس: المخلوقات التي وُصِفتْ بالخشوع.

الفصل الثاني: الخشوع في الصلاة؛ وفيه تمهيد وتسعة مباحث:

المبحث الأول: بيان المراد بالخشوع في الصلاة.

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع في الصلاة.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٧٨٢) ط١ دار ابن الجوزي ١٤١٤هـ.

المبحث الثالث: التحذير من الرياء في عبادة الخشوع.

المبحث الرابع: أسباب الخشوع في الصلاة.

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف في صلاتهم.

المبحث السادس: موانع الخشوع في الصلاة.

المبحث السابع: حكم الخشوع في الصلاة.

المبحث الثامن: مظاهر الخشوع في الصلاة.

المبحث التاسع: مراتب الناس في خشوعهم في الصلاة.

الفصل الثالث: الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه، ويحتوي هذا الفصل علىٰ **تمهيد** وثمانية مباحث:

المبحث الأول: الترغيب في الخشوع عند سماع أو تلاوة القرآن.

المبحث الثاني: الزجر عن التقصير في تحقيق الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن.

المبحث الثالث: بيان أهمية التدبر لتحقيق الخشوع.

المبحث الرابع: الأسباب المعينة علىٰ الخشوع عند قراءة القرآن.

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف عند قراءة القرآن أو سماعه.

المبحث السادس: موانع الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه.

المبحث السابع: قصص في تأثير القرآن علىٰ قلوب المشركين.

المبحث الثامن: الصعق والإغماء عند سماع القرآن.

الفصل الرابع: البكاء من خشية الله؛ ويحتوي هذا الفصل علىٰ **تمهيد**، وعشرة مباحث:

المبحث الأول: أنواع البكاء.

المبحث الثاني: الحث علىٰ البكاء من خشية الله.

المبحث الثالث: ثمرات البكاء من خشية الله.

المبحث الرابع: نماذج من بكاء الصالحين.

المبحث الخامس: تأثير البكاء عليهم وجواب من عوتب منهم.

المبحث السادس: إخفاء البكاء.

المبحث السابع: أسباب البكاء من خشية الله.

المبحث الثامن: بكاء الموعوظين والوعاظ.

المبحث التاسع: بكاء الأمراء عند السماع والإلقاء.

المبحث العاشر: إباحة البكاء علىٰ فراق الأحبة، من غير نياحة ولا نُدبة.

الفصل الخامس: العناية بمحل الخشوع = القلوب؛ وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

المبحث الأول: الترغيب في العناية بالقلوب.

المبحث الثاني: أسباب صلاح القلوب.

المبحث الثالث: أسباب قسوة القلوب.

المبحث الرابع: مظاهر قسوة القلوب.

المبحث الخامس: أنواع القلوب وكيفية تحصينها.

المبحث السادس: مرض القلوب وموتها وأنواع علاجها.

المبحث السابع: حياة القلب وسلامته.

٣- الخاتمة شعرًا: ختمتُ الكتاب ببعض الأبيات التي فيها الحث علىٰ الخشوع، ثم إشارة إلىٰ بعض محتويات الكتاب.

٤- فهرست.

وسمّيتُه: « **الجامع في الخشوع** » ولن يعدم -بإذن الله تعالىٰ- قارئ هذا الكتاب، من خير يرشد للحق والصواب.

وما كان من تقصير فليس بمُستغرَب؛ إذ لا يسلم منه ابنُ أب، سوىٰ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن حَسَّنَ قصدَه، وبذل جهده، وتحرَّىٰ رُشدَه، فقد خرج من الملام، والتماس العذر من شيم الكرام، والحال كما قال بعض الفضلاء:

أسير خلف رِكاب النُّجْب ذا عرَجٍ	**مُؤمِّلا غير ما يَقضي به عَرَجي**
فإنْ لحِقتُ بهم من بعد ما سبَقُوا	**فكمْ لربِّ الورى في الناسِ من فرَجِ**
وإن ظَلَلْتُ بقفرِ الأرضِ مُنقطعًا	**فما على أعرجٍ في ذاك من حَرَجِ**(١)

والنصيحة مطلوبة ومقبولة إن شاء الله، وبالتناصُح تتلاشىٰ الأخطاء وتَقِلّ.

(١) منار السبيل في شرح الدليل (١/ ٤) ط٧ المكتب الإسلامي ١٤٠٩هـ. ونسبه إلىٰ بعض الفضلاء.

وقد أحسن الحريري حين قال:

وإنْ تجدْ عَيبًا فسُدَّ الخَللا فجلَّ مَنْ لا عيبَ فيه وعَلا(١)

تنبيه!

التزمتُ في الأحاديث المرفوعة ذكرَ مصادرها مع نقلِ الحُكمِ علىٰ أسانيدِها من حيث الصحة والضعف، وأمَّا ما دون المرفوع من آثار وأخبار فاكتفيتُ بذكر مصادرها دون نقل الحكم عليها غالبًا.

وبالله أستعين وأعتضد، وعليه أتوكلُ وأعتمِدْ، وإليه ألتجئ وأستنِدْ، ومنه أطلب وأستمِدْ، وبه أعتصم مما يصم، وأسترشد إلىٰ ما يرشد، فما التوفيق إلا منه، ولا الاستعانة إلا به، ولا المفزع إلا إليه، ولا الموئل إلا هو، عليه توكلت وإليه أُنيب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وبارَك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، صلاةً مستمرةَ الدوام، مُتجددةً علىٰ مرِّ الليالي والأيام.

---

(١) شرح ملحة الإعراب للحريري - النظم والشرح - (ص/ ٢٥٩) البيت رقم (٣٧٢).

الفصل الأول: مقدمات عامة عن الخشوع

وقد احتوى هذا الفصل على المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف الخشوع.

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع.

المبحث الثالث: علاقة الخشوع بالعلم وذهابه في آخر الزمان.

المبحث الرابع: ثمـرات الخشـــوع.

المبحث الخامس: بيان الألفاظ المقاربة للخشوع في المعنىٰ.

المبحث السادس: المخلوقات التي وُصِفتْ بالخشوع.

المبحث الأول: تعريف الخشوع

الخشوع في اللغة:

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **الخشوع**: الضراعة. وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ولذلك قيل فيما رُوي: «إذا ضَرَعَ القلبُ خَشعَتِ الجَوَارحُ» »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت »(٢).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهو في اللغة: السكون والتواضع والخوف والتذلل »(٣).

وفي مختار الصحاح: « **الخشوع**: الخُضوع، وبابهما واحد، يقال: خَشَع واختَشَع، وخشَعَ ببصره، أي: غضَّهُ »(٤).

وفي المعجم الوسيط: خشع خشوعًا: خضع وذلَّ وخاف(٥).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص/ ٢٣٤) مادة «خشع». ط١ الأوقاف القطرية،١٤٣٨هـ.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٩٣) ط٢ عطاءات العلم، ١٤٤١هـ.

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٦٠) [المؤمنون: ٢].

(٤) مختار الصحاح (ص/ ٩١). مادة «خشع». ط٢ المكتبة العصرية ١٤١٧هـ.

(٥) المعجم الوسيط (ص/ ٢٣٥) مادة «خشع». ط٢ دار الدعوة، ١٤١٠هـ».

الخشوع في الاصطلاح الشرعي:

هو: هيئةٌ في النفس يظهرُ منها علىٰ الجوارح سُكونٌ وتَواضُعٌ[1].

فعن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « الخشوع في القلب، وأن تُلِين للمرء المسلم كَنَفَك، ولا تلتفت »[2].

وقال البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ: « والخشوع قريبٌ من الخضوع، إلا أنَّ الخضوعَ في البدن، والخشوعَ في القلب والبصر والصوت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ [طه: ١٠٨] »[3].

وقال ابن عطية رَحِمَهُٱللَّهُ: « والخاشعون، المتواضعون المخبتون، والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها علىٰ الجوارح سكون وتواضع »[4].

وقال محمد بن علي الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ: « **الخاشع**: من خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرق نور التعظيم في قلبه؛ فماتت شهوته، وحيي قلبُه، فخشعت جوارحه »[5].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٥٨) [البقرة: ٤٥]. ط١ الدار العالمية، ١٤٣٦هـ.

(٢) تفسير الطبري (٩/ ١٩٧) [سورة المؤمنون: ٢]. ط٣ دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

(٣) تفسير البغوي – معالم التنزيل (٣/ ٣٥٦) [البقرة: ٤٥]. ط١ إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٣٨٩) [البقرة (٤٥ – ٤٦)] ط الأوقاف القطرية، «الأولىٰ المحققة ١٤٣٦هـ».

(٥) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٦).

وقال ابن قرقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **وأثر الخشوع**؛ هو أثر الخوف؛ من السكون في الجوارح وخفض الصوت، وغض البصر، وإقصاره علىٰ جهة الأرض »(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته »(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالىٰ، وانكساره بين يديه؛ ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه »(٣).

وقال الطبري في - تفسير قوله تعالىٰ -: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] يقول: « وكانوا لنا متواضعين متذللين، ولا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا »(٤).

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] قال: « ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي: الْمُتَوَاضِعِينَ ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ وقيل: أراد به الخشوع في الصلاة، ومن الخشوع أن لا يلتفت »(٥).

---

(١) مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٤٧٩) ط١. الأوقاف القطرية، ١٤٣٣هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٥٦) [سورة الأحزاب: ٣٥]. ط٢، الأوقاف القطرية ١٤٢٧هـ.

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٥) [البقرة: ٤٥]. ط٣ جمعية إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٩هـ.

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٨٠) [الأنبياء: ٩٠].

(٥) تفسير البغوي (٣/ ٦٤٠) [الأحزاب: ٣٥].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **والخشوع**: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه، **وقيل**: الخشوع: الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق؛ استقبل ذلك بالقبول والانقياد، **وقيل**: الخشوع خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب. وأجمع العارفون علىٰ أن الخشوع محله القلب وثمرته علىٰ الجوارح، وهي تظهره »(١).

والخلاصة:

أن الخشوع من عمل القلب، وهو خضوعُه، وتذلُّلُه، وسكونُه، وطمأنينتُه، وإخباتُه إلىٰ ربه وبارئه، وتظهر آثارُه علىٰ الجوارح؛ مِنْ خفضِ البصر وطأطأةِ الرأس، وغير ذلك. هذا جماعُ كلامِ أهل العلم وأهلِ اللغة، لا يختلفون في ذلك(٢).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٧). ط١ لمكتبة نزار مصطفىٰ الباز ١٤٢١هـ.

(٢) هذه الخلاصة كتبها شيخنا الإمام بخط يده.

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع

وفي هذا المبحث ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الحثُّ على الخشوع:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « معناه: ألم يَحِنْ للذين صدقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله؛ فتخضعَ قلوبُهم له، ولِمَا نزَلَ من الحق، وهو هذا القرآن الذي نزَّله علىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(١).

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربعُ سِنين »(٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم علىٰ رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ »(٣).

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري: « من خشَعَ قلبُه لم يقربْ منه الشيطان »(٤).

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٨١) [سورة الحديد: ١٦].

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٧).

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٣٠). [سورة الحديد: ١٦].

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٦).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد امتدح ربُّنا - سبحانه -، الخاشعين في آيات كثيرة، فمنها: إخباره أن الخشوع من صفات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -؛ فقال سبحانه بعد ذكر بعض الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن الخشوع من صفات المؤمنين المفلحين؛ فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وأخبر سبحانه أن الخشوع من صفات أهل العلم؛ فقال عن أهل العلم: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن الخشوع سبب لأداء العبادات علىٰ الوجه المطلوب، وسبب لمحبة الصلاة وغيرها من الطاعات؛ قال سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾؛ حثٌّ علىٰ تأمُّل مواعظ القرآن وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها علىٰ صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق. وقيل: خاشعًا لله بما كلفه من طاعته. ﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أن يعصيه؛ فيعاقبه. وقيل: هو علىٰ وجه المثل للكفار »(١).

المطلب الثاني: الثناء على الخاشعين:

إن الله سبحانه قد أثنىٰ علىٰ الخاشعين في آيات كثيرة، بل مُدح الأنبياء بالخشوع، وكذلك الأبرار والعلماء، وهذا يدل علىٰ فضلِ الخشوع وعظيم منزلة الخاشعين، وهذه بعض الأدلة التي فيها الثناء علىٰ الخاشعين: قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٤٤) [سورة الحشر: ٢١].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخاشعة قلوبهم لله وجلًا منه ومِن عقابه، والخاشعات »(١).

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

عن عبد الله بن حكيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « خطبنا أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوىٰ الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله أثنىٰ علىٰ زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] »(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مدح في كتابه المخبتين له، والمنكسرين لعظمته والخاضعين، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ووصف ربُّنا - سبحانه - المؤمنين بالخشوع له في أشرفِ عباداتهم التي هم عليها يحافظون، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] ووصف الذين أوتوا العلم بالخشوع، حيث يكون

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٩) [الأحزاب: ٣٥].

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٦) رقم (١٣٧١٩) [الأنبياء: ٩٠].

كلامه لهم مسموعًا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] »(١).

وأثنىٰ الرحمن علىٰ عباده الذين يخشعون ولا يُعرضون عن آياته وذكره، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله، لم يكونوا صمًّا لا يسمعون، وعميًا لا يبصرونها، ولكنهم يِقَاظُ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذِّكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانًا سمعته، وقلوبًا وعته »(٢).

المطلب الثالث: الخشوع من صفات الأبرار:

لما كان الخشوعُ منزلتُه عاليةً وثوابُه عظيمًا أثنىٰ اللهُ علىٰ الخاشعين، وذكره من أفضل صفاتهم وأجمل سماتهم:

فالأنبياء وُصِفوا بالخشوع؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ٧) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٤٢٣) [الفرقان ٧٣].

والعلماء وصفوا بالخشوع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [**الإسراء: ١٠٩**].

والمؤمنون وصفوا بالخشوع؛ قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [**المؤمنون: ١-٢**].

والمخبتون وصفوا بالخشوع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [**الحج: ٣٤-٣٥**].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « المُخبِتُ: المتواضعُ الخاشع من المؤمنين. والخبت ما انخفض من الأرض، أي: بشِّرهم بالثواب الجزيل »(١).

والعارفون بالحق وصفوا بالخشوع؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [**المائدة: ٨٣**].

والخشوع من أبرز صفات عباد الرحمن؛ قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [**الفرقان: ٧٣**].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: « إن المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوةُ من الله صدقوا بها وأفضىٰ يقينها إلىٰ قلوبهم خشعت لذلك قلوبُهم وأبدانهم وأبصارهم؛

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٥٨) [الحج: ٣٤].

كنت والله إذا رأيتهم رأيت قومًا كأنهم رأي عين؛ فوالله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، ولا اطمأنّوا إلَّا إلىٰ كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمر فصدقوا به؛ فنعتهم الله تعالىٰ في القرآن أحسن نعت، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٥].

قال الحسن: الهون في كلام العرب: اللين والسكينة والوقار.

قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قال: حلماء لا يجهلون، وإذا جُهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون، ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾، ينتصبون لله علىٰ أقدامهم، ويفترشون وجوههم لربهم سُجَّدًا، تجري دموعهم علىٰ خدودهم؛ فَرَقًا من ربهم لأمرٍ ما، أسهروا له ليلهم، ولأمر ما، خشعوا له نهارهم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥] قال: وكل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرامٍ، إنما الغرام: اللازم له ما دامت السماوات والأرض، قال: صدق القوم، والله الذي لا إله إلا هو، فعملوا ولم يتمنّوا، فإياكم - رحمكم الله - وهذه الأماني، فإن الله لم يعطِ عبدًا بالأمنية خيرًا قط في الدنيا والآخرة، وكان يقول: **يا لَها موعظة لو وافقت من القلوب حياة** »(١).

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ١٧) [المؤمنون: ٢].

المبحث الثالث: علاقة الخشوع بالعلم وذهابه في آخر الزمان

وفي هذا المبحث أربعة مطالب:

المطلب الأول: الخشوع علامة الانتفاع بالعلم:

وصف ربُّنا - سبحانه - العلماءَ من أهل الكتاب قبلنا بالخشوع؛ فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، مدحٌ لمن أوجب له سماعُ كتاب الله الخشوعَ في قلبه »(١).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: ويخرُّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قَبْلِ نزول الفرقان، إذا يتلىٰ عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعًا، يعني: خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له »(٢).

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ١٥) [المؤمنون: ٢].

(٢) تفسير الطبري المسمىٰ بـ «جامع البيان في تأويل القرآن» (٨/ ١٦٥) [الإسراء: ١٠٩].

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسَخَ فيه نفَعَ »(١).

وقال عبد الأعلىٰ التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إنَّ من أوتي من العلم ما لم يُبْكِهِ لخليق أنْ لا يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن الله نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] »(٢).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذه مبالغة في صفتهم، ومدح لهم، وحضٌّ لكلّ من ترسم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلىٰ هذه الرتبة »(٣).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « أجهلُ الناس من ترك ما يعلم، وأعلمُ الناس من عمل بما يعلم، وأفضلُ الناس أخشعَهُم لله عَزَّوَجَلَّ »(٤).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « العلم علمان: علم باللسان وعلم بالقلب، فعلم القلب: هو العلم النافع، وعلم اللسان: هو حجة الله علىٰ ابن آدم »(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٨٢٢).

(٢) تفسير الطبري المسمىٰ «جامع البيان في تأويل القرآن» (٨/ ١٦٥) [الإسراء: ١٠٩].

(٣) المحرر الوجيز (٦/ ٣٠٢) [الإسراء: ١٠٩]. ط١ الأوقاف القطرية ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م.

(٤) سنن الدارمي (٣٤٢).

(٥) تفسير ابن رجب (٢/ ١٤) [سورة المؤمنون: ٢].

المطلب الثاني: العلم سبب لإخبات القلوب وخشوعها:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي: تخشع وتسكن »(١).

وقال به الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وزاد: « وتنقاد، فإنَّ الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكينًا من الشيطان، بل للقرآن »(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليلِهِ إذا الناس نائمون، وبِنَهارِهِ إذا الناس مُفطرون، وبحزنه إذا الناس فرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلُطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن: أن يكون باكيًا، محزونًا، حليمًا، حكيمًا، سِكِّيتًا. ولا ينبغي لحامل القرآن: أن يكون جافيًا، ولا غافلًا، ولا سخَّابًا، ولا صيّاحًا، ولا حديدًا »(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٨١) [الحج: ٥٤].

(٢) فتح القدير (٣/ ١٩٥٥) [الحج: ٥٤]. ط١ الدار العلمية ١٤٣٦هـ ـ٢٠١٥م.

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٨٨).

المطلب الثالث: الخشوع من صفات العلماء:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ **[فاطر: ٢٨]**.

في تفسير القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ **[فاطر: ٢٨]** قال: الذين علموا أن الله علىٰ كل شي قدير.

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالىٰ فليس بعالم.

وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عَزَّوَجَلَّ.

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كفىٰ بخشية الله تعالىٰ علمًا، وبالاغترار جهلًا.

وقيل لسعد ابن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عَزَّوَجَلَّ.

وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عَزَّوَجَلَّ »(١).

وهذه الآثار وإن لم تكن نصًا في الخشوع لكنها في معناه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ **[الزمر: ٩]**.

---

(١) تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٤٣) [فاطر: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]

ولينُ القلوبِ هو زوالُ قسوتِهَا، بحدوثِ الخُشوع فيها والرقةِ »(١).

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان يقالُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ بالله يخشىٰ الله ليس بعالمٍ بأمرِ الله، وعالمٌ بالله عالمٌ بأمرِ الله يخشىٰ الله، فذاك العالمُ الكاملُ، وعالمٌ بأمر الله ليس بعالمٍ بالله لا يخشىٰ الله، فذلك العالم الفاجر »(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فالعلم النافع هو ما باشر القلوب؛ فأوجب لها السكينةَ والخشية والإخبات لله، والتواضع والانكسار له، وإذا لم يباشر القلب ذلك من العلم، وإنما كان علىٰ اللسان؛ فهو حجة الله علىٰ ابن آدم يقوم علىٰ صاحبه وغيره!

قال: فأخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن العلم عند أهل الكتابين من قبلنا موجود بأيديهم، ولا ينتفعون بشيء منه لما فقدوا المقصود منه؛ وهو وصوله إلىٰ قلوبهم، حتىٰ يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنما هو علىٰ ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم؛ ولهذا المعنىٰ وصف الله تعالىٰ في كتابه العلماء بالخشية كما قال الله تعالىٰ:

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ١٥) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) سنن الدارمي (٣٧٥).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨] »[١].

بل إن عوف بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سمّىٰ الخشوع عِلمًا كما في الحديث: «وهل تدري أيُّ العلم أوَّلُ أن يُرفع؟» قال: قلت: لا أدري. قال: «الخشوع، حتىٰ لا تكادُ ترىٰ خاشعًا»[٢]. وسيأتي بطوله في المطلب الآتي.

المطلب الرابع: قلة الخشوع في آخر الزمان وأنه من أوّل ما يُرفع:

عن عوفِ بنِ مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذات يوم، فنظر في السماء ثم قال: «هذا أوانُ العلم أن يُرفَع». فقال له رجل من الأنصار يقال له: زياد بن لبيد: أيرفع العلم يا رسول الله، وفينا كتاب الله، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ».

ثم ذكر ضلالةَ أهلِ الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلىٰ، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك، فقال: «صدق عوف»، ثم قال: «وهل تدري ما رفع العلم؟» قال: قلت: لا أدري.

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ١٤) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٩٠) والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٧٨)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ١٢٣).

وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين رقم (٤٧٣).

قال: ذَهابُ أوعيته. قال: «**وهل تدري أيُّ العلم أوَّلُ أن يُرفع؟**» قال: قلت: لا أدري. قال: «**الخشوع، حتىٰ لا تكادُ ترىٰ خاشعًا**»(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أوّلُ شيءٍ يُرفعُ من هذه الأمةِ الخُشوعُ، حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعًا**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٩٠) والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٧٨)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ١٢٣).

وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين رقم (٤٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الشاميين (١٥٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٩).

المبحث الرابع: ثمـــرات الخـشـوع

للخشوع ثمراتٌ نافعة، ومنافعُ رائعة، وحسناتٌ للخاشعين رافعة، وعن النار دافعة، فهو من مكفرات الذنوب، وسبب لنيل مرضاة علام الغيوب، وبتحقيقه تُحط الذنوب، وتصلح القلوب، ويسلم الخاشع من مشابهة المنافقين، بل يوفّق لإقامة الصلاة وبقية أمور الدين، ففيه الفلاح والنجاح، واللين والانشراح، فهاك بعض فوائده المحمودة، ومنافعه المنشودة، حتىٰ تكون دافعةً لنا إلىٰ تحقيقه، وعونًا لمن جعله رفيقًا له في سيره وطريقِه:

١- الفــــلاح:

وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

قال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والفلاح: الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، أي: فازوا بما طلبوا أو نجوا مما هربوا... وأضيفت الصلاة إلىٰ المصلين لا إلىٰ الْمُصَلَّىٰ له؛ لانتفاع المصلي بها وحدَه، وهي عدته وذخيرته، وأما المُصلىٰ له فغنيٌّ عنها »(١).

(١) تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٤٥٨) [المؤمنون: ١].

٢- النجـــاة من النار:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يلجُ النارَ رجلٌ بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنمَ في مِنْخَرَيْ مُسلمٍ أبدًا**»(١).

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: « ولعلَّ الله تعالىٰ لا يوفق للبكاء من الخشية إلا من أرادَ له النجاة من النار ابْتِدَاءً »(٢).

وعن جعفر بن سليمان قال: « وعظ مالك بن دينار يومًا فتكلم فبكىٰ حوشب؛ فضرب مالك بيده علىٰ منكبه، وقال: ابكِ يا أبا بشر؛ فإنه بلغني أن العبد لا يزال يبكي حتىٰ يرحمه سيده، فيعتقه من النار »(٣).

٣- تكفـــير الذنوب:

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: « البكاء علىٰ الخطيئة يحط الذنوب كما تحط الريح الورق اليابس »(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١١) والنسائي (٣١٠٧) وأحمد (١٠٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٧٨).

(٢) حاشية السندي علىٰ سنن النسائي (٦/ ١٢) حديث رقم (٣١٠٧).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (٣/ ١٧٣).

(٤) المصدر السابق.

ومثل هذا الكلام لا يُقال بالرأي، وإنما يُحتمل أنه قاله مستندًا إلىٰ أدلة لا نعلمها، أو أنه استنبط هذا المعنىٰ من بعض النصوص.

٤- تحصيل الثـواب الكثير:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٩].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اختلف أهل التأويل فيمن عنىٰ بهذه الآية؛ فقال بعضهم: عنىٰ بها أصحمة النجاشي، وفيه أنزلت.

وقال آخرون: بل عنىٰ بذلك عبد الله بن سَلامٍ ومن معه.

وقال آخرون: بل عنىٰ بذلك مُسْلِمة أهل الكتاب. ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ يعني: خاضعين لله بالطاعة، مستكينين له بها متذلِّلين »(١).

والشاهد من الآية: أن الله سبحانه وصفهم بالخشوع ووعدهم بالأجر.

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظله، ذُكر منهم: «**رجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٢).

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٥٥٩ - ٥٦٠) [آل عمران: ١٩٩].

(٢) رواه البخاري (٦٢٩) ومسلم (٩١). من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فانظر كيف نال هذا الثواب الكثير بمرة واحدة يبكي فيها من خشية الله في خلوته، وبعض السبعة المذكورين في الحديث يستغرق عملُهم عمرًا طويلًا؛ كالشاب الذي نشأ في طاعة الله، وكالإمام العادل، فقد يبقىٰ إمامًا عشراتِ السنين، وكذلك الذي قلبه معلق بالمساجد، وأما الذي بكىٰ من خشية الله، فذكر أن بكاءً واحدًا من خشية الله قد يدخله في هذا الوعد الكريم، والثواب العظيم.

قال وهب بن منبه: « البكاء من خشية الله تعالىٰ مثاقيل بِرٍّ، ليس ثوابه وزنًا، إنما يُعطىٰ الباكي من خشية الله والصابر علىٰ طاعة الله أجرهم بغير حساب »[(١)].

٥- نيل رحمة الله سبحانه:

قال عمر بن ذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما رأيت باكيًا قط إلا خُيِّل إليَّ أن الرحمة قد تنزلت عليه »[(٢)].

وقال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « بلغنا أن البكاء من خشية الله مفتاح لرحمته »[(٣)].

٦- السلامة من تسلُّط الشيطان:

قال سهل بن عبد الله التُّسْتَري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من خشَعَ قلبُه لم يقربْ منه الشيطان »[(٤)].

---

(١) تهذيب الحلية (٢/ ٢٤٦).

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا (٣/ ١٧٣)

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (٣/ ١٧٣)

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٦).

٧- حب الصلاة والمحافظة عليها:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦] أَيْ: مَشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَىٰ الْخَاشِعِينَ (١).

٨- انكسار القلب وضعف تطلعه للشهوات:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] ولينُ القلوبِ هو زوالُ قسوتِهَا بحدوثِ الخُشوعِ فيها والرقةِ (٢).

وقال إبراهيم بن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا سكن الخوفُ القلوبَ أحرقَ مواضعَ الشهواتِ منها، وطرَدَ الدنيا عنها »(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **فالخاشعُ لله عبد قد خمدَتْ نيرانُ شهوته، وسكَنَ دخانُها عن صدره، فانجلىٰ الصدر، وأشرق فيه نورُ العظمة.** فماتتْ شهواتُ النفس، للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارحُ، **وتوقَّر**

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٩) [البقرة: ٤٥].

(٢) تفسير ابن رجب (٢/ ١٥) [سورة المؤمنون: ٢].

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٦١).

القلب، واطمأنَّ إلىٰ الله وذكره، بالسكينة التي تنزَّلتْ عليه من ربِّه، فصار مخبتًا له »(١).

٩- السلامة من النفــاق:

عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « إنَّ المؤمنَ جمع إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافقَ جمع إساءةً وأمنًا، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وقال المنافق: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ »(٢).

١٠- الرفعة، وعلو المنزلة:

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « ومن تخشع لله تواضعًا رفعه الله يوم القيامة »(٣).

١١- إجابة الدعـاء:

قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) كتاب الروح - ابن القيم (٢/ ٦٥٦).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٤) [المؤمنون: ٦٠].

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٠١).

والشاهد: أن خشوعهم كان من أسباب إجابة دعائهم.

١٢- قبـــول الأعمال:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

عن قيس بن سُلَيم العنبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «كان الضحاك بن مزاحم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا أمسىٰ بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لا أدري ما صعد اليوم من عملي!»[١].

١٣- يورث صاحبه أخلاقاً محمودة:

وذلك أن الخشوع أصل من أصول الأخلاق، وأساس من أسسها؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فالكبر، والمهابة، والدناءة أصل الأخلاق المذمومة، والكبر يقابل الخشوع، والخشوع يقابله الصلف، والتعالي، والجفاء، والرعونة، والدناءة، وأما الخشوع فهو عكس ذلك، فهو أصل الأخلاق الفاضلة؛ كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة، والعفة، والسيادة، والجود، والحلم، والعفو، والصفح، والاشتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدناءة، والتواضع، والقناعة، والصدق، والأخلاق، والمكافأة علىٰ الإحسان بمثله، أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك، فكلها ناشئة من الخشوع، وعلو الهمة.

---

(٥٠) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٦).

والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم ينزل عليها الماء، فتهتز، وتربو، وتأخذ زينتها، وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصاب حظه من التوفيق » - إلىٰ أن قال -: « فمن علَت همَّتُه، وخشَعت نفسُه اتصف بكلِّ خلق جميل، ومن دنت همتُه، وطغَت نفسُه اتَّصف بكلِّ خُلُقٍ رذيل »(١).

١٤- الهداية إلى الحق:

عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « البكاء من مفاتيح التوبة؛ ألا ترىٰ أنه يَرِقُّ فيندم؟ »(٢).

١٥- صلاح الحال:

عن المفضَّل بن مهلهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بلغني أن العبد إذا بكىٰ من خشية الله مُلئت جوارِحُه نورًا، واستبشرت ببكائه، وتداعت بعضها بعضًا: ما هذا النور؟ فيقال لها: هذا غشيَكم من نور البكاء »(٣).

١٦- قِلَّة الطمـــع في الدنيا:

كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلىٰ بعض أهله: أما بعد: فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك أو نهارك بُغِّضَ إليك كلُّ فان، وحُبِّبَ إليك كلُّ باق(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٦-٥١٧).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٣٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨).

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من أكثر ذكرَ الموتِ كفاه اليسيرُ، ومن عَلمَ أنَّ منطقَه من عمله قلَّ كلامُه »(١).

١٧- فيه تحقيق الاقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسلف الصالح.

١٨- الخشوع يورث الخوف والرهبة من المولى جَلَّ جَلَالُهُ؛

مما يكون له الأثرُ الحسنُ علىٰ سلوك العبد، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: أُمورُهم راجعةٌ إلىٰ مشيئته يحكمُ فيها ما يشاءُ بعدلِه؛ فلهذا لمَّا أيقنوا بالمعاد والجزاءِ سَهُل عليهم فعلُ الطاعاتِ وتركُ المنكرات »(٢).

١٩- الخشوع علامة على صلاح العبد، واستقامته:

قَالَ ذو النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « النَّاس عَلَىٰ الطريق مَا لَمْ يزل عَنْهُم الخوف، فَإِذَا زال عَنْهُم الخوف ضلوا عَنِ الطريق »(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٩) [البقرة: ٤٦].

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٥٤).

وقَالَ حاتم الأصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لكل شَيْء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر الأمل »(١).

٢٠- الخشوع يُعرِّفُ المسلمَ بربه ويجعلُه مستقيمًا على أمره:

فهو يكشفُ للعبد حقيقةَ أصله ومدىٰ ضعفِه وعجزِه وجهلِه، وحجمَ احتياجاتِه المطلوبة للاستمرار في الحياة، وأنه بالله لا بنفسه، ولو تخلت عنه العناية الإلهية طرفة عين لهلك.

٢١- الخشوع يوصل إلى اليقين بلقاء الله:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

٢٢- سبب لصلاح القلوب:

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأصل الخشوع: هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا وإنّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**» »(٢).

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٥٤).

(٢) الخشوع، لابن رجب (ص/ ١٧). والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

٢٣- الفوز بالبشرى:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **المخبت**: المتواضع الخاشع من المؤمنين. والخبت: ما انخفض من الأرض، أي: بشرهم بالثواب الجزيل »(١).

٢٤- الخشوع الصادق يحجز صاحبه عن فعل المعاصي:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصدَ الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. قال أبو عثمان: صِدْقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله »(٢).

ومعلوم أن الخشوع فيه معنىٰ الخوف.

٢٥- فيه فوائد صحية لكثير من الأمراض النفسية والبدنية:

وهذا لا يعني أن المسلم يتصنَّع الخشوع لهذا الهدف الصحي، وينسىٰ المقصد الأساس؛ وهو ابتغاء مرضات الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لنتذكر أن تعاليمَ

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٥٨) [الحج: ٣٤].

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٢).

الإسلام فيها كلُّ خير في الدين والدنيا، ولنحرص عليها نحن أولًا، ثم ننصح الذين يعانون من الأمراض النفسية بأن يُقبلوا علىٰ عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلىٰ تدبر القرآن، والوقوف عند معانيه، وستذهب تلك الأسقام والأوهام، وسيجدون كل خير بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تم ترتيب ما حوته هذه الثمرة في تمهيد وتسعة مطالب:

تمهيد:

أورد الباحث عبد الدائم الكحيل في موقعه علىٰ الانترنت (أسرار الإعجاز العلمي) بحثًا بعنوان: « **طاقة الخشوع** ».

وذكر فيه كثيرًا من الفوائد الصحية للخشوع، ونقل عن بعض الدراسات التي توصَّلَتْ إلىٰ العلاج ببعض التأملات التي هي دون الخشوع في الفائدة والتأثير، ثم بين أن الخشوع أنفع وأنجع، وهو مقال طويل ولكني سأنتقي منه بعض الفقرات المفيدة تجنُّبًا للإطالة.

قال فيه: « ربما تعجب عزيزي القارئ أن الخشوع هو أفضل علاج لكثير من الأمراض، وأن المؤمن عندما يمارس عبادة الخشوع يمتلك طاقة كبيرة في كل المجالات... لنقرأ... ».

المطلب الأول: هل للخشوع طاقة؟

أظهرت الدراسات العلمية شيئًا جديداً حول ما يسميه العلماء "التأمل"، ولكن هذا التأمل هو مجرد أن يجلس المرء ويحدّق في جبل أو شمعة أو شجرة

دون حركة ودون تفكير، ووجدوا أن هذا التأمل ذو فائدة كبيرة في معالجة الأمراض، وتقوية الذاكرة، وزيادة الإبداع، والصبر، وغير ذلك.

ولكن القرآن لم يقتصر علىٰ التأمل المجرد، بل قرنه بالتفكر والتدبر وأخذِ العبرة والتركيز علىٰ الهدف، وسماه "الخشوع" وكان الخشوع من أهم العبادات وأصعبها لأنه يحتاج لتركيز كبير، وهكذا فإن كلمة "الخشوع" تدل علىٰ أقصىٰ درجات التأمل مع التفكير العميق، وهذا الخشوع ليس مجرد عبادة، بل له فوائد مادية في علاج الأمراض واكتساب قدرات هائلة ومتجددة[(١)].

المطلب الثاني: الخشوع والقلب:

أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة جمعية القلب الأمريكية أن التأمل لفترات طويلة ومنتظمة يقي القلب من الاحتشاء أو الاضطراب، ويعمل التأمل علىٰ علاج ضغط الدم العالي وبالتالي تخفيف الإجهاد عن القلب، كما أظهرت هذه الدراسة أن للقلب عملاً مهمًا وليس مجرد مضخة، وتؤكد الدراسات أهمية التأمل والخشوع في استقرار عمل القلب.

ويقول الأطباء اليوم: إن أمراض القلب هي السبب الأول للموت في العالم، وسبب هذه الأمراض هو: وجود اضطراب في نظام عمل القلب، ومن هنا ندرك أهمية الخشوع في استقرار وتنظيم أداء القلب.

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

إن الدراسات تثبت اليوم أن التأمل يعالج الاكتئاب والقلق والإحباط، وهي أمراض العصر التي تنتشر بكثافة اليوم، ليس هذا فحسب، بل وجدوا أن التأمل المنتظم يعطي للإنسان ثقة أكثر بالنفس ويجعله أكثر صبراً، وتحملاً لمشاكل وهموم الحياة.

يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] وهكذا إخوتي وأخواتي! إذا أردتم أن تبعدوا عنكم اضطرابات القلب فعليكم بالخشوع ولو للحظات كل يوم(١).

المطلب الثالث: الخشوع وعلاقته بالموجات التي يطلقها الدماغ:

لقد وجد علماء الطب أن دماغ الإنسان يصدر ترددات كهرطيسية باستمرار، ولكن قيمة الترددات تتغير حسب نشاط الإنسان. ففي حالة التنبه والنشاط والعمل والتركيز يطلق موجات اسمها "بيتا" وهي ذبذبات يتراوح ترددها من ١٥ إلىٰ ٤٠ ذبذبة في الثانية (هرتز)، وفي حالة الاسترخاء والتأمل العادي يطلق الدماغ موجات "ألفا" ويتراوح ترددها من ٩ إلىٰ ١٤ ذبذبة في الثانية، أما في حالة النوم والأحلام والتأمل العميق فيعمل الدماغ علىٰ موجات "ثيتا" وهي من ٥-٨ هرتز، وأخيراً وفي حالات النوم العميق بلا أحلام يطلق الدماغ موجات "دلتا" وقيمتها أقل من ٤ هرتز.

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

نستطيع أن نستنتج أن الإنسان كلما كان في حالة خشوع فإن الموجات تصبح أقل ذبذبةً، وهذا يريح الدماغ ويقوِّيه ويساعد علىٰ إصلاح الخلل الذي أصابه نتيجة مرض، أو اضطراب نفسي مثلاً ... إن أهم موجات يبثها الدماغ هي تلك الموجات ذات التردد المنخفض، والتي تعتبر وسيلة شفائية للجسد بسبب تأثيرها علىٰ خلايا الجسم والنظام المناعي، وبالتالي فإن التأمل وبكلمة أخرىٰ "**الخشوع**" يعتبر وسيلة فعالة لتوليد هذه الموجات، والتي تؤثر إيجابياً علىٰ خلايا الدماغ وتعيد برمجته وتصحيح الخلل الحاصل في برنامج عمل الدماغ.

إن ممارسة الخشوع يعتبر بمثابة تهيئة وتنظيم وتقوية لعمل الدماغ (١).

المطلب الرابع: الخشوع يزيد حجم الدماغ:

قام باحثون من كلية هارفارد الطبية حديثاً بدراسة التأثير المحتمل للتأمل علىٰ الدماغ، فوجدوا أن حجم دماغ الإنسان الذي يُكثر من التأمل أكبر من حجم دماغ الإنسان العادي الذي لم يعتد التأمل أو الخشوع، ولذلك هناك اعتقاد بأن التأمل يزيد من حجم الدماغ، أي يزيد من قدرات الإنسان علىٰ الإبداع والحياة السليمة والسعادة ... كما أظهرت هذه الدراسة (William J. Cromie, Harvard University) أنه كلما كانت مدة التأمل أكبر كان التأثير أوضح علىٰ الدماغ من حيث الحجم واستقرار عمل الدماغ،

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

أي: أن هناك علاقة بين التأمل وحجم وسلامة الدماغ. طبعـًا هذا التأثير علىٰ الدماغ يحدث بفعل التأمل فقط، ولكن الخشوع يعطي نتائج أكبر[(١)].

المطلب الخامس: الخشوع يخفف الآلام:

بعد فشل الطب الكيميائي في علاج بعض الأمراض المستعصية، لجأ بعض الباحثين إلىٰ العلاج بالتأمل بعدما لاحظوا أن التأمل المنتظم يساعد علىٰ تخفيف الإحساس بالألم، وكذلك يساعد علىٰ تقوية جهاز المناعة.

وفي دراسة جديدة تبين أن التأمل يعالج الآلام المزمنة، فقد قام بعض الباحثين بدراسة الدماغ لدىٰ أشخاص طُلب منهم أن يغمسوا أيديهم في الماء الساخن جداً، وقد تم رصد نشاط الدماغ نتيجة الألم الذي شعروا به، وبعد ذلك تم إعادة التجربة مع أناس تعودوا علىٰ التأمل المنتظم، فكان الدماغ لا يستجيب للألم، أي أن التأمل سبّب تأثيراً عصبياً منع الألم من إثارة الدماغ.

وهكذا نستطيع أن نستنتج أن الخشوع يساعد الإنسان علىٰ تحمل الألم بل وتخفيفه بدرجة كبيرة[(٢)].

وهو أفضل وسيلة لتعلم الصبر، وعلاج فعال للانفعالات، فإذا كان لديكم مشكلة نفسية مهما كان نوعها، فما عليكم إلا أن تتأملوا كل يوم في معجزة من

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

(٢) وهذا يذكرنا بقصة عروة بن الزبير رحمه الله، عندما أرادوا قطع رجله فأبىٰ أن يشرب المسكر وأخبرهم أن يقطعوا رجله إذا سجد؛ ففعلوا!

معجزات القرآن مثلاً، أو تستمعوا لآيات من القرآن بشيء من التدبر، أي تعيشوا في جو الآيات، عندما تسمعون آية عذاب تتخيلون نار جهنم وحرّها، وعندما تستمعون لآية نعيم تتخيلون الجنة وما فيها من نعيم، وهكذا كانت قراءة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للقرآن (١).

المطلب السادس: الخشوع والعاطفة:

لاحظ بعض العلماء عندما أجروا مسحًا للدماغ بالرنين المغنطيسي الوظيفي fMRI أن الإنسان الذي يتعود علىٰ التأمل، يكون أكثر قدرة علىٰ التحكم بعواطفه، وأكثر قدرة علىٰ التحكم بانفعالاته، وبالنتيجة أكثر قدرة علىٰ السعادة من غيره! كذلك فإن التأمل يؤدي إلىٰ تنظيم عاطفة الإنسان وعدم الإسراف أو التهور في قراراته، لأن التأمل ينشط المناطق الحساسة في الدماغ تنشيطًا إيجابيًا بحيث يزيل التراكمات السلبية والخلل الذي أصاب هذه الأجزاء نتيجة الأحداث التي مر بها الإنسان(٢).

المطلب السابع: الخشوع لعلاج الأمراض المستعصية:

هناك مراكز خاصة في الغرب تعالج المرضىٰ بالتأمل، ويقولون: إن التأمل يشفي من بعض الأمراض التي عجز الطب عنها، ولذلك تجد اليوم إقبالاً كبيراً، وكلما قرأتُ عن مثل هذه المراكز أقول: سبحان الله! ألسنا نحن أولىٰ منهم بهذا

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

(٢) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

العلاج، لأن القرآن جعل الخشوع والتأمل والتفكر في خلق الله عبادة عظيمة ... ولذلك يا إخوتي إذا كان لدىٰ أحدكم مرضـًا مستعصيًا أو مزمنًا، فما عليه إلا أن يجلس كل يوم لمدة ساعة مع معجزة من معجزات القرآن في الفلك أو الطب أو الجبال والبحار وغير ذلك، ويحاول أن يتعمق في خلق الله وفي عظمة هذا القرآن، وهذه الطريقة أعالج بها نفسي من بعض الأمراض، وكذلك من أي مشكلة نفسية، ولذلك أنصح كل مؤمن أن يلجأ إلىٰ هذه الطريقة في العلاج (١).

المطلب الثامن: الخشوع والناصية:

وجد العلماء أن ناصية الإنسان أي الجزء الأمامي من الدماغ تنشط بشكل كبير أثناء التأمل والتفكير العميق والإبداعي، هذه المنطقة من الدماغ هي مركز القيادة أيضـًا لدىٰ الإنسان، ومركز اتخاذ القرارات المهمة والمصيرية، ولهذا الجزء من الدماغ أثر كبير علىٰ سلوكنا وعواطفنا واستمرار حياتنا؛ ولذلك نجد أن النبي الأعظم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ركَّز علىٰ هذا الجزء في دعائه لربه فكان يقول: «**ناصيتي بيدك**» أي: يا رب لقد أسلمتك ناصيتي، وهي مركز القيادة والقرارات والسلوك، وأنت توجهها كيف تشاء.

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

كذلك فإن أحد أساليب العلاج بالقرآن أن تضع يدك علىٰ منطقة الناصية ثم تقرأ آيات من القرآن بخشوع فيكون لها تأثير أكبر. وبالتالي يمكن القول إن المؤمن عندما يمارس الخشوع في عباداته وفي عمله وفي تفكره وتدبره لكتاب ربه، وحتىٰ في علاقاته الاجتماعية، فإن هذه المنطقة؛ أي: الناصية تتنشط وتصبح أكثر قدرة علىٰ الإبداع وعلىٰ توجيه الجسد وعلىٰ اتخاذ القرارات الصحيحة(١).

المطلب التاسع: الخشوع والفصام:

عندما درس بعض الباحثين أدمغة لأناس أصيبوا بالفصام (schizophrenia) وجدوا أن الفص الأمامي للدماغ يكون أصغر من الشخص السوي، واستنتجوا الأثر الكبير للنشاط الذي يتم في هذه المنطقة الحساسة من الدماغ أي منطقة الناصية علىٰ مثل هذا المرض؛ ولذلك يمكننا القول: إن الخشوع يعالج الانفصام في الشخصية بشكل أكثر فعالية من أي دواء كيميائي، لأن الخشوع والتفكر ينشط هذا الجزء بشكل كبير، ويعدل الخلل الحاصل فيه.

إذ أن انفصام الشخصية يمكن أن يسبب خسارة في خلايا الدماغ تصل إلىٰ ١٠٪ من حجمه، ويمكن تعويض هذه الخسارة بقليل من الخشوع كل يوم! (٢).

---

(١) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

(٢) الرابط: http://www.kaheel7.com/ar.

٢٦- الثمرة السادسة والعشرون من ثمرات الخشوع:

أنه سبب لنيل المغفرة والأجر العظيم؛ المذكورَين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المبحث الخامس: الألفاظ المقاربة للخشوع في المعنى

جاءت ألفاظٌ في القرآن والسنة مقاربةٌ للخشوع في معناها، وقد فُسّرت بالخشوع وفُسِّرَ بها؛ فمن ذلك:

١- الخشوع بمعنى الخوف:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

قال أبو العالية رَحِمَهُٱللَّهُ، في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ قال: « يعني الْخَائِفِين »(١).

وقال الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: « ويعني بقوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده »(٢).

وقال الزبيدي رَحِمَهُٱللَّهُ: والخشوع: « الخوف، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢] أي: خائفون »(٣).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠٠) [البقرة: ٤٦].

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٩) [البقرة: ٤٦].

(٣) تاج العروس (٢٠/ ٥١٠).

وفي المعجم الوسيط:

خَشَعَ خُشوعًا: خضَع.

وخَشَعَ: ذلَّ.

وخَشَعَ: خاف (١).

٢- الخشوع بمعنى الخشية:

قال ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع: الخوف والخشية لله، وقرأ قول الله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] قال: قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم، وخشعوا له »(٢).

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخوف، والخشية، والخضوع، والإخبات، والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أنَّ خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع، والإخبات، والوجل، فإنها تنشأ عن الخوف والخشية، فيخضع العبد لله، ويخبت إلىٰ ربه منيبًا إليه بقلبه، ويحدث له الوجل »(٣).

---

(١) المعجم الوسيط؛ مادة: خشع. (ص/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠٠) [البقرة: ٤٦].

(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، (ص ٣٦١ – ٣٦٢)، دار عالم الكتب.

وقد عَرَّف الراغب الأصفهانيُّ الخشية بالخوف مع التعظيم؛ فقال:

« الخَشيةُ: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علمٍ بما يُخشىٰ منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء: ٩] أي: ليستشعروا خوفًا عن مَعرِفَتِه، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: ٣١] أي: لا تقتلوهم معتقدين مخافة أن يلحقهم إملاق، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٥] أي: لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه »(١).

٣- الخشوع بمعنى الخضوع:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥] عن الضحاك، في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: « إنها لثقيلة. ويعني بقوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾: إلا علىٰ الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده »(٢).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. (خشي)، [ص/ ٢٣٥].

(٢) تفسير الطبري – جامع البيان ط دار التربية والتراث (١/ ١٥) [البقرة: ٤٦].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠] أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم »(١).

وقال العلامة الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخُضوعُ: الخُشوعُ، وقد تقدم، ورَجلٌ خُضَعَةٌ: كثيرُ الخُضوعِ، ويُقال: خَضَعْتُ اللحم، أي: قطَعتُه، وظليمٌ أَخضعُ: في عُنقِهِ تَطامُنٌ »(٢).

وقد ورد في السنة استعمال لفظ الخشوع بمعنىٰ الخضوع؛ فمن ذلك: **حديث** جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أتانا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون ابن طاب، فرأىٰ في قبلة المسجد نخامة فحكها بالعرجون، ثم أقبل علينا فقال: «**أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟**» قال: **فخشعنا**. ثم قال: «**أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟**» قال: **فخشعنا**، ثم قال: «**أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟**» قلنا: لا أينا، يا رسول الله! قال: «**فإن أحدكم إذا قام يصلي، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قبل وجهه، فلا يبصقن قبل وجهه ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرىٰ، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا**» ثم طوىٰ ثوبه بعضه علىٰ بعض(٣).

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٧١٨) [الأنبياء: ٩٠].

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. (خضع) [ص/ ٢٣٧].

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٨).

قال النووي: قوله: « «فخشعنا» هو من الخشوع، وهو الخضوع والتذلل والسكون، وأيضا غض البصر، وأيضا الخوف »(١).

٤- الخشوع بمعنى الإخبات:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥] قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: الخاشعين. وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع في الأخلاق والخشوع في الأبدان »(٢).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والْمُخْبِتِينَ: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، والخبت ما انخفض من الأرض والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض »(٣).

وقال العلامة الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخبت: المطمئن من الأرض، وأخبت الرجل: قصد الخبت، أو نزله، نحو: أسهل وأنجد، ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع، ... وقوله تعالىٰ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤] أي: تلين وتخشع، والإخبات هاهنا قريب من الهبوط في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤] »(٤).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٨/ ١٣٧) حديث رقم (٣٠٠٨).

(٢) تفسير الماوردي - النكت والعيون (٤/ ٢٥) [الحج: ٣٤].

(٣) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٢٢) [الحج: ٣٤].

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. مادة (خبت) [ص/ ٢٢٦].

وقال القرطبي: « قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [**الحج: ٥٤**] ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي: **تخشع وتسكن** »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والمخبِتُ: المطمئنُّ، فإنَّ الخَبْت من الأرض: ما تطامَن فاستنقع فيه الماء. فكذلك القلبُ المخبِتُ قد خشع وتطامَنَ، كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماءُ، فيستقرُّ فيها، وعلامته أن يسجدَ بين يدي ربه إجلالًا له وذلًّا وانكسارًا بين يديه سجدةً لا يرفع رأسَه منها حتىٰ يلقاه. وأمَّا القلبُ المتكبِّرُ، فإنه قد اهتزَّ بتكبُّره ورَبا، فهو كبقعةٍ رابية من الأرض لا يستقرُّ عليها الماء »(٢).

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾: « أي: **تخشع وتسكن وتنقاد**، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكينًا من الشيطان بل للقرآن »(٣).

٥- الخشوع بمعنى الإيمان والتصديق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [**البقرة: ٤٥**] .

---

(١) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٨٧) [الحج: ٥٤].

(٢) كتاب الروح – ابن القيم (٢/ ٦٥٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٤٧) [الحج: ٥٤].

قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: « يعني المُصَدِّقين بما أَنزلَ الله. وقال مُجَاهِدٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا »(١).

وقال البغوي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]: « يعني: المؤمنين، وقال الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ: الخائفين، وقيل: المطيعين »(٢).

٦- الخشوع بمعنى التواضع:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]

قال مقاتل بن حيَّانَ رَحِمَهُٱللَّهُ: « يعني به المتواضعين، وأصل الخشوع: السكون، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨] فالخاشع ساكن إلىٰ طاعة الله تعالىٰ »(٣).

وعن سعيد بن جبير، قال: « يعني: متواضعين، لا يعرف من عن يمينه، ولا من عن شماله، ولا يلتفت من الخشوع لله عَزَّوَجَلَّ »(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٩) [البقرة: ٤٦].

(٢) تفسير البغوي تفسير البغوي (١/ ١١٢) [البقرة: ٤٥].

(٣) تفسير البغوي تفسير البغوي (١/ ١١٢) [البقرة: ٤٥].

(٤) تفسير ابن رجب (٢/ ٦) [المؤمنون: ٢].

وقال الماوردي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥] « والخشوع في الله: التواضع، ونظيره الخضوع، وقيل: إن الخضوع في البدن، والخشوعَ في الصوت »(١).

٧- الخشوعَ بمعنى الضراعة:

قال العلامة الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع: الضَّراعةُ، وأكثرُ ما يُستعملُ الخشوعُ فيما يُوجدُ علىٰ الجوارحِ، والضَّراعةُ أكثرُ ما تستعمل فيما يوجَدُ في القلب. ولذلك قيل فيما روي: «إذا ضرع القلب خشعت الجوارح»»(٢)، ثم ذكر بعض آيات الخشوع.

٨- القنوت بمعنى الخشوع:

قال تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

عن مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قوله: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ قال: « فمن القنوت طول الركوع، وغض البصر، وخفض الجناح، والخشوع من رهبة الله. كان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يلتفت، أو أن يقلب الحصىٰ، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسيًا »(٣).

---

(١) تفسير الماوردي النكت والعيون (١/ ١١٦) [البقرة: ٤٥].

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. (خشع) [ص/ ٢٣٤].

(٣) تفسير الطبري - جامع البيان (٥/ ٢٣٤) [البقرة: ٢٣٨]. والحلية لأبي نعيم (٣/ ٢٨٢).

وقال أبو بكر الجصاص الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾: فأُمر فيها بالدوام علىٰ الخشوع والسكون والقيام »(١).

وقال أبو منصور الأزهري الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والقنوت أيضًا: الخشوع، ومنه يقول الله - عَزَّوَجَلَّ - ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ أي: خاشعين »(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلىٰ أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما، ذهب إليه آخرون »(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾ [الأحزاب: ٣١].

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: ومن تخشع وتخضع لله ورسوله وتعمل عملًا صالحا كصلاة وصوم وحج وإيتاء زكاة »(٤).

---

(١) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص/ ٧٠).

(٢) أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٢/ ١٦٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٠٧) [الزمر: ٩].

(٤) تفسير الألوسي - روح المعاني (١١/ ١٨٣) [الأحزاب: ٣١].

المبحث السادس: المخلوقات التي وُصِفتْ بالخشوع

وردت إضافة الخشوع في القرآن إلىٰ الجبال، والأرض، والأبصار، والوجوه، والأصوات، وحال الكفار في عرصات القيامة، والقلوب، والحجارة.

وكذلك ورد إضافة الخشوع في لغة العرب إلىٰ مخلوقات أخرىٰ غير ما ذُكر في القرآن، وإليك ذكر الآيات مع معانيها، ثم بعض ما ورد في اللغة العربية:

١- الجبال:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسيرها يقول: «لو أني أنزلت هذا القرآن علىٰ جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثِقله، ومن خشية الله، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ الناس إذا أنزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾»(١).

وعن قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: «يعذر الله الجبل الأصمّ، ولم يعذر شقيّ ابن آدم، هل رأيتم أحدًا قط تصدّعت جوانحه من خشية الله؟ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: وهذه الأشياء نشبهها للناس، وذلك تعريفه جلّ

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٢٣/ ٣٠١) [الزمر: ٩].

ثناؤه إياهم أن الجبال أشدّ تعظيمًا لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يقول: يضرب الله لهم هذه الأمثال ليتفكروا فيها، فينيبوا، وينقادوا للحق »(١).

٢- الحجارة:

قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

قال الراغب الأصفهاني: « وقوله تعالىٰ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤] أي: تلين وتخشع، والإخبات هاهنا قريب من الهبوط في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ﴾ »(٢).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإنَّ الغرَضَ من سياقِ هذا الكلامِ هو التصريحُ بأنَّ قلوبَ هؤلاء بلغتْ في القَسْوَةِ وفرْطِ اليُبْسِ المُوجِبَينِ لعدمِ قَبُولِ الحقِّ والتأثُّر للمواعظِ إلىٰ مكانٍ لم تبلغْ إليه الحجارة، التي هي أشدُّ الأجسامِ صلابةً وأعظمُها صَلادةً، فإنها ترجعُ إلىٰ نوع من اللين، وهي تفجُّرُها بالماء وتشقُّقُها

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٢٣/ ٣٠١) [الزمر: ٩].

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني. مادة (خبت). [ص/ ٢٢٦].

عنه وقبولُها لما توجِبُه الخشيةُ لله من الخشوعِ والانقياد بخلاف تلك القلوبِ، وفي قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: ٧٤] من التهديد وتشديدِ الوعيد ما لا يخفىٰ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ إذا كان عالمًا بما يعملونه مطلعًا عليه غير غافلٍ عنه كان لمُجازاتِهم بالمِرصاد»(١).

٣- الأرض:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأرض تكون جدبة يابسة في الشتاء، فإذا نزل عليها المطر اهتزت بالنبات واخضرّت، وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألّمت به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركات الندم، وعفا عن أربابها ما قصروا في صدق القدم، وكذلك إذا وقعت للعبد فترة في معاملاته، أو غيبة عن بساط طاعاته، ثم تغمّده الحقّ- سبحانه- بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوار الوفاق، فيعود إلىٰ مألوف مقامه، ويرجع عود سداده غضًّا طريًا، ويصير شجر وفاقه- بعد ما أصابته الجدوبة- بماء العناية مستقيًا.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٨٧) [البقرة: ٧٤].

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بدر منهم حجْبَة، ثم نظر الحقّ- سبحانه- إليهم بالرعاية .. اهتزّت رياض أنسهم، واخضرّت مشاهد قربهم، وانهزمت وفود وقفتهم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾: إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر علىٰ إحياء النفوس بالحشر والنشر، وكذلك هو قادر علىٰ إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة »(١).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن حجج الله أيضا وأدلته علىٰ قدرته علىٰ نشر الموتىٰ من بعد بلاها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها أنك -يا محمد- ترىٰ الأرض دارسة غبراء، لا نبات بها ولا زرع، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: فإذا أنزلنا من السماء غيثًا علىٰ هذه الأرض الخاشعة اهتزت بالنبات. يقول: تحرّكت به. عن مجاهد، قوله: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ قال: بالنبات، ﴿وَرَبَتۡۚ﴾ يقول: انتفخت »(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو: يُبْسها وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات »(٣).

---

(١) لطائف الإشارات - تفسير القشيري (٣/ ٣٣٤) [فصلت: ٣٩].

(٢) تفسير الطبري - جامع البيان (٢١/ ٤٧٥) [فصلت: ٣٩].

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٩٣) ط٢ عطاءات العلم، ١٤٤١هـ.

وفي المعجم الوسيط: « خَشَعَ الأَرْضُ: يبست لعدم المطر. وذكر الآية »(١).

٤- الأبصار:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧] قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع في البصر: الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلىٰ الأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان. ويقال: خشع واختشع؛ إذا ذل. وخشع ببصره؛ أي: غضه »(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: ٤٣] قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضًا من الثلج، وتسود وجوه الكافرين والمنافقين؛ ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾ أي: يغشاهم ذلة الندامة والحسرة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ قال إبراهيم التيمي: يعني إلىٰ الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة. وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حي علىٰ الصلاة حي علىٰ الفلاح فلا يجيبون ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ أصِحَّاء فلا يأتونه، قال كعبُ الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا عن الذين يتخلفون عن الجماعات »(٣).

---

(١) المعجم الوسيط، (ص/ ٢٣٥) مادة: (خشع).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٢٩) [القمر: ٧].

(٣) تفسير البغوي (٥/ ١٤٢) [القلم: ٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ [المعارج: ٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾ [النازعات: ٨-٩] قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والمعنىٰ: أبصارُ أصحابِها، فحُذِف المُضاف »(١).

وفي المعجم الوسيط: « خَشَعَ بصرُه: اِنكسَرَ. وخَشَعَ الشيءُ: سكن. وخَشَعَ أيضًا: رمىٰ ببصره نحو الأرض وغضَّه. وخَشَعَ ببصره: غَضَّه »(٢).

٥- الوجوه:

قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾ [الغاشية: ٢].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والوجوه الخاشعة: هي وجوهُ الكفار، وخشوعُها: ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب »(٣).

٦- الأصوات:

قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: ١٠٨].

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٦) [النازعات: ٩].

(٢) المعجم الوسيط، (ص/ ٢٣٥)، مادة (خشع).

(٣) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز (١٠/ ٢٣٢) [الغاشية: ٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: وسَكنت أصوات الخلائق للرحمن، فوصف الأصوات بالخشوع، والمعنىٰ لأهلها؛ إنهم خضع جميعهم لربهم، فلا تسمع لناطق منهم منطقًا إلا من أذن له الرحمن »(١).

وفي المعجم الوسيط: « خَشَعَ صوتُه: اِنخفَضَ وسكن، وفي التنزيل العزيز قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ [طه: ١٠٨] خَشَعَ: خَفَضَ صوتَه »(٢).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخشوع في الصوت والبصر كالخُضوع في البدن »(٣).

٧- القلوب:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ **ثلاثة تأويلات:**

أحدها: أن تلين قلوبهم لذكر الله.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٥٩) [طه: ١٠٨].

(٢) المعجم الوسيط، (ص/ ٢٣٥) مادة (خشع).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (ص/ ٢٦٥)، مادة «خشع».

الثاني: أن تذل قلوبهم من خشية الله.

الثالث: أن تجزع قلوبهم من خوف الله »(١).

٨- حال الكافرين عند رؤية العذاب يوم القيامة:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [**الشورى**: ٤٤-٤٥].

قال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾: « أي: علىٰ النار إذ العذاب يدل عليها ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيفٍ بمسارقةٍ كما ترىٰ المصبور ينظر الىٰ السيف »(٢).

٩- الورق:

قال الزبيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وحشيشةٌ خاشعة: يابسة ساقطة علىٰ الأرض، وكذا خشع الورق، إذا ذبل »(٣).

---

(١) تفسير الماوردي - النكت والعيون (٥/ ٤٧٧) [الحديد: ١٦].

(٢) تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٢٦٠) [الشورىٰ: ٤٥].

(٣) تاج العروس (٢٠/ ٥١٠).

وفي المعجم الوسيط: « وخَشَعَ الورقُ ونحوه: ذَبل »(١).

١٠- الشمس والكوكب:

قال الزبيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ويقال: خشعت الشمس، وخسفت، وكسفت: بمعنىٰ واحد، وهو مجاز »(٢).

وفي المعجم الوسيط: « وخَشَعَ الشمسُ: كَسَفت، وخَشَعَ الكوكبُ: دَنا من المغيب »(٣).

١١- السنام:

في المعجم الوسيط: « وخَشَعَ السَّنامُ: ذهب شحمُه إلا أَقلَّه »(٤).

١٢- الجدار:

قال الزبيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وجدار خاشع: إذا تداعىٰ واستوىٰ مع الأرض »(٥).

---

(١) المعجم الوسيط، (ص/ ٢٣٥) مادة (خشع).

(٢) تاج العروس (٢٠/ ٥١٠).

(٣) المعجم الوسيط، (ص/ ٢٣٥) مادة (خشع).

(٤) المصدر السابق.

(٥) تاج العروس (٢٠/ ٥١٠).

الفصل الثاني: الخشـوع في الصلاة

وقد احتوى هذا الفصل على تمهيد، وتسعة مباحث:

المبحث الأول: بيان المراد بالخشوع في الصلاة.

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع في الصلاة.

المبحث الثالث: التحذير من الرياء في عبادة الخشوع.

المبحث الرابع: أسباب الخشوع في الصلاة.

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف في صلاتهم.

المبحث السادس: موانع الخشوع في الصلاة.

المبحث السابع: حكم الخشوع في الصلاة.

المبحث الثامن: مظاهر الخشوع في الصلاة.

المبحث التاسع: مراتب الناس في خشوعهم الصلاة.

تمهـــيد

الخشوع: لبّ الصلاة وروحها، فلا يعرف عظمة الصلاة من لم يذق الخشوع فيها، وعلىٰ قدر الخشوع يكون الأجر، ولمّا كان الخشوع بهذه المنزلة؛ فإنّ الشّارع الحكيم قد أحاط الصّلاة بسياج منيع من الأحكام التي غايتها وفائدتها الحفاظ علىٰ المصلّي من كلّ ما يشغله عن الصلاة، حتىٰ لا يضيع عليه الخشوع(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « للعبد بين يدي الله موقفان: موقفٌ بين يديه في الصلاة، وموقفٌ بين يَدَيْهِ يَوْم لِقَائِه. فَمن قَامَ بِحَق الْموقف الأول هُوِّن عَلَيْهِ الْموقف الآخر، وَمن استهان بِهَذَا الْموقف وَلم يوفِّه حقّه شُدّد عَلَيْهِ ذَلِك الْموقف؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧] »(٢).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوعُ هو طمأنينةُ القلب، وثباتُه مع سكون الأطراف؛ أي: الجوارح اليدين والرجلين والبصر والرأس. والخشوع هو لبُّ الصلاة وروحُها »(٣).

---

(١) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم رحمه الله تعالىٰ [الشريط/ ١].

(٢) الفوائد (ص/ ٢٩١).

(٣) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب« الشريط رقم [٢٥٣].

المبحث الأول: بيان المراد بالخشوع في الصلاة وأقسامه

وفي هذا المبحث أربعة مطالب:

المطلب الأول: أقسام الخشوع:

الخشوع في الصلاة ينقسم إلىٰ قسمين: خشوع الباطن وهو الأصل، وخشوع الظاهر، وهو فرع عن خشوع الباطن؛ فالقلب إذا خشع خشعت الجوارح تبعًا له.

قال السّبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع قسمان: ظاهري، وباطني. فالظاهري: سكون الجوارح عن العبث وجَعْلُ بصرِه موضعَ سجودِه، والباطني: خوفُ القلبِ وخضوعُه، وَرِقَّتُه وسكونُه، وحفظُه عن الاشتغالِ بغير ما هو فيه من التأمُّل في معاني القرآن؛ فينشأ عنه سكون الجوارح »(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخُشُوعُ: منهم من جعله من أفعالِ القلوب، كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح، كالسكون وترك الالتفات والعبث، وهو في اللغة: السكون والتواضع والخوف والتذلل »(٢).

---

(١) الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلىٰ دين الحق (٢/ ٢٦٣).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٦٠) [المؤمنون: ٢].

المطلب الثاني: معنى قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

هذه الآية أصل في بيان أهمية الخشوع في الصلاة وفضله، ومن المهم معرفة كلام العلماء في معناها، ولهم كلام متقارب في بيان معناها، فمن ذلك:

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هو إعظام المقام، وإخلاص المقال، واليقين التام وجمع الاهتمام، ويتبع ذلك ترك الالتفات وهو من الشيطان»(١).

وقال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو أنْ لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة»(٢).

وعن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال: هو سكون العبد في صلاته»(٣).

وقال السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اتفق العلماء علىٰ أنه يُطلب من المصلي أن يكون خاشعًا خاضعًا مستحضرًا عظمةَ الله وهيبتَهُ، وأنه يناجي من لا تخفىٰ عليه خافية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] أي: خائفون من الله متذللون له، جاعلون أبصارهم إلىٰ مواضع سجودهم»(٤).

---

(١) تفسير الألوسي - روح المعاني (٩/ ٢٠٦) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٨) [المؤمنون: ٢].

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦) [المؤمنون: ٢].

(٤) الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلىٰ دين الحق (٢/ ٢٦٣).

وقال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] أي: خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح »(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] أي: قد فازوا وسعِدوا ونجَحُوا، وأدركوا كلَّ ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالىٰ، مستحضرًا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبًا بين يدي ربه، مستحضرًا جميعَ ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلىٰ آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يُكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابًا عليها، فإن الثواب علىٰ حسب ما يعقل القلب منها »(٢).

المطلب الثالث: كيفية الخشوع في الصلاة:

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخشوع: التطامن وسكون الأعضاء والوقار، وهذا إنما يظهر ممن في قلبه خوفٌ واستكانة »(٣).

---

(١) تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٤٥٨) [المؤمنون: ٢].

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٧٤٤) [المؤمنون: ٢].

(٣) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٣٦) [المؤمنون: ٢].

وقال فخر الدين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واختلفوا في الخشوع؛ فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين، وهو الأولىٰ »(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد شرع الله لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالىٰ من العبادات: الصلاة... »(٢).

وقال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقيل: الخشوع في الصلاة: جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، **وأنْ لا يجاوز بصره مصلاه، وأنْ لا يلتفت، ولا يعبث، ولا يسدل، ولا يفرقع أصابعه، ولا يقلب الحصىٰ، ونحو ذلك** »(٣).

---

(١) تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٣/ ٢٥٩).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٨) سورة المؤمنون آية (٢).

(٣) تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٤٥٨) [المؤمنون: ٢].

المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع في الصلاة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الحث على الخشوع في الصلاة:

قال الله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] عن مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قول الله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾، قال: « من القنوت الخشوع، وخفض الجناح من رهبة الله، وكان الفقهاء من أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا قام أحدهم إلىٰ الصلاة، لم يلتفت، ولم يقلب الحصىٰ، ولم يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسيًا حتىٰ ينصرف** »(١).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « القنوت: طول الركوع والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح، وإحضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالىٰ »(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع »(٣).

---

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٥/ ٢٣٥) [البقرة: ٢٣٨].

(٢) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٢٤) [البقرة: ٢٣٨].

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٢٢) [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر:٩] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر:٩]: « أي: في حال سجوده، وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلىٰ أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما، ذهب إليه آخرون »(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]، في هذه الآية بين ربُّنا سبحانه أن أول أسباب الفلاح بعد الإيمان والتوحيد هو المحافظة علىٰ الصلاة مع تحقيق الخشوع فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد علَّق الله فلاح المُصَلِّين بالخشوع في صلاتهم، فدلَّ علىٰ أنَّ من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعْتُدَّ له بها ثوابًا لكان من المُفلحين »(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، فذكر سبحانه أن الصلاة ثقيلة إلا علىٰ الخاشعين.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٠٧) [الزمر: ٩].

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٧١).

وقال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

عن مجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قولهِ تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ قال: «هو الخشوع في الصلاةِ»(١).

وقد ذكَرَ اللهُ الخاشعين في زمرة المغفور لهم، المحصِّلين للأجور العظيمة؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يحثُّ أصحابه علىٰ الخشوع في الصلاة، فمن ذلك: حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قال: «هل ترون قبلتي ههنا؟ فوالله ما يخفىٰ عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»(٢).

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٩) [المؤمنون: ٢]، والزهد والرقائق لابن المبارك (ص/ ٥٦) رقم (١٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤١٨) ومسلم (٤٢٤).

قال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يعني صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ ذلك ظاهر إليه، وإنما أراد بذلك حضهم على الخشوع وإتمام الركوع »[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: صلىٰ بنا رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، ثم انصرف فقال: «يا فلان، ألا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلىٰ كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه. إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي»[2].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفيه الأمر بإحسان الصلاة، والخشوع، وإتمام الركوع والسجود »[3].

ووردت آثار كثيرة عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، تبين فضل الخشوع وعظيم عنايتهم به، فمن ذلك:

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كل صلاة لا يحضرها قلبك فهي إلىٰ العقوبة أسرع منها إلىٰ الثواب »[4].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وإنَّ الرَّجُلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض »[5].

---

(١) المنتقىٰ شرح موطأ مالك (١/ ٢٩٧) حديث رقم (٤٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤٢٣).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (٤/ ١٥٠).

(٤) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٧٠).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٤). ونمَاهُ في كتابه الوابل الصيب (ص/ ٤٤) إلىٰ حسان بن عطية.

أي. بحسب تفاوتهم في الخشوع وحضور القلب.

وقال الشاعرُ:

أَلا فِي الصَّلاةِ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ أَجْمَعُ ... لأنَّ بِهَا الآرَابُ[1] لِلَّهِ تَخْضَعُ
وَأوَّلُ فَرْضٍ مِنْ شَرِيعَةِ دِينِنَا ... وَآخِرُ مَا يَبْقَى إِذَا الدِّينُ يُرْفَعُ
فَمَنْ قَامَ لِلتَّكْبِيرِ لاقَتْهُ رَحْمَةٌ ... وَكَانَ كَعَبْدٍ بَابَ مَوْلاهُ يَقْرَعُ
وَصَارَ لِرَبِّ الْعَرْشِ حِينَ صَلاتِهِ ... نَجِيًّا فَيَا طُوبَاهُ لَوْ كَانَ يَخْشَعُ[2]

المطلب الثاني: ثواب الخاشعين في الصلاة:

عن عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا نبيَّ الله، فالوضوء حدِّثْني عنه. قال: قال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه، فيتمضمض، ويستنشق، فينتثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلىٰ المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلىٰ الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلىٰ، فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»[3].

---

(١) الآراب: جمع الارب (بكسر فسكون) وهو العضو.

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٠٤) [المؤمنون: ٢].

(٣) رواه مسلم (٨٣٢).

والشاهد: «وفرَّغ قلبه لله»، وهذا يدل علىٰ الخشوع، وأجر ذلك؛ مغفرة الذنوب.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي، فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمًا يُحدِّث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم؛ فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: فقلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئت آنفًا. قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أو فيسبغ) الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وقد جمع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهاتين اللفظتين أنواع الخضوع والخشوع؛ لأن الخضوع في الأعضاء، والخشوع بالقلب، علىٰ ما قاله جماعة من العلماء، قوله: (ما أجود هذه) يعني هذه الكلمة، أو الفائدة، أو البشارة، أو العبادة، وجودتها من جهات: منها أنها سهلة متيسرة يقدر عليها كل أحد بلا مشقة، ومنها أن أجرها عظيم، والله أعلم »(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٣/ ١٢١).

وعن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**ما من امرئ مسلمٍ تحضرُه صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله**»(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: « هذا المذكور في الحديث من غفران الذنوب «**ما لم تؤت كبيرة**» هو مذهب أهل السنة، وأن الكبائر إنما تكفرها التوبة أو رحمة الله تعالىٰ وفضله، والله أعلم »(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: « **فإن الصلاة إنما تُكَفِّرُ سيئات من أدَّىٰ حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالىٰ بقلبه وقالبه**؛ فهذا إذا انصرف منها وجد خِفَّةً من نفسه، وأحس بأثقالٍ قد وُضِعَتْ عنه، فوجد نشاطًا وراحَة وروحًا، حتىٰ يتمنىٰ أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرةُ عينه، ونعيمُ روحه، وجنة قلبه، ومُسْتَراحُه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتىٰ يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها، فالمُحِبُّون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا بلالُ أرِحنا بالصلاة**» ولم يقل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: أرحنا منها »(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٣/ ١١٢) حديث (٢٢٨).

(٣) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب (ص/ ٤٦).

المطلب الثالث: يؤجر المصلي بقدر خشوعه وحضور قلبه:

عن عمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إنَّ الرجلَ لينصرفُ وما كتب له إلا عُشْرُ صلاتِه تسْعُها ثمْنُها سبْعُها سدْسُها خمسُها ربعُها ثلثُها نصفُها»(١).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ» أي: من صلاته «وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ» أي: عشر ثوابها؛ لِمَا أخلَّ في الأركان والشرائط والخشوع والخضوع وغير ذلك، والجملة حالية «تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا إِلَخْ» بحذف حرف العطف، **والمعنىٰ**: أن الرجل قد ينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا عشر ثوابها أو تسعها أو ثمنها إلخ، بل قد لا يكتب له شيء من الصلاة، ولا تقبل أصلًا كما ورد في طائفة من المصلين »(٢).

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: « لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِك إِلَّا مَا عَقَلْت مِنْهَا »(٣).

وقال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُٱللَّهُ: « أَجْمَعَتِ الْعُلَمَاءُ علىٰ أنه لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ منها »(٤).

المطلب الرابع: الترهيب من ترك الخشوع في الصلاة:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [**الماعون: ٤-٥**].

---

(١) رواه أبو داود (٧٩٦) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٧٩٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي دواد، (٣/ ٣) حديث رقم (٧٩٦).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٢٣٦)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٧١).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ١٦١).

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يومًا على المنبر -: « إنّ الرّجل لَيَشِيبُ عارِضَاه في الإسلام وما أكمل لله تعالىٰ صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمّ خشوعَها وتواضُعَهَا وإقبالَه علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قالوا: وقد قال الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤-٥]، وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها؛ إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب؛ ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء، **قالوا**: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط، فهو تنبيه علىٰ التوعد بالويل علىٰ سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولىٰ؛ لوجوه: **أحدها**: أن الوقت يسقط في حال العذر، وينتقل إلىٰ بدله، والإخلاص والحضور لا يسقط بحال، ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور؛ فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور، كالمسافر، والمريض، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلىٰ الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٧٠) ط دار الكتب.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب على الله في الصلاة أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شدة من القرآن، أو ترك تسبيحة، أو قول سمع الله لمن حمده، أو قول ربنا ولك الحمد، أو ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة عليه، ثم يصححها مع فوت لبها، ومقصودها الأعظم، وروحها وسرها »[١].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) مدراج السالكين (٢/ ٤٧٢).

المبحث الثالث: التحذير من الرياء في عبادة الخشوع

هذا المبحث الهام الذي يحتاجه كل مسلم في عبادة الخشوع، وفي غيرها من العبادات، تم ترتيبه في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ذمُّ التظاهر بالخشوع رياءً:

إن الخشوع عبادة من أجلِّ العبادات فلا بد أن يكون خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وموافقًا لهدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأدلة الإخلاص والمتابعة في جميع العبادات تصلح دليلًا هاهنا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥] قال السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: « أَيْ: قاصدين بجميع عباداتِهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفىٰ لديه »(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢-٣] قال الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: « وقولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ يقول تعالىٰ ذكره: فاخشعْ لله يا محمدُ بالطاعة، وأخلصْ له الألوهية، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكًا، كما فَعَلَتْ عَبَدَةُ الأوثان »(٢).

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٢٩٩) [البينة: ٥].

(٢) تفسير الطبري - جامع البيان (٢١/ ٢٥٠) [الزمر: ٢].

وقد أخبر ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن الرياءَ من خُلُقِ أهل النفاق؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وقد ورد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديثُ كثيرة، تبين ضرر الرياء، وخسران المرائين، وكيف تعود أعمالهم وبالاً عليهم، فمن ذلك:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أنا أغنىٰ الشركاءِ عن الشرك، من عمل عملًا أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِركهُ**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد: أنَّ عمَلَ المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به »(٢).

وعن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادىٰ مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٨/ ١٥٦) حديث رقم (٢٩٨٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٠٣) والترمذي (٣١٥٤) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٧).

وعن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – ونحن نتذاكر المسيح الدجال – فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قال: قلنا: بلىٰ، فقال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته، لما يرىٰ من نظر رجل**»(١).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(٢).

قال أهل العربية: « "**الرد**" هنا بمعنىٰ المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتد به. **وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلِمِهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات »(٣).

ومما لا شكَّ فيه أن التظاهرَ بالخشوع رياءً مخالفٌ لهدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقد ورد عن السلف التنفيرُ عن الرياء، وبيانُ ضرره، وإنكارُهم الشديدُ على من رأوه يتظاهر بالخشوع، فمن ذلك:

عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: يا أبا الدرداء وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترىٰ الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع »(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤) وأحمد (١١٢٥٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ١٦) حديث رقم (١٧١٨).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠/ ١١٠).

ورُوِيَ أنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، نظر إلىٰ رجل وهو يُطأطئُ رقبتَه، فقال: « يا صاحب الرقبة! ارفعْ رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب »[1].

ورأتْ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: « من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمرُ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إذا مشىٰ أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا »[2].

ومر أبو أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ببعض المساجد، فإذا رجلٌ يصلي وهو يبكي، فقال له: « أنتَ أنتَ لو كان هذا في بيتك ».

قال الماوردي - بعد أن أورد هذا الأثر -: « فلم ير ذلك منه حسنًا؛ لأنه اتهمه بالرياء، ولعلّه كان بريئًا منه، فكيف بمن صار الرياءُ أغلبَ صفاتِه، وأشهرَ سِماتِه »[3].

وقال أبو علِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واتفقوا علىٰ أن الخشوع محله القلب، ورأىٰ بعضهم رجلا منقبض الظاهر منكسر الشاهد قد زوىٰ منكبيه، فقال: يا فلان الخشوع ههنا، وأشار إلىٰ صدره ، لا ههنا، وأشار إلىٰ منكبيه » [4].

(١) الكبائر للذهبي (ص/ ١٤٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٧).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص/ ١٠٥).

(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٦).

وقال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان يُكرَهُ أن يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ مما في قلبه »(١).

وقال الحريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مبينًا خسارة من يعمل ولم يخلص نيته لله سبحانه:

حَسْبُ المُرائين غَبْناً أنهمْ غرَسُوا ... وما جَنَوْا، ولَقُوا كَدّاً وإزعاجا
وأنهمْ حُرِموا أجراً ومَحْمِدَةً ... وأَلْحَموا عِرضَهُمْ مَنْ عابَ أوْ هاجا
أُخَيَّ فابغِ بما تُبديهِ مِنْ قُربٍ ... وجهَ المُهيمنِ؛ ولاَّجاً وخَرَّاجا
فليس تخفى على الرحمن خافيةٌ ... إنْ أخلصَ العبدُ في الطاعاتِ أوْ داجا
وبادِرِ الموتَ بالحُسنى تُقَدِّمُها ... فما يُنَهْنِهُ داعي الموتِ إنْ فاجا(٢)

المطلب الثاني: التحذير من خشوع النفاق:

وإلىٰ جانب ما سبق ذكره من ذمِّ التظاهرِ بالخشوع رياءً؛ فإنَّ السلف كانوا يسمون هذا النوعَ من الخشوعِ بخشوع النفاق، وهذا مما يزيدُ المسلم نفرةً عن الرياء في الخشوع وفي كل عبادة؛ فمما ورد عنهم في ذلك:

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ومتىٰ تكلف الإنسان تعاطي الخشوعَ في جوارحه وأطرافِه مع فراغِ قلبه من الخشوع وخلوِّه منه كان ذلك** خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه؛ فإنما هو نفاق علىٰ نفاق ».

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٧).

(٢) مقامات الحريري (ص/ ٢٣٤) المقامة الحادية والثلاثون- «الرَّمْليّة».

ثم قال ابن رجب: « أصل الخشوع؛ هو خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلىٰ غيره ممن هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه، ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه(١): «**خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظامي، وما استقل به قدمي**» »(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النِّفاق:**

أنَّ خشوع الإيمان؛ **هو خشوعُ القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء**، فينكسر القلبُ لله كَسْرةً ملتئمةً من الوجل والخجل والحبِّ والحياء، وشهود نِعَم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوعُ الجوارح.

وأما خشوعُ النِّفاق، **فيبدو علىٰ الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا، والقلب غير خاشع، فالخاشعُ لله عبد قد خمدَتْ نيرانُ شهوته، وسكَنَ دخانُها عن صدره، فانجلىٰ الصدر، وأشرق فيه نورُ العظمة. فماتتْ شهواتُ النفس، للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارحُ، وتوقَّر القلب، واطمأنَّ إلىٰ الله وذكره، بالسكينة التي تنزَّلتْ عليه من ربِّه، فصار مخبتًا له**... فهذا خشوع الإيمان.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) وأبو دود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٠) [سورة المؤمنون:٢].

وأما التماوت وخشوع النِّفاق، فهو حال عبد تكلَّف إسكانَ الجوارح تصنُّعًا ومراياةً، ونفسُه في الباطن شابّةٌ طريَّةٌ ذاتُ شهوات وإرادات. فهو يتخشّع في الظاهر، وحَيَّةُ الوادي وأسدُ الغابة رابضٌ بين جنبيه ينتظر الفريسة »[1].

وكذلك سمَّىٰ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، البكاءَ بدون خشوعِ القلبِ ببكاء النفاق؛ فقال: « **الثامن**: بكاء النفاق، وهو: أن تدمعَ العينُ، والقلب قاسٍ؛ فيُظهر صاحبُه الخشوع، وهو من أَقْسَىٰ النّاسِ قَلْبًا »[2].

المطلب الثالث: أسباب السلامة من الرياء:

لأهمية هذا الموضوع وشدة الحاجة إليه؛ هذا تذكير ببعض الأسباب التي يُدافَعُ بها الرياء، بإذن الله:

١- **الدعاء بصدق وإخلاص**؛ ولذلك لمَّا حذَّر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّته من الرياء أتبعَ ذلك التحذير بأنْ علَّمهم كيف يُدافع الرياء؛ فقد أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الرياء يُدافع بالدعاء الوارد في حديث مَعقِل بن يَسارٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لِأبي بَكرٍ: «**يا أبا بكرٍ، لَلشِّركُ فيكم أخْفىٰ من دبيبِ النَّملِ، والذي نفسي بيدِه، لَلشِّركُ أخْفىٰ من دَبيبِ النَّملِ**».

---

[1] كتاب الروح لابن القيم (٢/ ٦٥٥ – ٦٥٦).

[2] زاد المعاد (١/ ١٢٦).

ثم قال - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: «ألا أدُلُّك على شيءٍ إذا فعلتَه ذهب عنك قليلهُ وكثيرهُ؟ قل: اللهم إني أعوذُ بك أن أشرِكَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفِرُك لما لا أَعلمُ»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو، يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِك منَ العَجزِ، والكسَلِ، والبخلِ، والهرَمِ، والقسوةِ، والغفلةِ، والذِّلَّةِ، والمسكَنةِ، وأعوذُ بِك منَ الفقرِ، والكفرِ، والشِّركِ، والنِّفاقِ، والسُّمعةِ، والرِّياءِ، وأعوذُ بِك منَ الصَّممِ، والبَكَمِ، والجنونِ، والبَرَصِ، والجذامِ، وسيِّئِ الأسقامِ»(٣).

والشاهد فيه: تعوُّذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السمعة والرياء.

٢- **المجاهدة على ترك الرياء والبعد عنه**؛ ومن جاهد نفسه أعانه الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٦٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥١).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤) وأحمد (١١٢٥٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٨).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٠)، وابن حبان (١٠٢٣) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٩).

[العنكبوت: ٦٩] فمن جاهد نفسه في تركه والحذر منه أعانه الله ويسر أمره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق: ٢-٤].

٣- أن يتذكر المسلم أن الخَلْقَ لا يملكون له نفعًا، ولا يستطيعون عنه دفعًا، إلا بإذن الله وتقديره، فإذا استقر هذا في ذهن العابد؛ فإنه لا يهتم بملاحظة المخلوقين.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعةَ شيء من التراب عَلَىٰ طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب إن هذا لشيء عجاب! »(١).

٤- العلم بثواب الإخلاص، وشؤم الرياء علىٰ العامل في الدنيا والآخرة، **وقد** قال أبو عبد الله البراثي، - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: « من زَهِدَ علىٰ حقيقة كانت مؤونته في الدنيا خفيفة، ومن لم يعرف ثواب الأعمال ثقُلتْ عليه في جميع الأحوال »(٢).

---

(١) نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي - صلىٰ الله عليه وسلم - لابن عباس. لابن رجب (٣/ ١٤٢).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص٧٣) رقم (١٣٩).

٥- **إخفاء الخشوع**، وبقية الأعمال الصالحة قدر المستطاع؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والمقرر أنَّ إخفاءَ العملِ الصالحِ غيرِ الفرضِ أفضلُ من إظهاره »(١).

٦- **العلم بأحوال العلماء العاملين**؛ لأن المسلم إذا تعرف علىٰ أحوالهم؛ فإنه يدرك مدىٰ تقصيره، فتورثه المعرفةُ بأحوالهم الانكسارَ وتركَ الاعتداد بما يعمل.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن نظرَ في سيرِ السلف من العلماء العاملين استقر في نفسه؛ فلم يتكبر، ومن عرفَ اللهَ لم يُراء، ومن لاحظ جريان أقداره علىٰ مقتضىٰ إرادته لم يحسد »(٢).

وقال حمدون القصّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من نظر في سير السّلف عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال »(٣).

٧- **تذكُّر الموت وما بعده**؛ من الحساب والجزاء والنكال الذي يعاقب به الذين يراؤون بأعمالهم، كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلىٰ بعض أهله: « أما بعد: فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك أو نهارك بُغِّضَ إليك كلُّ فان، وحُبِّبَ إليك كلُّ باق »(٤).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٥٥٠).

(٢) تلبيس إبليس (ص/ ١١٦).

(٣) الاعتصام للشاطبي (ص/ ٨٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨).

المطلب الرابع: حالات الرياء في العبادات:

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اتصال الرياء بالعبادة علىٰ ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون الباعث علىٰ العبادة مراءاة الناس مِن الأصل، كمن قام يصلِّي مراءاة الناس، مِن أجل أن يمدحه الناس علىٰ صلاته، فهذا مبطل للعبادة.

الوجه الثاني: أن يكون مشاركًا للعبادة في أثنائها؛ بمعنىٰ: أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم طرأ الرياء في أثناء العبادة، فهذه العبادة لا تخلو من حالين:

الحال الأولىٰ: أنْ لا يرتبط أول العبادة بآخرها، فأولُّها صحيح بكل حال، وآخرها باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال يريد أن يتصدق بها، فتصدق بخمسين منها صدقةً خالصةً، ثم طرأ عليه الرياء في الخمسين الباقية، فالأُولىٰ صدقة صحيحة مقبولة، والخمسون الباقية صدقة باطلة لاختلاط الرياء فيها بالإخلاص.

الحال الثانية: أن يرتبط أول العبادة بآخرها: فلا يخلو الإنسان حينئذٍ مِن أمرين:

الأمر الأول: أن يُدافع الرياء، ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه، ويكرهه: فإنه لا يؤثر شيئًا، لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١).

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩).

الأمر الثاني: أن يطمئنَّ إلىٰ هذا الرياء، ولا يدافعه، فحينئذٍ تبطل جميع العبادة؛ لأن أولها مرتبط بآخرها.

مثال ذلك: أن يبتدئ الصلاة مخلصـًا بها لله تعالىٰ، ثم يطرأ عليها الرياء في الركعة الثانية، فتبطل الصلاة كلها؛ لارتباط أولها بآخرها.

الوجه الثالث: أن يطرأ الرياء بعد انتهاء العبادة: فإنه لا يؤثر عليها، ولا يبطلها؛ لأنها تمَّت صحيحة فلا تفسد بحدوث الرياء بعد ذلك.

وليس مِن الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة. وليس مِن الرياء أن يُسَرَّ الإنسان بفعل الطاعة؛ لأن ذلك دليل إيمانه، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»(١). وقد سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فقال: «تِلْكَ عَاجل بشرىٰ الْمُؤمن» »(٢).

❖❖❖❖❖

---

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٥٤٦) عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع فتاوىٰ الشيخ ابن عثيمين (٢/ ٢٩، ٣٠). والحديث رواه مسلم (٢٦٤٢) عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الرابع: أسباب الخشوع في الصلاة

إن العنايةَ بالأسباب في كل شيء موجود، أمرٌ مهمٌّ لتحقيق ذلك الشيء المقصود، والوصول إلىٰ الهدف المنشود، إذ لو جُهلت الأسباب، أو تُركت؛ لما تيسر الوصول إلىٰ المُراد، وقد جعل الله لكل شيء سببًا، فأسباب الخشوع في الصلاة كثيرة، ومن أهمها ما يأتي:

١- الاستعانة بالله- سبحانه- على تحقيق الخشوع:

ومما يدل علىٰ أهمية الاستعانة بالله لتحقيق الخشوع: دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصيته أصحابَه وأُمَّتَه بطلب الإعانة من الله علىٰ تحسين العبادة، كما في الأدلة الكثيرة، ومنها:

روىٰ أبو عبد الرحمن الحُبُليُّ، عن الصُّنابحيِّ، عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ! والله إني لأحبك**، فقال: **أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وأوصىٰ بذلك معاذٌ الصنابحيَّ، وأوصىٰ به الصنابحيُّ أبا عبد الرحمن [١].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩). والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٠٧).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو يقول: «رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدىٰ لي، وانصرني علىٰ من بغىٰ علي، رب اجعلني لك شكّارًا، لك ذكارًا، لك رهّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أواهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري»(١).

قال الملا علي القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «لك مخبتًا» أي: خاضعًا خاشعًا متواضعًا، من الخبت وهو المطمئن من الأرض »(٢).

وقد سُئلت اللجنة الدائمة: بالنسبة للخشوع في الصلاة وقراءة القرآن كيف يجب أن يكون؟

فأجابت بما يأتي:

عليك أن تستعين بالله في إحضار قلبك في الصلاة في الخشوع فيها، وسؤاله سبحانه أن يعيذك من الشيطان، ومن وساوسه، وهو سبحانه سميع قريب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه صادقًا مخلصًا - وفقك الله وأعانك علىٰ ذكره وشكره -، وبالله التوفيق وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم (٣).

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٥١) والحاكم في المستدرك (١٩١٠) وصحححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥١٦).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٧٢٣).

(٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. (٧/ ٢٧).

٢- التعوذ من قلب لا يخشع:

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ من الغفلة عمومًا، ومن فقدان الخشوع خصوصًا؛ كما في الأحاديث الآتية:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو، يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِك منَ العَجزِ، والكسَلِ، والبخلِ، والهرَمِ، والقسوةِ، والغفلةِ، والذِّلَّةِ، والمسكَنةِ، وأعوذُ بِك منَ الفقرِ، والكفرِ، والشِّركِ، والنِّفاقِ، والسُّمعةِ، والرِّياءِ، وأعوذُ بِك منَ الصَّممِ، والبَكَمِ، والجنونِ، والبَرَصِ، والجذامِ، وسيِّءِ الأسقامِ**»(١).

والشاهد فيه: تعوُّذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القسوة والغفلة.

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لا أقولُ لكم إلا كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: كان يقول: «**اللهم إني أعوذُ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٠)، وابن حبان (١٠٢٣) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

والشاهد من الحديث: التعوذ بالله من قلب لا يخشع، ودلَّ الحديث علىٰ أهمية الخشوع، وعلىٰ أن الخشوع في القلب، وعلىٰ بُعد القلب الذي لا يخشع عن الله، عياذًا بالله.

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اعلم أن في كل من القرائن الأربع ما يشعر بأن وجوده مبني علىٰ غايته، وأن الغرض منه تلك الغاية؛ وذلك أن تحصيل العلوم إنما هو للانتفاع بها؛ فإذا لم ينتفع به لم يخلص منه كفافًا، بل يكون وبالًا ولذلك استعاذ منه، وأن القلب إنما خُلق؛ لأن يتخشع لبارئه، وينشرح لذلك الصدر، ويقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قاسيًا، فيجب أن يستعاذ منه، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [الزمر: ٢٢]، وأن النفس يعتد بها إذا تجافت عن دار الغرور وأنابت إلىٰ دار الخلود، والنفس إذا كانت منهومة لا تشبع، حريصة علىٰ الدنيا كانت أعدىٰ عدو المرء، فأولىٰ شيء يستعاذ منه هي، وعدم استجابة الدعاء دليل علىٰ أن الداعي لم ينتفع بعلمه، ولم يخشع قلبه، ولم تشبع نفسه »(١).

٣- تذكر الموت والوقوف بين يدي الله:

والأدلة علىٰ هذا المعنىٰ كثيرة، في باب الصلاة وفي غيرها، وهذه بعض الأحاديث والآثار في بيان أهمية هذا السبب لتحقيق الخشوع في الصلاة:

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٩١٥).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اذكر الموتَ في صلاتِك، فإنّ الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صلَاتَهُ، وصلِّ صلاةَ رجلٍ لا يظنُّ أنْ يصلي صلاةً غيرَها، وإِيَّاك وَكُلَّ أمرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[1].

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي، وَأَوْجِزْ، قَالَ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[2].

ولقد رُوي من أحوال السلف وأقوالهم في الإكثار من ذكر الموت، ووصيتهم بذلك ما يدل علىٰ أهمية هذا الأمر وشدة الحاجة إليه، إذ هو سبب لتحقيق الخشوع في الصلاة، وسبب للقيام ببقية العبادات والإحسان في أدائها، فمن ذلك:

عن عبد الله بن أبىٰ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: « كان عليّ بن الحسين إذا مشىٰ لا تُجاوز يده فخذَه، ولا يَخْطِر بيده، قال: وكان إذا قام إلىٰ الصلاة أخذته رِعْدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تدرون بين يدَي مَن أقوم ومن أناجىٰ؟! »[3].

وعن أبي نوح الأنصاري قال: « وقع حريقٌ في بيت فيه عليُّ بن الحُسين وهو ساجد، فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله، النار! يا ابن رسول الله، النار! فما رفع

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٤٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) وأحمد (٢٣٤٩٨)، وحسّنه الألباني في الصحيحة (٤٠٠).

(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٧/ ٢١٤).

رأسه حتىٰ أُطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: ألهتني عنها النار الأخرىٰ »(١).

وعن أبي الحسين المُجاشعي قال: « قيل لِعَامِرِ بنِ عَبْدِ قَيْسٍ: أَتُحَدِّثُ نفسك في الصلاة؟ قال: أُحَدِّثُهَا بِالوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَمُنْصَرَفِي »(٢).

وعن أبي عبد الرحمن الأسدي، قال: « قلت لسعيد بن عبد العزيز: ما هذا البكاءُ الذي يعرض لك في الصلاة؟! فقال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به. فقال: ما قمتُ إلىٰ صلاة إلَّا مُثِّلِتْ لي جهنمُ »(٣).

وكان ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في وصف العُبَّاد: « فلو رأيت أيها الْبَطَّالُ أحدَهم، وقد قام إلىٰ صلاته وقراءته، فلما وقف في محرابه، واستفتح كلام سيده؛ خَطَرَ علىٰ قلبه أنَّ ذلك المقام هو: المقام الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، فَانْخَلَعَ قلبُه وَذَهَلَ عقلُه، فقلوبهم في ملكوت السماوات مُعَلَّقَةٌ، وأبدانهم بين أيدي الخلائق عارية، وهمومهم بالفكر دائمة، فما ظنك بأقوام أخيار أبرار، وقد خرجوا من رِقِّ الغفلة، واستراحوا من وثائق الفترة، وأَنِسُوا بيقين المعرفة، وسكنوا إلىٰ روح الجهاد والمراقبة، بلغنا الله وإياكم هذه الدرجة »(٤).

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٥٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٧).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٢٠٣).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٣٣٩).

وعن رَبَاح بنِ الهَرَوي قال: « مرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأصم، وهو يتكلم في مجلسه؛ فقال: يا حاتم! تحسن تصلي؟ قال: نعم! قال: كيف تصلي؟

قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام وأسلم بِالسَّبَلِ وَالسُّنَّةِ، وَأُسْلِمُهَا بالإخلاص إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وأرجع علىٰ نفسي بالخوف، أخاف أنْ لا يَقْبَلَ مِنِّي وَأَحْفَظُهُ بِالْجُهْدِ إلىٰ الموت. قال: تكلَّمَ فأنت تُحْسِنُ تُصَلِّىٰ »(١).

٤- تفريغ القلب من الشواغل:

قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] قيل عند تفسير هذه الآية: الخشوع في الصلاة هو جمعُ الهمة، والإعراضُ عما سواها، والتدبر فيما يجري علىٰ لسانه من القراءة والذكر (٢).

عن عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا نبيَّ الله، فالوضوء، حدِّثْني عنه، قال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض، ويستنشق، فينتثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلىٰ المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٧٤)

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٩) [المؤمنون: ٢].

شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلىٰ الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء. فإن هو قام فصلىٰ، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»(١). والشاهد من الحديث: قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ»، ففيه اشتراط حضور القلب في الصلاة، وتفريغه من الشواغل لنيل الثواب المذكور في الحديث.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ونكتة المسألة أن قولك: "الله أكبر" يحرِّم عليك الأفعال بالجوارح، والكلام باللسان؛ ونية الصلاة تحرِّم عليك الخواطر بالقلب، والاسترسال عن الأفكار، إلا أنَّ الشرع لما علم أن ضبط الشر من السرِّ يفوت طوقَ البشر سمحَ فيه »(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها علىٰ غيرها، وحينئذ تكون راحة له، وقرة عين، كما قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «حبب إلي الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» »(٣).

---

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٦١) [سورة المؤمنون: ٢]. والحديث رواه النسائي (٣٩٣٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وإنما يَقْوىٰ العبد علىٰ حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عَزَّوَجَلَّ إذا قهر شهوته وهواه، وإلَّا فقلبٌ قد قهرته الشهوة، وأسره الهوىٰ، ووجد الشيطان فيه مقعدًا تمكَّنَ فيه، كيف يخلص من الوساوس والأفكار؟ »(١).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الأسباب المعينة علىٰ الخشوع هو أن الإنسان يفرغ قلبه للصلاة، ويتناسىٰ ما سواها، ولا يفكر في شيء، ويشعر بأنه الآن قائمٌ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ الذي يعلم ما في قلبه، يرىٰ أفعاله ويسمع أقواله »(٢).

٥- فقه معاني الأقوال والأفعال في الصلاة:

هذا السبب من أهم أسباب الخشوع، وهو أن يتفكر المصلي في سورة الفاتحة، وفيما يقرأ بعدها من القرآن، وفي التكبيرات، وأذكار الركوع والسجود وغير ذلك، وهذا يدعو المصلي إلىٰ أن يتعلم أحكام الصلاة من أولها إلىٰ آخرها ويتفقه فيها؛ ولذلك حثَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلَّ مسلم إلىٰ أن يعقلَ ما يقول في صلاته؛ لأنه يناجي ربه؛ فعن عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اعتكف وخطب الناس فقال: «أمَا إنَّ أحدكم إذا قام في الصلاة، فإنه يناجي ربه، فليعلم أحدكم ما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم علىٰ بعضٍ بالقراءة في الصلاة»(٣).

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٢٤).

(٢) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، الشريط رقم [٣٦٠].

(٣) واه أحمد (٤٩٢٨) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣١٥) والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٩٧).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وههنا أمرٌ عجيبٌ يحصل لمن تفقَّه قلبه في معاني الأسماء والصِّفات، وفي معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرىٰ لكُلِّ اسمٍ وصفةٍ موضعًا من صلاته، ومحلًّا منها. فإنَّه إذا انتصب قائمًا بين يَدَي الرَّب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شاهد بقلبه قيُّومِيَّته، وإذا قال: الله أكبر شاهد كبرياءه »(١).

وقد ذكر بعضُ العلماء شرحًا لمعاني أقوالِ الصلاة وأفعالِها؛ وهذا إيرادٌ لبعضِ كلامهم في معاني أقوال الصلاة وأفعالها ليكون عونًا للمصلي في خشوعه، وتم ترتيب هذا السبب الهام النافع - إن شاء الله - تحت المطالب الآتية:

المطلب الأول: التفقه في دعاء الاستفتاح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وإذا قال: "سبحانك اللَّهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جدُّك، ولا إله غيرك" شاهد بقلبه ربًّا منزَّهًا عن كُلِّ عيبٍ، سالمًا من كُلِّ نقصٍ، محمودًا بكلِّ حمد. فحَمْدُه يتضمَّنُ وصْفه بكُلِّ كمالٍ، وذلك يستلزم براءَتَه من كُلِّ نقصٍ، تبارك اسمه. و "تعالىٰ جده" أي: ارتفعت عظمتُه، وجلَّت فوق كُلِّ عظمةٍ، وعلا شأنُه علىٰ كلِّ شأنٍ، وقَهَر سلطانُه علىٰ كُلِّ سلطانٍ. فتعالىٰ جدُّه أن يكون معه شريكٌ في ملكه وربوبيته، أو في إلهيَّته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمنو الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣] »(٢).

---

(١) كتاب الصلاة (٣٤٤).

(٢) كتاب الصلاة (٣٤٤-٣٤٥).

المطلب الثاني: التفقه في معاني الفاتحة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإذا قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقد آوىٰ إلىٰ ركنه الشَّديد، واعتصم بحولِهِ وقوَّتِهِ من عدوِّه، الذي يريد أنْ يقطعه عن ربِّه، ويباعده عن قُرْبِه، ليكون أسوأ حالًا.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١] وقف هنيهةً يسيرةً ينتظر جواب ربِّه له، بقوله: «حمدني عبدي».

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ انتظر الجواب بقوله: «أثنىٰ عليَّ عبدي».

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «يمجِّدُني عبدي». فيا لذَّة قلبه، وقُرَّة عينه، وسرور نفسه بقول ربِّه: «عَبْدِي» ثلاث مرَّاتٍ.

فو الله لولا ما علىٰ القلوب من دخان الشَّهوات، وغيم النُّفُوس لاسْتُطِيرت فرحًا وسرورًا بقول ربِّها وفاطرها ومعبودها: «حمدني عبدي» و«أثنىٰ عليَّ عبدي». و «مجدَّني عبدي» ثم يكون لقلبه مجالٌ في شهود هذه الأسماء الثلاثة، التي هي أصول الأسماء الحُسْنىٰ، وهي: (الله) و (الرَّب) و (الرَّحمن).

فشاهَدَ قلبُه من ذكر اسم (الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إلهًا معبودًا موحَّدًا مخوفًا، لا يستحقُّ العبادة غيره، ولا تنبغي إلَّا له، قد عَنَت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء:٤٤] ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾ [الروم: ٢٦].

وكذلك خَلَق السَّموات والأرض وما بينهما، وخلق الجنَّ والأنس، والطَّير والوحش، والجنَّة والنَّار، وكذلك أرْسَل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشَّرائع، وألزم العباد الأمر والنَّهي.

وشاهد من ذكر اسمه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قيُّومًا قام بنفسه، وقام به كل شيءٍ، فهو قائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بخيرها وشرِّها، قد استوىٰ علىٰ عرشه، وتفرَّد بتدبير ملكه.

ثم يشهد عند ذكر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جَلَّجَلَالُهُ: ربًّا محسنًا إلىٰ خلقه بأنواع الإحسان متحبِّبًا إليهم بصُنُوف النعم، وسع كلَّ شيءٍ رحمة وعلمًا، وأوسع كلَّ مخلوقٍ نعمةً وفضلًا فوَسِعَت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وسَعَت نعمتُه إلىٰ كلِّ حيٍّ.

فبَلَغَت رحمتُهُ حيث بلغ علمُه، فاستوىٰ علىٰ عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنَّة برحمته والنَّار أيضًا برحمته، فإنَّها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلىٰ جنَّته، ويطهِّر بها أدران الموحِّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوىٰ الملك الحقِّ المبين فيشهد ملكًا قاهرًا، قد دانت له الخليقة، وعَنَت له الوجوه، وذلَّت لعظمته الجبابرة وخضع لعِزَّته كلُّ عزيزٍ فيشهد بقلبه:

مَلِيكًا علىٰ عَرشِ السَّماء مُهَيمِنًا ... لِعِزَّتــه تَعْنُــو الوُجُــوهُ وتَسْــجُدُ

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ففيهما سِرُّ الخلق والأمر، والدُّنيا والآخرة، وهي متضمنِّة لأَجّلِّ الغايات، وأفضل الوسائل.

فأجلُّ الغايات عبوديَّتُه، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحقُّ العبادة إلَّا هو، ولا معين علىٰ عبادته غيره، فعبادته أعلىٰ الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل.

وقد أنزل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مئة كتابٍ وأربعة كتبٍ، جمع معانيها في أربعة كتبٍ، وهي التَّوراة والإنجيل والقرآن والزَّبور، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيه في المفصَّل، وجمع معانيه في الفاتحة، وجمع معانيها في: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وقد اشتملت هذه الكلمة علىٰ نَوْعَي التَّوحيد، وهما توحيد الرُّبُوبية، وتوحيد الإلهية وتضمَّنَت التعبُّد باسم (الرَّبِّ) واسم (الله) فهو يُعْبد بألوهيَّته، ويُستَعان بربوبيَّته، ويهدي إلىٰ الصِّراط المستقيم برحمته.

فكان أول السُّورة ذكر اسمه (الله) و (الرَّبِّ) و (الرَّحمن) مطابقًا لأَجَلِّ المطالبِ، من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المتفرِّد بإعطاء ذلك كلِّه، لا يعين علىٰ عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الدَّاعي بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ شدَّة فاقته وضرورته إلىٰ هذه المسألة، التي ليس هو إلىٰ شيءٍ أشدّ فاقةً وحاجةً منه إليها البتَّة؛ فإنَّه محتاجٌ إليه في كُلِّ نَفَسٍ وطرفة عينٍ. وهذا المطلوب من هذا الدُّعاء

لا يتمُّ إلَّا بالهداية إلىٰ الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التَّفصيل، وخلق القدرة علىٰ الفعل، وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه له علىٰ الوجه المرضيِّ المحبوب للرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولمَّا كان العبد مفتقرًا في كل حالٍ إلىٰ هذه الهداية، في جميع ما يأتيه ويذَرُهُ، من أمورٍ قد أتاها علىٰ غير الهداية، فهو يحتاج إلىٰ التوبة منها. وأمورٍ هُدِي إلىٰ أصلها دون تفصيلها، أو هُدِي إليها من وجهٍ دون وجهٍ، فهو يحتاج إلىٰ تمام الهداية فيها، ليزداد هُدًىٰ. وأمورٍ هو يحتاج إلىٰ أن يَحْصُل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

وأمورٍ هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها، فهو يحتاج إلىٰ الهداية فيها، وأمورٍ لم يفعلها، فهو يحتاج إلىٰ فعلها علىٰ وجه الهداية، وأمورٍ قد هُدِي إلىٰ الاعتقاد الحقِّ والعمل الصَّواب فيها، فهو محتاجٌ إلىٰ الثَّبات عليها. إلىٰ غير ذلك من أنواع الهدايات التي فَرَضَ الله سبحانه عليه أنْ يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرَّاتٍ متعدّدةً في اليوم واللَّيلة. ثم بيَّن أنَّ أهل هذه الهداية هم المختصّون بنعمته، دون ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم الذين عرفوا الحق ولم يتَّبعُوه، ودون ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم الذين عبدوا الله بغير علمٍ، فالطَّائفتان اشتركتا في القول علىٰ الله في خلقه، وأمره، وأسمائه وصفاته بغير علمٍ. فسبيل المُنْعَمِ عليه مغايرٌ لسبُل أهل الباطل كلِّها علمًا وعملًا.

فلمَّا فرغ من هذا الثَّناء والدُّعاء والتَّوحيد شرع له أنْ يطبع علىٰ ذلك بطابعٍ من التَّأمين، يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السَّماء »(١).

المطلب الثالث: معنى التأمين وبعض أحكامه:

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما حَسَدتْكم اليَهودُ علىٰ شَيءٍ ما حَسَدتْكم علىٰ السَّلامِ والتأمينِ**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يستحب لكل قارئ كان في الصلاة أو في غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول: (آمين).

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، وقد قدمنا في الفصل قبله أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة و(آمين) بسكتة لطيفة، **ومعناه**: اللهم استجب، **وقيل**: كذلك فليكن، **وقيل**: افعل، **وقيل**: معناه: لا يقدر علىٰ هذا أحد سواك، **وقيل**: معناه: لا تخيب رجاءنا، **وقيل**: معناه: اللهم آمنا بخير، وقال أبو بكر الوراق: هو قوة للدعاء واستنزال للرحمة »(٣).

وقيل غير ذلك.

---

(١) كتاب الصلاة لابن القيم (٣٤٥-٣٥٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٨٥٦) واللفظ له، وأحمد (٢٥٠٢٩) بنحوه مطولاً، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٣) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٨٦).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٢). وفي تفسير السمرقندي - بحر العلوم (١/ ١٩) نسبه إلىٰ مقاتل من قوله.

قال العلماء: « ويستحب التأمين في الصلاة للإمام والمنفرد، ويجهر الإمام والمنفرد بلفظ (آمين) في الصلاة الجهرية. واختلفوا في جهر المأموم: **والصحيح**: أنه يجهر، ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام، لا قبله ولا بعده؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح: «**إذا قال الإمام: (ولا الضالين) فقولوا: (آمين) فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه**» »[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح: «**إذا أمن الإمام فأمنوا**»[(٢)].

فمعناه: إذا أراد التأمين.

قال أصحابنا: وليس في الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا في قوله (آمين) وأما في الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم »[(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « وهذا التَّأمين من زِينة الصلاة، كرفع اليَدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسُّنَّة، وتعظيم أمر الله، وعبوديَّة لليَديْن وشعار الانتقال من ركنٍ إلىٰ ركنٍ »[(٤)].

(١) رواه البخاري (٤٤٧٥) ومسلم (٤١٠).

(٢) رواه البخاري (١١١) ومسلم (٤١٠).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ١١٠- ١١٢).

(٤) كتاب الصلاة (٣٤٥-٣٥٥).

المطلب الرابع: الإنصات لقراءة الإمام:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لما ذكر تعالىٰ أن القرآن بصائرُ للناس وهدىً ورحمةٌ، أمر تعالىٰ بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة »(١).

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثم يأخذ في مناجاة ربِّه بكلامه، واستماعه من الإمام بالإنصات، وحضور القلب وشهوده »(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٦) [فصلت: ٢٠٤].

(٢) رواه النسائي (٩٢١) وابن ماجه (٨٤٦) وأحمد (٩٤٣٨). وصححه الألباني في صحيح النسائي (٩٢١).

(٣) كتاب الصلاة (٣٥٥).

المطلب الخامس: التفقه في الركوع وأذكاره:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولهذا شُرِع فيهما من الذِّكر ما يناسب هيئتهما: فشُرِع للرَّاكع أنْ يذكر عظمة ربِّه في حال انخفاضه هو، وتطامنه وخضوعه، وأنَّه سبحانه يُوْصَف بوصفِ عظمته عمَّا يضادُّ كبرياءه وجلاله وعظمته.

فأفضل ما يقول الرَّاكع علىٰ الإطلاق: (سبحان ربي العظيم) فإنَّ الله سبحانه أمر العِبَاد بذلك، وعيَّن المبلِّغَ عنه، السَّفِير بينه وبين عباده هذا المحلَّ لهذا الذِّكر، لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة:٧٤] قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»(١)، وأبطل كثيرٌ من أهل العِلْم صلاةَ من تركها عمدًا، وأوْجَبَ سجود السَّهو علىٰ من سَهَا عنها. وهذا مذهب الإمام أحمد، ومن وافقه من أئمَّة الحديث والسُّنة.

والأمر بذلك لا يقصُر عن الأمر بالصَّلاة عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التشهُّد الأخير، ووجوبه لا يقصُر عن وجوب مباشرة المصليّ بالجبهة واليدين.

وبالجملة؛ فَسِرُّ الرُّكُوع تعظيمُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ بالقلب والقالب والقول، ولهذا قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَّا الرُّكُوع فعظِّمُوا فيه الرَّبَّ**» (٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤). وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (٨٦٩). وقال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٦١٠): لا مطعن في إسناده. من حديث عقبة بن عامر.

(٢) كتاب الصلاة (٣٥٦-٣٥٧). والحديث رواه مسلم (٤٧٩).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن ذلك: الركوع، وهو ذُلٌّ بظاهر الجسد، ولهذا كانت العرب تأنف منه ولا تفعله، حتىٰ بايع بعضهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أنْ لا يخر إلا قائمًا يعني: أن يسجد من غير ركوع، كذا فسره الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمحققون من العلماء، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨] وتمام الخضوع في الركوع: أن يخضع القلب لله ويذل له، فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعِظَامِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمَيَّ»(١).

إشارة إلىٰ أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه ومن أعظمها القلب الذي هو ملك الأعضاء والجوارح، فإذا خشع خشعت الجوارح، والأعضاء كلها تبعًا لخشوعه »(٢).

المطلب السادس: الرفع من الركوع ومعاني الذكر فيه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثم يرفع رأسه عائدًا إلىٰ أكمل هيئاته، وجعل شعار هذا الركن حمد الله والثَّناء عليه وتمجيده. فافتتح هذا الشِّعار بقول المصلي: "سمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه" أي: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابةٍ. ثم شفَع بقوله: "ربَّنا ولك

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) وأبو دود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١).

(٢) تفسير ابن رجب (٢/ ٢٣) [سورة المؤمنون: ٢].

الحمد، مِلءَ السَّموات والأرض، ومِلءَ ما بينهما، ومِلءَ ما شِئتَ من شيءٍ بعد"، ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: "ربَّنا ولك الحمد" فإنَّه قد نُدِب الأمر بها في الصحيحين؛ وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهِما، فإنَّ قوله: "ربَّنا" متضمِّنٌ في المعنىٰ: أنت الرَّبُّ والملك القيُّوم، الذي بيديه أزِمَّة الأمور، وإليه مرجعها، فعطف علىٰ هذا المعنىٰ المفهوم من قوله: "ربَّنا" قولَه: "ولك الحمد" فتضمَّن ذلك معنىٰ قول الموحِّد: "له الملك وله الحمد"، ثمَّ أخبر عن شأن هذا الحمد، وعظمته قدرًا وصفةً، فقال: "مِلءَ السَّموات وِملءَ الأرض، ومِلِءَ ما بينهما، ومِلءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد"؛ أي: قدر ملءِ العالمِ العلوي والسُّفلي، والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرَّبُّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بعد ذلك ممَّا يشاؤه. فاشتمل هذا الرُّكن علىٰ أفضل الأذكار، وأنفع الدُّعاء، من حمده، وتمجيده، والثَّناء عليه، والاعتراف له بالعبوديَّة والتَّوحيد، والتنصُّل إليه من الذُّنوب والخطايا، فهو ذِكْرٌ مقصودٌ في ركنٍ مقصودٍ، ليس بدون الركوع والسُّجود »[١].

المطلب السابع: التفقه في السجود وأذكاره:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثمَّ يكبِّر ويخرُّ لله ساجدًا، غير رافعٍ يديه؛ لأنَّ اليدين تنحطَّان للسُّجود كما ينحطُّ الوجه، فهما تنحطَّان لعبوديتهما، فأغْنَىٰ

---

(١) كتاب الصلاة (٣٥٧-٣٦١).

ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يُشْرَع رفعُهُما عند رفع الرَّأس من السُّجود، لأنَّهما يُرفعان معه كما يُوضعان معه.

وشُرِع السُّجود علىٰ أكمل الهيئات وأبلغِها في العبوديَّة، وأعمِّها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كلُّ جزءٍ من البَدَن بحظِّه من العبوديَّة.

والسُّجُود سِرُّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدِّمات له، فهو شِبْهُ طواف الزِّيارة في الحجِّ، فإنَّه مقصود الحج، ومحلُّ الدُّخول علىٰ الله وزيارته، وما قبله كالمقدِّمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ.

وأفضل أحواله: حالٌ يكون فيها أقرب إلىٰ الله، ولهذا كان الدُّعاء في هذا المحلِّ أقرب إلىٰ الإجابة ... فأُمِر بالسُّجود خضوعًا لعظمة ربِّه وفاطره، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له.

فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلُّل رادًّا له إلىٰ حكم العبوديَّة، ويتدارك به ما حصل له من الهفوة والغفلة، والإعراض الذي خرج به عن أصله، فَيَتَمَثَّل له حقيقة التراب الذي خلق منه؛ وهو يضع أشرف شيءٍ منه وأعلاه، وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله، خضوعًا بين يَدَي ربِّه الأعلىٰ وخشوعًا له، وتذلُّلًا لعظمته، واستكانةً لعِزَّته. وهذا غاية خشوع الظاهر »[1].

---

(١) كتاب الصلاة (٣٦١-٣٦٧).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن ذلك: السجود، وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل العبد أشرف ما له من الأعضاء وأعزها عليه وأعلاها حقيقة، أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفرًا، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يُقَرِّبه الله إليه فإن: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١) كما صح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩].

والسجود أيضًا مما كان يأنف منه المشركون المستكبرون عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وكان بعضهم يقول: أكره أن أسجد فتعلوني إستي، وكان بعضهم يأخذ كفًّا من حصىٰ فيرفعه إلىٰ جبهته، ويكتفي بذلك عن السجود.

وإبليس إنما طرده الله لما استكبر عن السجود لمن أمره الله بالسجود له؛ ولهذا يبكي إذا سجد المؤمن، ويقول: «**أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود ففعل فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيتُ فلي النار**» »(٢).

المطلب الثامن: الجلوس بين السجدتين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثم لـمَّا شُرِعَ السُّجود بوصف التِّكرار لم يكن بُدٌّ من الفصلِ بين السَّجدتين، ففَصَل بينهما بركنٍ مقصودٍ، شَرَع فيه من الدُّعاء ما يليق

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥).

(٢) تفسير ابن رجب (٢/ ٢٤) [سورة المؤمنون: ٢]. والحديث رواه مسلم (٨١).

به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق، فإنَّ هذه تتضمَّن جلب خير الدُّنيا والآخرة، ودفعَ شَرِّ الدُّنيا والآخرة، فالرَّحمة تحصِّل الخير، والمغفرة تقي الشَّرَّ، والهداية توصل إلىٰ هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قِوَام البَدَن من الطَّعام والشَّراب، وما به قوام الرُّوح والقلب من العلم والإيمان.

وجُعِل جلوس الفصْل محلًّا لهذا الدُّعاء لما تقدَّمه من حمد الله والثَّناء عليه والخضوع له، فكان هذا وسيلة للدَّاعي، ومقدِّمة بين يَدَي حاجته.

فهذا الرُّكن مقصودٌ، والدعاء فيه مقصودٌ، فهو ركنٌ وُضِع للرَّغبة، وطلب العفو والمغفرة والرَّحمة، فإنَّ العبد لمَّا أتىٰ بالقيام والحمد والثَّناء والمجد، ثم أتىٰ بالخضوع وتنزيه الرَّبِّ وتعظيمه، ثم عاد إلىٰ الحمد والثَّناء، ثم كمَّل ذلك بغاية التذلُّل والخضوع والاستكانة بقي سؤال حاجته، واعتذارُه، وتنصُّلُه، فشَرَع له أنْ يتمثَّل في الخدمة، فيقعد فعل العبد الذَّليل جاثيًا علىٰ ركبَتَيه، كهيئة المقلي نفسه بين يَدَي سيِّده، راغبًا، راهبًا، معتذرًا إليه، مستعديًا إليه علىٰ نفسه الأمَّارة بالسُّوء.

ثمَّ شَرَع له تكرار هذه العبوديَّة مرَّةً بعد مرَّةٍ إلىٰ إتمام الأربع. كما شَرَع له تكرير الذِّكر مرَّةً بعد مرَّةٍ، لأنَّه أبلغ في حصول المقصود، وأدْعىٰ إلىٰ الاستكانة والخضوع »[١].

---

(١) كتاب الصلاة (٣٦٧-٣٦٩).

المطلب التاسع: تسبيحتا الركوع والسجود:

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن تمام خشوع العبد لله عَزَّوَجَلَّ وتواضعه له في ركوعه وسجوده: أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو؛ فكأنه يقول: الذل والتواضع وصفي، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك.

فلهذا شُرع للعبد في ركوعه أن يقول: (سبحان ربي العظيم) وفي سجوده: (سبحان ربي الأعلىٰ) وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيانًا يقول في سجوده: «سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة»(١) »(٢).

المطلب العاشر: الجلوس للتحيات:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فلمَّا أكمل ركوع الصَّلاة، وسجودها، وقراءتها، وتسبيحها، وتكبيرها، شُرِعَ له أنْ يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشِّع المتذلِّل المستكين، جاثيًا علىٰ ركبتيه.

ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التَّحيَّات وأفضلها، عوضًا عن تحيَّة المخلوق للمخلوق إذا واجَهَه أو دخل عليه؛ فإنَّ النَّاس يحيُّون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيَّات التي يتَحبَّبُون بها إلىٰ قلوبهم، فبعضهم يقول: أنعم صباحًا، وبعضهم

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٣) والنسائي (١٠٤٩). وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٣١)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) تفسير ابن رجب (٢/ ٢٥) [سورة المؤمنون: ٢].

يقول: لك البقاء والنِّعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعيش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلِّم.

فتحيَّاتهم بينهم تتضمَّن ما يحبُّه المُحَيَّا من الأقوال والأفعال، والمشركون يحيُّون أصنامهم.

قال الحسن: كان أهل الجاهليَّة يتمسَّحُون بأصنامهم، ويقولون: لك الحياة الدَّائمة فلمَّا جاء الإسلام أُمِرُوا أن يجعلوا لله أطيب تلك التَّحيَّات وأزكاها وأفضلها »[1].

المطلب الحادي عشر: معنى التحيَّات والصلوات والطيبات:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فـ (التحيَّات) هي تحيَّةٌ من العبد للحيِّ الذي لا يموت، وهو سبحانه أولىٰ بتلك التحيّات من كُلِّ ما سواه، فإنَّها تتضمَّن الحياة والبقاء والدَّوام، ولا يستحقُّ أحدٌ هذه التحيَّات إلَّا الحيُّ الباقي الذي لا يموت، ولا يزول ملكُه، وكذلك قوله: (والصَّلوات) فإنَّه لا يستحق أحدٌ الصَّلاة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والصَّلاة لغيره من أعظم الكفر والشِّرك به.

وكذلك قوله: (والطَّيِّبات) هي صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، أي: الطَّيِّبات من الكلمات والأفعال والصِّفات والأسماء لله وحده.

فهو طيِّبٌ، وكلامه طيِّبٌ، وأفعاله طيِّبةٌ، وصفاته أطيب شيءٍ، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه (الطَّيِّب)، ولا يصدر عنه إلَّا طيِّبٌ، ولا يصعد إليه إلَّا

---

(١) كتاب الصلاة (٣٧٠).

طيِّبٌ، ولا يقرب منه إلَّا طيِّبٌ، فكلُّه طيِّبٌ. و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وفعله طيِّبٌ، والعمل الطيِّب يعرج إليه. فالطيِّبات كلُّها له، ومضافةٌ إليه، وصادرةٌ عنه، ومنتهيةٌ إليه، قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلَّا طيِّبًا» »(١).

التَّشهُّد:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثمَّ خُتِمَتْ هذه التحيَّة بالشَّهادتين اللَّتَيْن هما مفتاح الإسلام، فشرع أنْ يكون خاتمة الصلاة.

فدخل فيها بالتَّكبير والتَّحميد والثَّناء والتَّمجيد، وتوحيد الرُّبوبيَّة والإلهيَّة، وختمها بشهادة أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

وشُرِعَت هذه التَّحيَّة في وسط الصَّلاة إذا زادت علىٰ ركعتين، تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السَّجدتين، فيها بين الرَّكعتين الأُوليَيْن والأُخْرَيَيْن كالجلوس بين السَّجدتين.

وفيها مع الفصل راحة للمصلِّي، لاستقباله الرَّكعتين الأُخْرَيَيْن بنشاطٍ وقوةٍ، بخلاف ما إذا وَالَىٰ بين الركعات؛ ولهذا كان الأفضل في النَّفل مثنىٰ مثنىٰ، وإنْ تطوَّع بأربع جلس في وسطهنَّ »(٢).

---

(١) كتاب الصلاة (٣٧٠ -٣٧٣). والحديث رواه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كتاب الصلاة (٣٧٣-٣٧٤).

المطلب الثاني عشر: الحكمة من ورود التحيات والصلاة الإبراهيمية قبل الدعاء:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وجعِلَت كلمات التِّحيَّات في آخر الصَّلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإنَّ المصلِّي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الرَّاغب الرَّاهب، يستعطي من ربِّه ما لا غنىٰ به عنه، فشُرِع له أمام استعطائه كلمات التَّحيَّات، مقدمةً بين يدَيْ سؤاله، ثُمَّ يُتْبِعها بالصَّلاة علىٰ من نالت أُمَّته هذه النِّعمة علىٰ يده وبسفارته.

فكأنَّ المصلِّي توسَّل إلىٰ الله سبحانه بعبوديَّته، ثم بالثَّناء عليه، والشَّهادة له بالوحدانيَّة، ولرسوله بالرِّسالة، ثم بالصَّلاة علىٰ رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ قيل له: تخيَّر من الدُّعاء أحبَّه إليك. فذاك الحقُّ الذي عليك، وهذا الحقُّ الذي لك.

وشُرِعت الصَّلاة علىٰ آله مع الصَّلاة عليه تكميلًا لقُرَّة عينه، بإكرام آله والصَّلاة عليهم. وأنْ يصلِّي عليه وعلىٰ آله كما صلَّىٰ علىٰ أبيه إبراهيم وآله.

والأنبياء كلُّهم بعد إبراهيم من آله، ولذلك كان المطلوب لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صلاةً مثل الصَّلاة علىٰ إبراهيم، وعلىٰ جميع الأنبياء بعده، وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصَّلاة أكمل ما يصلَّىٰ علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بها وأفضل.

فإذا أتىٰ بها المصلِّي أُمِر أنْ يستعيذ بالله من مجامع الشَّرِّ كلِّه »(١).

---

(١) كتاب الصلاة (٣٧٤).

المطب الثالث عشر: الدعاء بعد التشهد:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإذا أتىٰ بها المصلِّي أُمِر أنْ يستعيذ بالله من مجامع الشَّرِّ كلِّه، فإنَّ الشر إمَّا عذاب الآخرة، وإمَّا سببه، فليس الشرُّ إلا العذاب وأسبابه. **والعذاب نوعان: عذابٌ في البَرْزَخ، وعذابٌ في الآخرة. وأسبابه الفتنة؛ وهي نوعان: كُبرىٰ، وصُغرىٰ.**

فالكُبْرىٰ: فتنة الدَّجال وفتنة الممات، **والصُّغرىٰ**: فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتَّوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدَّجَّال، فإنَّ المفتون بهما لا يَتَدَاركهما.

ثُمَّ شُرِعَ له من الدُّعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته. والدُّعاء في هذا المحلِّ قبل السَّلام أفضل من الدُّعاء بعد السَّلام وأنفع للدَّاعي، **وسِرُّ ذلك**: أنَّ المصلِّي قبل سلامه في محلِّ المناجاة والقُرْبة بين يَدَي ربِّه، فسؤاله في هذه الحال أقرب إلىٰ الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يدَي ربِّه، وقد سُئِل النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الدُّعاء أسمع؟ فقال: «**جوف اللَّيل، وأدبار الصَّلاة المكتوبة**»(١)، ودُبُر الصَّلاة جزؤها الأخير، كدُبُر الحيوان، ودُبُر الحائط.

وقد يُرَاد بدُبُرِها ما بعد انقضائها، بقرينةٍ تدلُّ عليه، كقوله: «**تسبِّحُون الله، وتحمدونَه وتكبرونَه دُبُر كل صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين**»(٢)، فهنا دُبُرُها بعد الفراغ منها،

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٩) والنسائي في الكبرىٰ (٩٩٣٦) عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٤٩٩).

(٢) رواه مسلم (٥٩٥).

وهذا نظير انقضاء الأجل فإنَّه يُرَاد به آخر المدَّة ولمَّا يفرغ، ويُرَاد به فراغها وانتهاؤها »(١).

المطلب الرابع عشر: ختام الصلاة بالتسليم:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثُمَّ خُتِمَتْ بالتَّسليم وجُعِل تحليلًا لها، يخرج به المصلِّي منها كما يخرج بتحليل الحجِّ منه، وجُعِل هذا التَّحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسَّلامة التي هي أصل الخير وأساسه، فشُرِع لمن وراءه أنْ يتحلَّل بمثل ما تحلَّل به الإمام، وفي ذلك دعاءٌ له وللمصلِّين معه بالسَّلام، ثُم شُرِعَ ذلك لكلِّ مصلٍّ وإن كان منفردًا، فلا أحسن من هذا التَّحليل للصَّلاة، كما أنه لا أحسن من كون التَّكبير تحريمًا لها.

فتحريمها تكبير الرَّبِّ تعالىٰ، الجامع لإثبات كلِّ كمالٍ له، وتنزيهه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله.

فالتَّكبير يتضمَّن تفاصيل أفعال الصَّلاة، وأقوالها، وهيئاتها، فالصَّلاة من أوَّلها إلىٰ آخرها تفصيلٌ لمضمون (الله أكبر) فلا أحسن من هذا التَّحريم المتضمِّن للإخلاص والتَّوحيد، ومن هذا التَّحليل المتضمِّن للإحسان إلىٰ إخوانه المؤمنين، فافتُتِحَت بالإخلاص، وخُتِمَت بالإحسان »(٢).

---

(١) كتاب الصلاة (٣٧٦-٣٧٩).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٣٧٩ -٣٨٠).

٦- الإنصات لقراءة الإمام:

هذا هو السبب السادس من أسباب الخشوع في الصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لما ذكر تعالىٰ أن القرآن بصائرُ للناس وهدىٰ ورحمةٌ، أمر تعالىٰ بالإنصات عند تلاوته؛ إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦] **ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة** »(١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد**»(٢)، والشاهد من الحديث قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**وإذا قرأ فأنصتوا**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ثم يأخذ في مناجاة ربِّه بكلامه، **واستماعه من الإمام بالإنصات، وحضور القلب وشهوده** »(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٦) [فصلت: ٢٠٤].

(٢) رواه النسائي (٩٢١) وابن ماجه (٨٤٦) وأحمد (٩٤٣٨). وصححه الألباني في صحيح النسائي (٩٢١).

(٣) كتاب الصلاة (ص/ ٣٥٥).

٧- الطمأنينة:

هذا السبب من أهم أسباب الخشوع في الصلاة، فالطمأنينة ركن في جميع الأركان، وقد ابتُلي كثير من المسلمين بالاستعجال في الصلاة، وغالبُ الاستعجال ليس له حاجةٌ ولا ضرورة، وإنما غلبت العادة علىٰ إتقان العبادة - عند بعض الناس-، ولذلك أوردتُ في هذا السبب ما يُبين أهميته، ووجوبه، وقدره، وحال السلف في تحقيقه.

وتم تقسيمه إلى المطالب الآتية:

المطلب الأول: أهمية الطمأنينة في الصلاة لأجل تحقيق الخشوع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعـًا، بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلا مع الطُّمأنينة، وكلما زاد طمأنينةً ازداد خشوعـًا، وكلَّما قَلَّ خشوعُه اشتدَّت عَجَلَتُه حتىٰ تصير حركة بدنِه بمنزلة العَبَث، الذي لا يصحبُهُ خشوعٌ ولا إقبالٌ علىٰ العبوديَّة، ولا معرفة حقيقة العبوديَّة »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قال المكمّلُون للصَّلاة: فصلاةٌ وُضِعَت علىٰ هذا النَّحو وهذا التَّرتيب، لا يمكن أن يحصل ما ذكرناه من مقاصدها التي هي جزءٌ يسيرٌ من قدرها وحقيقتها إلَّا مع الإكمال والإتمام والتمهُّل الذي كان رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعله، ومحالٌ حصول ما ذكرناه مع النَّقر والتَّخفيف، الذي يرجع إلىٰ شهوة الإمام والمأمومين.

---

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٣٣٩).

ومن أراد أن يصلِّي هذه الصَّلاة الخاصَّة فلا بُد له من مزيد تطويلٍ، وأمَّا الصَّلاة الحرجية فلا تتوقَّف علىٰ ذلك »[1].

ومعنىٰ (الحرجية) أي: التي يُضيِّقها ويخفِّفها بترك التمهُّل والتَّطويل، مأخوذٌ من (الحرج)، وهو تجمُّع الشيء وضيقه.

المطلب الثاني: الأمر بالطمأنينة في الصلاة:

مما يدلُّ علىٰ وجوب الطمأنينة في الصلاة، أن النبي ﷺ أمر من لم يحقق هذا الركن في صلاته بإعادتها مع تحقيق الطمأنينة فيها؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلىٰ، ثم جاء فسلم علىٰ النبي ﷺ، فرد النبي ﷺ عَلَيْهِ السَّلَام، فقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»، فصلىٰ ثم جاء فسلم علىٰ النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، ثلاثًا، فقال: والذي بعثك بالحق، فما أحسن غيره فعلمني، قال: «**إذا قمت إلىٰ الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتىٰ تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتىٰ تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتىٰ تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[2].

---

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) رواه البخاري (٧٩٣) ومسلم (٣٩٧).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واستُدل بهذا الحديث علىٰ وجوب الطمأنينة في أركان الصلاة، وبه قال الجمهور، واشتهر عن الحنفية أن الطمأنينة سنة »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فيه دليلٌ علىٰ وجوب الطُّمأنينة، وأنَّ مَنْ تَرَكَها لم يفعل ما أُمِرَ به، فيبقىٰ مُطَالَبًا بالأمر. وتأمَّل أمره بالطُّمأنينة في الركوع والاعتدال في الرَّفع منه، فإنه لا يكفي مجرَّد الطُّمأنينة في ركن الرفع حتىٰ يعتدل قائمًا؛ فيجمع بين الطُّمأنينة والاعتدال. وقال في الرَّفع من السُّجود: «ثم ارفع حتىٰ تطمئنَّ جالِسًا» وفي لفظٍ: «حتىٰ تعتدل جالسًا» فلم يكتف بمجرَّد الرَّفع كحدِّ السيف حتىٰ تحصل الطُّمأنينة والاعتدال، ففيه أمرٌ بالرَّفع والطُّمأنينة فيه، والاعتدال »(٢).

وعند الترمذي من حديث رفاعة بن رافع بنحوه، وفي آخره: «**فإذا فعلت ذلك فقد تمَّت صلاتُك، وإنْ انتقصت منه شيئًا انتقصت من صلاتك**»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فكان هذا أهون عليهم من الأول، أنه من انتقص من ذلك شيئًا انتقص من صلاته، ولم تذهب كلُّها »(٤).

وكان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يأمرون من أسرع في صلاته بإعادتها؛ فعن حرملة مولىٰ أسامة بن زيد: أنه بينا هو جالس مع ابن عمر إذ دخل الحجاج بن أم أيمن،

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٧٩) حديث رقم (٧٩٣).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٢٧٠- ٢٧٣).

(٣) سنن الترمذي (٣٠٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٢).

(٤) كتاب الصلاة (٢٧٦).

فصلىٰ صلاة لم يتم ركوعها، ولا سجودها، فدعاه ابن عمر وقال: أتحسب أنك قد صليت؟ إنك لم تصل، فعُد لصلاتك. فلمَّا ولَّىٰ قال ابن عمر: من هذا؟ فقلت: الحجاج بن أم أيمن، فقال: لو رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحبه(١).

المطلب الثالث: بيان أن الطمأنينة ركن من أركان الصلاة:

قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٦).

وقال عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضعٍ من التَّنزيل إلاَّ مقرونـًا بإقامتها، فالمصلُّون في الناس قليلٌ ومقيمو الصَّلَاة منهم أقل القليل؛ كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **الحاجُّ قليلٌ والرَّكب كثير** »(١).

وقال ابن القيم أيضًا: « فأمرنا بإقامتها وهو الإتيان بها قائمةً، تامَّة القيام والركوع والسجود والأذكار وقد علَّقَ الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلىٰ في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، **ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعـًا، بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلا مع الطُّمأنينة** »(٢).

المطلب الرابع: الترغيب في إطالة الصلاة إن لم يوجد مانع:

عن عمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ طولَ صلاةِ الرجل وقِصَرَ خطبته مئِنَّةٌ من فقهِهِ، فأطيلوا الصَّلاة واقْصُروا الخطبة»(٣).

---

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٣٤٢).

(٢) المصدر السابق (ص/ ٣٣٩).

(٣) رواه مسلم (٨٦٩).

والمَئِنَّة: العلاَمة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد حكم النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ طول صلاة الرجل من فِقْهِه، وهذا الحكم أولىٰ من الحُكْمِ له بقلَّة الفقه، فحُكْمُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الحُكْمُ الحق، وما خالفه فهو الحكم الباطل الجائر، فروىٰ مسلمٌ ... وذكر حديث عمار، قال: وعند سُرَّاق الصلاة أنَّ العجلة فيها من علامات الفقه، فكلَّما سَرَق ركوعها وسجودها وأركانها كان ذلك علامة فضيلته وفقهه، وفي (صحيح بن حبان) و (سنن النسائي) عن عبد الله ابن أبي أوفىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: **كان رسول الله يُكْثِرُ الذِّكْرَ، ويُقِلُّ اللَّغوَ، ويطيل الصَّلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنفُ يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضىٰ له الحاجة**[1].

فهذا فعلُه، وذاك قولُه في مثل صلاة الجمعة التي يجتمع لها الناس، وكان يقرأ فيها بسورة الجمعة والمنافقين كاملتين، ولم يقتصر علىٰ الثلاث آيات في آخرهما في جمعةٍ واحدةٍ أصلًا، فعطَّل كثيرٌ من الناس سُنَّته، فاقتصر علىٰ آخرهما، ولم يقرأ بهما كاملتين أصلًا »[2].

وعن عبيد بن أبي الجعد، عن رجلٍ أشجعي قال: « سمعوا أنَّ سلمان بالمسجد، فأتوه يثوبون إليه حتىٰ اجتمع نحو من ألف، فقام فافتتح سورة

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (١١٢٩). وسنن النسائي رقم (١٤١٤). وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٤١٤) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٥٤٨).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٣٨٣- ٣٨٥).

يوسف، فجعلوا يتصدعون ويذهبون، حتىٰ بقي نحو مئة، فغضب، وقال: الزخرف يريدون؟ آية من سورة كذا وآية من سورة كذا »[١].

المطلب الخامس : النهي عن نقر الصلاة وأنه من صفات المنافقين :

عن عبد الرحمن بن شبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: نهىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عن نقرةِ الغُرابِ، وافتراش السبع، وأن يُوطِّنَ الرجلُ المكانَ في المسجد كما يُوطِّنُ البعيرُ**[٢].

قال السندي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله «عن نقر الغراب» هو تخفيف السجود بحيث لا يمكث فيه إلا قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله »[٣].

وعن العلاء بن عبد الرحمن، أنه دخل علىٰ أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعةَ من الظُّهر، قال: **فصلوا العصر**، فقمنا فصلينا. فلما انصرفنا قال سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**تلك صلاةُ المنافق، يجلسُ يرقُبُ الشمسَ حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكرُ الله فيها إلا قليلًا**»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥١).

(٢) رواه أبو داود (٨٦٢) والنسائي (١١١٢) وابن ماجه (١٤٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٨٢).

(٣) حاشية السندي علىٰ النسائي (٢/ ٢١٤) حديث رقم (١١١٢).

(٤) رواه مسلم (٦٢٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «**فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**» تصريح بذمٍّ من صلىٰ مُسرعـًا بحيث لا يكمل الخشوع والطمأنينة والأذكار، والمراد بالنقر: سرعة الحركات كنقر الطائر »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فهذه سِتُّ صفاتٍ من علامات النفاق؛ الكَسَل عند القيام إليها، ومُراءاة الناس في فعلها، وتأخيرها، ونقرها، وقلَّة ذكرِ الله فيها، والتَّخلُّف عن جماعتها »(٢).

المطلب السادس: الترهيب من ترك الطمأنينة في الصلاة:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا ينظر الله إلىٰ صلاة رجل لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده**»(٣).

وعن أبي مسعود البدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا تجزئ صلاةُ الرجلِ حتىٰ يقيمَ ظهره في الركوع والسجود**»(٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الرَّفع من الرُّكوع، وبين السجدتين، والاعتدال فيه، والطمأنينة فيه، ركنٌ لا تصحُّ الصلاة إلا به »(٥).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ١٢٤) حديث رقم (٦٢٢).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٢٨٤).

(٣) رواه أحمد (١٠٧٩٩) وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (١٠٧٩٩).

(٤) رواه أبو داود (٨٥٥) والنسائي (١١١١) وابن ماجه (٨٧٠) والترمذي (٢٦٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٢٤).

(٥) كتاب الصلاة (ص/ ٢٨٠).

وعن زيد بن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « رأىٰ حذيفةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رجلًا لا يتمُّ الركوعَ والسجودَ، قال: ما صليتَ، ولو مُتَّ مُتَّ علىٰ غير الفطرة التي فطرَ الله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[1].

قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقوله: (علىٰ غير فطرة) قيل: الفطرة الملة، وأراد توبيخه علىٰ سوء صنيعه ليرتدع عنه، وقيل: أراد بها الصلاة؛ لكونها أكبر أعمال الإيمان »[2].

وقال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكان يُقال: في كلِّ شيءٍ وفاءٌ وتطفيفٌ؛ فإذا توعَّدَ الله سبحانه بالويل للمطفِّفين في الأموال، فما الظنُّ بالمطفِّفِين في الصلاة! »[3].

المطلب السابع: الزجر عن الإسراع في الصلاة وتسميته سرقة:

وقد سمىٰ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا يتم صلاته بأنه سارق، بل أسوأ الناس سرقة، وهذا يدلُّ علىٰ شدة التنفير عن نقر الصلاة، وأهمية الطمأنينة فيها:

عن أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسوأُ الناس سَرِقةً الذي يسرق من صلاته**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لا يتم ركوعها ولا سجودها**» أو قال: «**لا يقيم صلبه في الركوع والسجود**»[4].

---

(١) رواه البخاري (٧٩١).

(٢) حاشية السندي علىٰ النسائي (٣/ ٥٩) حديث رقم (١٣١٢).

(٣) كتاب الصلاة لابن القيم (ص/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٦٤٢) والدارمي (١٣٦٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فصرَّح بأنَّه أسوأ حالاً من سارق الأموال، ولا ريب أنَّ لص الدِّين شرٌّ من لِصِّ الدنيا »(١).

وعن الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « دخلت علىٰ أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت »(٢).

المطلب الثامن: مقدار كمال الطمأنينة في الصلاة:

عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: « ما صليت خلف أحد أوجزَ صلاةً من صلاة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تمامٍ، كانت صلاةُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ متقاربةً، وكانت صلاةُ أبي بكر متقاربةً، فلما كان عمر بن الخطاب مَدَّ في صلاة الفجر، وكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا قال: «سمع الله لمن حمده» قام حتىٰ نقول: قد أوهم، ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتىٰ نقول: قد أوهم »(٣).

وعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، يقول: ما صليت وراء أحد بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أشبَهَ صلاةً برسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من هذا الفتىٰ، يعني: عمرَ بنَ عبد العزيز، قال: فحزَرْنَا في ركوعه عشرَ تسبيحاتٍ، وفي سُجُوده عشرَ تسبيحاتٍ »(٤).

---

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٢٨٧).

(٢) رواه البخاري (٥٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٣).

(٤) رواه أبو داود (٨٨٨) والنسائي (١١٣٥) وحسنه ابن حجر كما في نتائج الأفكار (٢/ ٦٧).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: (عشر تسبيحات) قيل: فيه حجة لمن قال: إن كمال التسبيح عشر تسبيحات. والأصح أن المنفرد يزيد في التسبيح ما أراد، وكلما زاد كان أولىٰ، والأحاديث الصحيحة في تطويله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناطقة بهذا، وكذلك الإمام إذا كان المؤتَمُّون لا يتأذون بالتطويل »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « مسألة! مقدار صلاة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجلِّ المسائل وأهمِّها، وحاجة الناس إلىٰ معرفتها أعظم من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب، وقد ضيَّعها الناس من عهد أنس بن مالك ... والإيجاز هو الذي كان يفعله النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا الإيجاز الذي يظنُّه من لم يقف علىٰ مِقْدار صلاته، فإنَّ الإيجاز أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ، راجِعٌ إلىٰ السُّنَّة، لا إلىٰ شهوة الإمام ومَنْ خلفه. فلمَّا كان يقرأ في الفجر بالسِّتين إلىٰ المئة كان هذا إيجازاً بالنِّسبة إلىٰ ست مئة آيةٍ إلىٰ ألفٍ. ولمَّا قرأ في المغرب بالأعراف كان هذا الإيجاز بالنسبة إلىٰ البقرة »(٢).

المطلب التاسع: الطمأنينة في كل موضع من مواضع الصلاة بحسبه:

عن ثابت، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: « إني لا آلو أن أصلي بكم كما رأيت النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بنا ».

---

(١) عون المعبود (٣/ ١٠١) حديث رقم (٨٨٨).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٢٨٩-٢٩١).

قال ثابت: « كان أنسٌ يصنع شيئًا لم أركم تصنعونه، كان إذا رفع رأسه من الركوع قام حتىٰ يقول القائل قد نسي، وبين السجدتين حتىٰ يقول القائل قد نسي »[١].

وعن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « رمقت الصلاة مع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فوجدت قيامَه، فركعتَه، فاعتدالَه بعد ركوعه، فسجدتَه، فجلستَه بين السجدتين، فسجدته، فجلسته ما بين التسليم والانصراف، قريبًا من السواء »[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: « وليس مراده أنَّهما بقدر ركوعه وسجوده، وإلَّا ناقض السِّياقَ الثَّاني، وإنما المراد أنَّ طولَهُما كان مناسبًا لطول الرُّكوع والسُّجود والاعتدالين، بحيث لا يظهر التَّفاوت الشَّديد في طول هذا وقِصَرِ هذا، كما يفعله كثيرٌ ممَّن لا علم عنده بالسُّنَّة، يُطيل القيام جدًّاً، ويخفِّف الركوع والسجود، وكثيراً ما يفعلون هذا في صلاة التراويح ... فأحاديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تدلُّ علىٰ أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يطيل الركوع والسجود والاعتدالين، زيادةً علىٰ ما يفعله أكثر الأئمة. بل كلُّهم إلا النَّادر »[٣].

---

(١) رواه البخاري (٨٢١) ومسلم (٤٧٢).

(٢) رواه مسلم (٤٧١).

(٣) كتاب الصلاة (ص/ ٢٩٤- ٢٩٩).

المطلب العاشر: الأمر بإعطاء كل ركعة حظها:

عن أبي العالية، قال: حدثني من سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أعطوا كل سورة حظها من الركوع والسجود**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنكروا علىٰ من كان يبالغ في تطويل القيام، وعلىٰ من كان يخفف الأركان، ولا سيما ركنَي الاعتدال، وعلىٰ من كان لا يتم التكبير، وعلىٰ من كان يؤخر الصلاة إلىٰ آخر وقتها، وعلىٰ من كان يتخلف عن جماعتها، وأخبروا عن صلاة رسول الله التي ما زال يصليها حتىٰ مات، ولم يذكر أحد منهم أصلاً أنه نقص من صلاته في آخر حياته ولا أن تلك الصلاة التي كان يصليها منسوخة، بل استمر خلفاؤه الراشدون علىٰ منهاجه في الصلاة كما استمروا علىٰ منهاجه في غيرها؛ فصلىٰ الصديق صلاة الصبح فقرأ فيها بالبقرة كلها فلما انصرف منها قالوا: يا خليفة رسول الله، كادت الشمس تطلع، قال: لو طلعت لم تجدنا غافلين(٢).

وكان عمر يصلي الصبح بالنحل ويونس وهود ويوسف ونحوها من السور »(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢٠٥٩٠) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٢٢).

(٢) المصنف - ابن أبي شيبة (٣/ ٢٧٩) رقم (٣٥٨٣).

(٣) كتاب الصلاة (ص/ ٣١٢).

المطلب الحادي عشر: تطويل الركعة الأولى أكثر من الثانية:

عن أبي قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقرأ في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بفاتحة الكتاب وسورتين، يطوِّلُ في الأولىٰ، ويقصرُ في الثانية، ويُسمعُ الآية أحيانا، وكان يقرأ في العصر بفاتحة الكتاب وسورتين، وكان يطول في الأولىٰ، وكان يطول في الركعة الأولىٰ، من صلاة الصبح ويقصر في الثانية »(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: **(يطول في الأولىٰ ويقصر في الثانية)** قال الشيخ تقي الدين: كان السبب في ذلك أن النشاط في الأولىٰ يكون أكثر فناسب التخفيف في الثانية حذراً من الملل. انتهىٰ.

وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن يحيىٰ في آخر هذا الحديث: **(فظننا أنه يريد بذلك أن يدرك الناس الركعة)**

وعن عطاء قال: إني لأحب أن يطول الإمام الركعة الأولىٰ من كل صلاة حتىٰ يكثر الناس »(٢).

وعن الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « الأولىٰ من الصلوات أطول في القراءة »(٣).

(١) رواه البخاري (٧٥٩) ومسلم (٤٥١).

(٢) فتح الباري (٢/ ٢٤٤) حديث رقم (٧٥٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٦٧٤) وابن أبي شيبة (٢٧٥٨).

المطلب الثاني عشر: أهمية تعلُّم القدر الذي يقرأه المصلي:

عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « لابدَّ للرجل المسلم من ست سور يتعلمهن للصلاة، سورتين لصلاة الصبح، وسورتين لصلاة المغرب، وسورتين لصلاة العشاء »(١).

المطلب الثالث عشر: نماذج من قراءة السلف في الصلاة:

القراءة في صلاة الفجر:

عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في الفجر ما بين الستينَ إلىٰ المائةِ آيةً »(٢).

وعند البخاري بلفظ: « وكان يقرأ في الركعتين، أو إحداهما، ما بين الستين إلىٰ المائة »(٣).

القراءة بسورة البقرة:

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « صليت خلف أبي بكر الفجر، فاستفتح البقرة فقرأها في ركعتين، فقام عمر حين فرغ قال: يغفر الله لك، لقد كادت الشمس تطلع قبل أن تسلم قال: لو طلعت لألفتنا غير غافلين »(٤).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧٥٠).

(٢) رواه مسلم (٤٦١) والبخاري (٥٤١).

(٣) صحيح البخاري (٧٧١).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧١١).

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: « أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صلىٰ الصبح فقرأ فيها سورة البقرة، في الركعتين كلتيهما »[1].

القراءة بسورة آل عمران:

عن سليمان بن عتيق رَحِمَهُ اللَّهُ: « أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قرأ في الصبح سورة آل عمران »[2].

القراءة بسورة يوسف والحج:

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: « ما حفظت سورة يوسف، وسورة الحج إلا من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من كثرة ما كان يقرؤهما في صلاة الفجر، فقال: كان يقرؤهما قراءة بطيئة »[3]. وعن حصين بن سبرة: « أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قرأ في الفجر بيوسف، ثم قرأ في الثانية بالنجم، فسجد، فقام، فقرأ إذا زلزلت »[4].

وعن القاسم بن محمد، أن الفُرافِصَةَ بنِ عميرٍ الحنفي قال: « ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان إياها في الصبح، من كثرة ما كان يرددها لنا »[5].

---

(١) موطأ مالك (٣٣) والسنن الكبرىٰ للبيهقي (٤٠١٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧١٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧١٥) ومالك في الموطأ (٢١٩) بنحوه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧٢٤).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (٢٢٢).

القراءة بسورة النحل ونحوها:

عن عمرو بن ميمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قبل أن يُصابَ بأيام بالمدينة، وقف علىٰ حذيفةَ بنِ اليمان وعثمانَ بنِ حُنيفٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كيف فعلتما، أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمرًا هي له مطيقة، ما فيها كبيرُ فضل. قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق، قال: قالا: لا. فقال عمر: لئن سلمني الله، لأدعنَّ أراملَ أهلِ العراق لا يحتَجْنَ إلىٰ رجل بعدي أبدًا ».

قال: « فما أتت عليه إلا رابعةٌ حتىٰ أصيب، قال: إني لقائمٌ ما بيني وبينه إلا عبدُ الله بن عباس غداةَ أُصيبَ، وكان إذا مرَّ بين الصَّفَّين قال: استووا، حتىٰ إذا لم ير فيهن خللًا تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورة يوسفَ أو النحلَ أو نحوَ ذلك في الركعة الأولىٰ حتىٰ يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه، فطار العِلجُ بسكينٍ ذاتِ طرَفينِ، لا يمرُّ علىٰ أحد يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه، حتىٰ طعن ثلاثة عشر رجلًا، مات منهم سبعةٌ، فلما رأىٰ ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرْنُسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذٌ نحرَ نفْسَه، وتناول عمرُ يدَ عبدِ الرحمن بن عوف فقدَّمه، فمَنْ يلي عمرَ فقد رأىٰ الذي أرىٰ، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلىٰ بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة.... إلخ »(١).

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٠).

عن عمرو بن يعلىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أنه أَمَّهُم في الفجر، فقرأ بني إسرائيلَ في ركعتين »(١).

القراءة بسورة مريم:

عن خثيم ابن عراك، عن أبيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أنَّ أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قدِمَ المدينة في رهطٍ من قومه، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، وقد استخلف سِباعَ بنَ عُرْفُطةَ علىٰ المدينة، قال: فانتهيتُ إليه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأولىٰ بـ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم:١] وفي الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين:١] قال: فقلت لنفسي: ويلٌ لفلانٍ إذا اكتالَ اكتالَ بالوافي، وإذا كال كالَ بالناقص. قال: فلما صلىٰ زودنا شيئًا حتىٰ أتينا خيبر، وقد افتتح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، قال: فكلَّمَ المسلمين فأشركُونا في سهامِهم »(٢).

القراءة بسورة المؤمنون:

عن عبد الله بن السائب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « صلىٰ لنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبحَ بمكة فاستفتح سورة المؤمنين، حتىٰ جاء ذكر موسىٰ وهارون - أو ذكر عيسىٰ، محمد بن عباد يشك، أو اختلفوا عليه - أخذَتِ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧١٤).

(٢) رواه أحمد (٨٥٥٢) واللفظ له، وابن خزيمة (١٠٣٩) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٨٥٥٢).

سَعْلَةٌ فركع، وعبد الله بن السائب حاضر ذلك، وفي حديث عبد الرزاق: فحذف فركع »(١).

القراءة بسورة الروم:

عن شبيب بن أبي روح، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « صلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفجر فقرأ فيهما بالروم، فالتبس عليه في القراءة، فلما صلىٰ قال: «ما بال رجال يحضرون معنا الصلاة بغير طُهُور! أولئك الذين يَلْبِسُون علينا صلاتَنا، من شهِدَ معنا الصلاة فليُحسِن الطُّهُور»»(٢).

القراءة بسورة الصافات:

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه قال: « إن كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليأمُرُنا بالتخفيف، وإن كان ليؤمُّنا بالصافات، قال يزيد: في الصبح »(٣).

القراءة بسورة الفتح:

عن أبي برزة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ في الصبح بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح:١] » (٤).

---

(١) رواه مسلم (٤٥٥).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠٧٢) والنسائي (٩٤٧). وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٢٣٠٧٢).

(٣) رواه أحمد (٤٩٨٩) والنسائي (٨٢٦) وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧/ ١٦).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧٣٢).

وعن صالح بن كيسان: « أنه سمع ابن عمر قرأ في المغرب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١]»(١).

القراءة بطوال المفصَّل:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « أنه كتب إلىٰ أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنْ صلِّ الظهر إذا زاغت الشمس، والعصر والشمس بيضاء نقية، قبل أن يدخلها صفرة، والمغرب إذا غربت الشمس، وأخر العشاء ما لم تنم، وصل الصبح، والنجوم بادية مشتبكة، واقرأ فيها بسورتين طويلتين من المفصل »(٢).

سورة ق:

عن قطبة بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « أنه صلىٰ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ، فقرأ في أوّلِ ركعةٍ ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق:١٠] وربما قال: ﴿قٓ﴾ [ق:١] »(٣).

الواقعة:

عن جابر بن سمرة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي الصلوات كنحوٍ من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٦٩٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٧).

(٣) رواه مسلم (٤٥٧).

كانت صلاتُه أخفَّ من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعةَ ونحوَهَا من السور »(١).

الحديد:

عن ربيعة بن عبد الله بن الهَدير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يقرأ بالحديد وأشباهها »(٢).

المطلب الرابع عشر: القراءة في فجر يوم الجمعة مع بيان الحكمة منه:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأُ في الجُمُعة في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢] السجدةَ و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] »(٣).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والمراد أنْ يقرأ في كل ركعة بسورة. وكذا بيَّنه مسلم من طريق إبراهيم بن سعد بن إبراهيم عن أبيه بلفظ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ في الركعة الأولىٰ، وفي الثانية: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾، وفيه دليل علىٰ استحباب قراءة هاتين السورتين في هذه الصلاة من هذا

---

(١) رواه أحمد (٢٠٩٩٥) وعبد الرزاق في المصنف (٢٧٢٠) وصححه الألباني في أصل صفة الصلاة (٢/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٧٢٢).

(٣) رواه البخاري (٨٩١) ومسلم (٨٨٠).

اليوم لما تشعر الصيغة به من مواظبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ذلك أو إكثاره منه، بل ورد من حديث ابن مسعود التصريح بمداومته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ذلك، أخرجه الطبراني ولفظه (يديم ذلك) ...» إلىٰ أن قال: « وقيل: إن الحكمة في هاتين السورتين الإشارة إلىٰ ما فيهما من ذكر خلق آدم وأحوال يوم القيامة، لأن ذلك كان وسيقع يوم الجمعة، ذكره ابن دحية في العلم المشهور وقرره تقريرًا حسنًا »(١).

المطلب الخامس عشر: القراءة في صلاة الظهر والعصر:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « كانت صلاة الظهر تُقام، فينطلقُ أحدُنا إلىٰ البقيعِ فيقضي حاجتَه، ثم يأتي أهلَه فيتوضأُ، ثم يرجعُ إلىٰ المسجد ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الركعة الأولىٰ »(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كنا نَحْزِرُ قيام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الظهر والعصر، فحزرنا قيامه في الركعتين الأوليين من الظهر قدر قراءة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢] **وحزرنا قيامه في الأخريين قدر النصف من ذلك، وحزرنا قيامه في الركعتين الأوليين من العصر علىٰ قدر قيامه في الأخريين من الظهر وفي الأخريين من العصر علىٰ النصف من ذلك** »(٣).

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٧٩) حديث رقم (٨٩١).

(٢) رواه مسلم (٤٥٤).

(٣) رواه مسلم (٤٥٢).

وفي لفظ لمسلم عنه قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في صلاة الظهر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر ثلاثين آية، وفي الأخريين قدر خمس عشرة آية – أو قال: نصف ذلك –، وفي العصر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر قراءة خمس عشرة آية، **وفي الأخريين قدر نصف ذلك.**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « وقد احتجَّ به من استحبَّ قراءة السورة بعد الفاتحة في الأخريين، وهو ظاهر الدلالة لو لم يجيء حديث أبي قتادة المتفق علىٰ صحته أنه كان يقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. فذكر السورتين في الركعتين الأوليين واقتصاره علىٰ الفاتحة في الأخريين يدل علىٰ اختصاص كل ركعتين بما ذكر من قراءتهما. وحديث سعد يحتمل لما قال أبو قتادة، ولما قال أبو سعيد، وحديث أبي سعيد ليس صريحًا في قراءة السورة في الأخريين فإنما هو حَزْرٌ وتخمين »(١).

المطلب السادس عشر: القراءة في صلاة المغرب:

الأعراف ونحوها:

عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار، وقد سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**يقرأ بطولىٰ الطوليين؟**»(٢)، والمراد: الأعراف؛ لأنها أطول السورتين الطويلتين وهما الأنعام والأعراف، بدليل

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٧٦٤).

رواية: **قلت**: ما طولى الطوليين؟ قال: الأعراف، والآخر الأنعام، وسألت أنا ابن أبي مليكة فقال لي من قبل نفسه: المائدة والأعراف الطوليين(١).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: « أن رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين »(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: « فحصل الاتفاق علىٰ تفسير الطولىٰ بالأعراف، وفي تفسير الأخرىٰ ثلاثة أقوال: المحفوظ منها الأنعام ... وقال ابن المنير: تسمية الأعراف والأنعام بالطوليين إنما هو لعرف فيهما لا أنهما أطول من غيرهما، والله أعلم. واستُدِلَّ بهذين الحديثين علىٰ امتداد وقت المغرب، وعلىٰ استحباب القراءة فيها بغير قصار المفصل »(٣).

المطلب السابع عشر: القراءة في صلاة الجمعة والعيدين:

عن النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قال: « كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يقرأ، في العيدين وفي الجمعة بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى:١] وَ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية:١]، قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة، في يوم واحد، يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين »(٤).

---

(١) سنن أبي داود (٨١٢) وصححه الألباني في صحيح أبي دواد (٨١٢).

(٢) رواه النسائي (٩٩١) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٩٩٠) والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٩٥٥).

(٣) فتح الباري (٢/ ٢٤٧) حديث رقم (٧٦٤).

(٤) رواه مسلم (٨٧٨).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: كان رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١] وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١] فيه استحباب القراءة فيهما بهما، وفي الحديث الآخر القراءة في العيد بـ ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾، وكلاهما صحيح، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقت يقرأ في الجمعة: ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ و﴿ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ وفي وقت: ﴿سَبِّحِ﴾ وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ وفي وقت يقرأ في العيد: ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ وفي وقت: ﴿سَبِّحِ﴾ وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ »[(١)].

وعَن بن أبي رافع قال: « استخلف مروانُ أبا هريرة علىٰ المدينة، وخرج إلىٰ مكة، فصلىٰ لنا أبو هريرة الجمعة، فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الآخرة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف، فقلت له: إنك قرأت بسورتين، كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة. فقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ بهما يوم الجمعة »[(٢)].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: « أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في صلاة الفجر، يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] السجدة و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١] وأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ، في صلاة الجمعة، سورة الجمعة والمنافقين»[(٣)].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ١٦٧) حديث رقم (٨٧٨).

(٢) رواه مسلم (٨٧٧).

(٣) رواه مسلم (٨٧٩).

المطلب الثامن عشر: نماذج من الطمأنينة في الصلاة عند السلف:

قال ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيتُ **الثوريَّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في الحرم بعد المغرب صلَّىٰ ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتىٰ نودي بالعشاء »(١).

وقال علي بن الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيت **الثوري** ساجدًا، فطفتُ سبعة أسابيع قبل أن يرفع رأسه »(٢).

والأسبوع هو: الطواف الكامل حول الكعبة مرة واحدة.

وقال الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان **إبراهيم التيمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا سجد كأنه جِذْمُ حائط ينزل علىٰ ظهره العصافير »(٣).

وقال أحمد بن منيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سمعت أبا قطن يقول: ما رأيت **شعبة** ركع قط إلا ظننت أنه نسي، ولا قعد بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي »(٤).

وقال عبدان الأهوازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كنا لا نصلي خلف **هُدبة بن خالد** من طول صلاته، يسبح في الركوع والسجود نيفًا وثلاثين تسبيحه، وكان من أشبه خلق الله بهشام بن عمار لحيته ووجهه وكل شيء، حتىٰ في صلاته »(٥).

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٦).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٥٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦١).

(٤) صفة الصفوة (٢/ ٢٠٧).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/ ٣٤).

وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيت **حبيب بن أبي ثابت** ساجدًا، فلو رأيته قلت: ميت - يعني: من طول السجود »(١).

المطلب التاسع عشر: من ضيع صلاته فهو لما سواها أضيع:

عن أبي العالية قال: « كنت أرحل إلىٰ الرجل مسيرة أيام لأسمع منه، فَأَتَفَقَّدُ صلاتَه، فإن وجدتُّه يحسنها أقمتُ عليه، وإنْ أجده يضيعها رحلت ولم أسمعْ منه، وقلتُ: هو لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ »(٢).

المطلب العشرون: حكم الصلاة خلف إمام لا يطمئن في صلاته:

سُئلت اللجنة الدائمة: هل تجوز الصلاة خلف إمام لا يطمئن أولا تجوز؟

ج: الطمأنينة في الركوع وفي القيام بعد الرفع منه وفي السجود وفي الجلوس بين السجدتين من فرائض الصلاة، فمن لم يطمئن في ركن من هذه الأركان فصلاته باطلة، ولا تصح صلاة من اقتدىٰ به، ويجب علىٰ من علم منه ذلك أن يرشده وينصح له، فإن انتصح فالحمد لله، وإلا وجب ترك الصلاة وراءه ورفع أمره إلىٰ الجهة المسئولة حيث أمكن، حتىٰ تعزله عن الإمامة وتضع غيره ممن يحسن الصلاة، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم(٣).

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٦١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٩).

(٣) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (٧/ ٩٠).

٨- تدبر آيات القرآن والتفكر في معانيها:

هذا السبب الثامن من أهم أسباب الخشوع في الصلاة، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، ويتعين التدبر في سورة الفاتحة للحديث الوارد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال اللهُ تعالىٰ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفينِ ولعبدي ما سألَ...**»[١].

قال العلماء: « والمراد قسمتها من جهة المعنىٰ؛ لأن نصفها الأول تحميد لله تعالىٰ، وتمجيدٌ وثناءٌ عليه، وتفويضٌ إليه، والنصف الثاني سؤالٌ وطلبٌ وتضرعٌ وافتقار »[٢].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتكف وخطب الناس فقال: «**أمَا إنَّ أحدكم إذا قام في الصلاة، فإنه يناجي ربه، فليعلمْ أحدُكُم ما يُناجي ربَّه، ولا يجهرْ بعضُكُم علىٰ بعضٍ بالقراءة في الصلاة**»[٣].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: « إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها في النهار »[٤].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ١٠٣) حديث رقم (٣٩٥).

(٣) واه أحمد (٤٩٢٨) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣١٥) والألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٩٧).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (صـ/ ٥٤). الباب الخامس: في آداب حامل القرآن.

وقال عمرو بن مرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أكرهُ أن أَمُرّ بمثَلٍ في القرآن فلا أعرفه؛ لأن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] »(١).

وعن وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « نظرنا في هذا الحديث، فلم نجد شيئًا أرقَّ لهذه القلوب، ولا أشدَّ استجلابًا للحق، من قراءة القرآن لِمَنْ تَدَّبَّرَهُ »(٢).

وقال تعالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال قتادة: « أي: سأمنعهم فَهْمَ كتابي. وقاله سفيان بن عيينة »(٣).

٩- معرفة الله ومحبته وتعظيمه:

فإن قيل: كيف تُنال معرفة الله؟

فالجواب: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **الرب تعالىٰ يدعو عباده في القرآن الىٰ معرفته من طريقين:**

أحدهما: النّظر فِي مفعولاته.

وَالثَّانِي: التفكر فِي آيَاته وتدبّرها، فَتلك آيَاته المشهودة، وهذه آيَاته المسموعة المعقولة.

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٩٥).

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٤٢).

(٣) تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٨٣) [سورة الأعراف: ١٤٦].

فالنوع الأوّل: كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثير في القُرآن.

والثّاني: كقولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] وهو كثيرٌ أيضًا.

فأمّا المفعولات فإنّها دالّة علىٰ الأفعال، والأفعال دالّة علىٰ الصِّفَات، فإن المفعول يدل علىٰ فاعلٍ فعلَه، وذلك يستَلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لِاسْتِحَالَة صُدُور الْفِعل الِاختِيَاريّ من معدُوم، أو موجُود لَا قدرَة لَهُ وَلَا حَيَاة وَلَا علم وَلَا إِرَادَة، ثمَّ مَا فِي المفعولات من التخصيصات المتنوعة دالّ علىٰ إِرَادَة الْفَاعِل، وَأن فعله لَيْسَ بالطبع بِحَيْثُ يكون وَاحِدًا غير متكرر، وَمَا فِيهَا من الْمصَالح وَالْحكم والغايات المحمودة دَال علىٰ حكمته تَعَالَىٰ، وَمَا فِيهَا من النَّفْع وَالْإِحْسَان وَالْخَيْر دَال علىٰ رَحمته، وَمَا فِيهَا من الْبَطْش والانتقام والعقوبة

دَال علىٰ غَضَبه، وَمَا فِيهَا من الْإِكْرَام والتقريب والعناية دَال علىٰ محبّته، وَمَا فِيهَا من الإهانة والإبعاد والخذلان دَال علىٰ بغضه ومقته، وَمَا فِيهَا من ابْتِدَاء الشَّيْء فِي غَايَة النَّقْص والضعف ثمَّ سوقه إِلَىٰ تَمَامه ونهايته دَال علىٰ وُقُوع الْمعَاد، وَمَا فِيهَا من أَحْوَال النَّبَات وَالْحَيَوَان وَتصرف الْمِيَاه دَلِيل علىٰ إِمْكَان الْمعَاد، وَمَا فِيهَا من ظُهُور آثَار الرَّحْمَة وَالنعْمَة علىٰ خلقه دَلِيل علىٰ صحّة النبوّات، وَمَا فِيهَا من الكمالات الَّتِي لَو عدمتها كَانَت نَاقِصَة دَلِيل علىٰ أَن معطي تِلْكَ الكمالات أَحَق بهَا.

فمفعولاته من أدل شَيْء علىٰ صِفَاته، وَصدق مَا أخْبرت بِهِ رسله عَنهُ؛ فالمصنوعات شاهدة، تصدق الْآيَات المسموعات، منبّهة علىٰ الِاسْتِدْلَال بِالْآيَاتِ المصنوعات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] أَي: أَن الْقُرْآن حق، فَأخْبر أَنه لَا بُد من أَن يُرِيهم من آيَاته المشهودة مَا يبيّن لَهُم أَن آيَاته المتلوّة حق، ثمَّ أخبر بكفاية شَهَادَته علىٰ صِحَة خَبره بِمَا أَقَامَ من الدَّلَائِل والبراهين علىٰ صدق رَسُوله. فآياته شاهدة بصدقه وَهُوَ شَاهد بِصدق رَسُوله بآياته، وَهُوَ الشَّاهِد والمشهود لَهُ، وَهُوَ الدَّلِيل والمدلول عَلَيْهِ »(١).

---

(١) الفوائد (ص/ ٢٨).

وقال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ألا ترون رحمَكُمُ اللهُ إلىٰ مولاكم الكريم كيف يحثُّ خلقه علىٰ أن يتدبروا كلامه، ومن تدبَّر كلامه، عرَف الربَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تَفَضُّله علىٰ المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرْضِ عبادته، فألزم نفسه الواجب؛ فحذر مما حذَّره مولاه الكريم، ورغب فيما رَغَّبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره ، كان القرآن له شفاء؛ فاستغنىٰ بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وأنس بما يستوحش منه غيره ، وكان هَمُّهُ عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متىٰ أَتَّعِظُ بما أتلو؟ ولم يكن مراده متىٰ أختم السورة؟ وإنما مُرَادُهُ متىٰ أَعْقِلُ عن الله الخطاب؟ »[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وليس حظُّ القلب العامر بمحبَّة الله وخشيته والرَّغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصَّلاة كحظِّ القلب الخالي الخراب من ذلك؛ فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلبٍ مُخْبتٍ له، خاشعٍ له، قريبٍ منه، سليمٍ من معارضات السُّوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسَطَع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النَّفس، ودخان الشَّهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان بحقائق الأسماء والصِّفات، وعلوِّها، وجلالها، وكمالها الأعظم، وتفرُّد الرَّب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همُّه علىٰ الله، وقرَّت عينه به، وأحسَّ بِقُرْبِهِ من الله قربًا

(١) أخلاق أهل القرآن (ص/ ٣٦ – ٣٧).

لا نظير له، ففرَّغ قلبه له، وأقبل عليه بكلِّيَّتِه. وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربِّه، فإنَّه سبحانه أقبل عليه أوَّلًا، فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلمَّا أقبل علىٰ ربِّه حظي منه بإقبالٍ آخر أتمَّ من الإقبال الأوَّل »(١).

١٠- مدافعة الوساوس:

وتحت هذا السبب ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان حرص الشيطان على أن يشغل المصلي في صلاته:

إن الشيطان يحرص علىٰ الوسوسة للمسلم في الصلاة، ويُذكِّره بأشياء لم يتذكرها من قبل؛ ولذلك ينبغي للمسلم أن يدافع تلك الوساوس حتىٰ تسلم له عبادته ويتحقَّقَ الخشوعُ في صلاته.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا نودي للصلاة، أدبر الشيطان وله ضُراطٌ، حتىٰ لا يسمعَ التأذينَ، فإذا قضىٰ النداء أقبل، حتىٰ إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتىٰ إذا قضىٰ التثويب أقبل، حتىٰ يخطِرَ بين المرء ونفسِه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتىٰ يظل الرجل لا يدري كم صلىٰ»(٢). قال الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « المعنىٰ أنه يحول بين المرء وبين ما يريده من إقباله علىٰ صلاته وإخلاصه فيها »(٣).

---

(١) كتاب الصلاة (ص/ ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٨) ومسلم (٣٨٩).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ٨٦) حديث رقم (٦٠٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والعبدُ إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربِه، وأغيظِه للشيطان، وأشدِّه عليه، فهو يحرص ويجتهد أنْ لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يَعِدُه ويُمَنِّيه ويُنْسِيه، ويجلب عليه بخيله ورَجِلِه حتىٰ يُهوِّن عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها، فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالىٰ حتىٰ يخطر بينه وبين نفسه، ويَحُول بينه وبين قلبه، فيذكِّره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتىٰ ربما كان قد نسي الشيء والحاجة، وأيِس منها، فيُذَكِّره إياها في الصلاة؛ ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله عَزَّوَجَلَّ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالىٰ وكرامته وقربه ما يناله المقبلُ علىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ، الحاضرُ بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها، بخطاياه وذنوبه وأثقاله، لم تَخِفَّ عنه بالصلاة! فإن الصلاة إنما تُكَفِّرُ سيئات من أدَّىٰ حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالىٰ بقلبه وقالبه »(١).

المطلب الثاني: كيفية مدافعة الوساوس في الصلاة:

عن أبي العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عثمان بن أبي العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أتىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، إنَّ الشيطانَ قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي؛ يَلْبِسُها عليَّ! فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ذاك شيطان يقال له**

(١) الوابل الصيب (ص/ ٤٣-٤٨).

خَنْزَبٌ، فإذا أحسستَه فتعوّذ بالله منه، واتفل علىٰ يسارك ثلاثًا». قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني [(١)].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفي هذا الحديث استحباب التعوذ من الشيطان عند وسوسته مع التفل عن اليسار ثلاثًا، ومعنىٰ "يلبسها" أي: يخلطها، ويشككني فيها، - وهو بفتح أوله وكسر ثالثه - ومعنىٰ "حال بيني وبينها" أي: نكدني فيها، ومنعني لذتها، والفراغ للخشوع فيها »[(٢)].

وسُئلت اللجنة الدائمة: كيف يتجنب الإنسان الوساوس التي تنتابه أثناء الصلاة وتفسدها عليه؟

ج: يشغل المصلي نفسه بتدبر معاني آيات القرآن الكريم التي يتلوها، ويتذكر عظمة الله في ركوعه، وسجوده، وفي سائر أحواله في الصلاة، وأنه واقف بين يدي ربه يناجيه، مخلصا له الدين، فيلتزم الأدب مع من يناجيه، ويتقرب إليه؛ رجاء أن يتقبل منه ويستجيب له فيقربه إلىٰ نفسه، وخوفًا منه أن يعرض عنه فيرد عليه عبادته، بهذا ونحوه من أحكام الخشوع والضراعة لله يكبت الشيطان، ولا يجد له سبيلًا إلىٰ مداخلتك والوسوسة لك، وتنسد مسالكه إليك، وبالله التوفيق وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٤/ ١٩٠) حديث رقم (٢٢٠٣).

(٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. (٧/ ١٦٤).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن الشيطان إذا دخل للإنسان في الصلاة أشغل قلبه؛ فقال له: اذكر كذا اذكر كذا في يوم كذا، فإذا أحس به الإنسان فليتفل عن يساره ثلاث مرات، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا الدواء أخبرنا به رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، ومتىٰ فعل الإنسان بصدق وإيمان أذهب الله عنه ما يجده من الوسوسة في صلاته، هذا هو سبب الهواجس في الصلاة، وهذا هو الدواء منه »(١).

المطلب الثالث: كيفية النفث في الصلاة:

وأما كيفية النفث فقد ورد سؤال للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونصه: ورد في حديث بأن الذي كان يوسوس في صلاته كثيراً أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشده أن ينفث علىٰ يساره ثلاثـًا، ومعلوم أن النفث عندئذٍ لا بد له من الالتفات إلىٰ اليسار فهل يجوز له ذلك؟

فأجاب الشيخ: « نعم. كيف لا يجوز له ذلك! والنبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم هو الذي أرشده إلىٰ هذا، يعني أن الإنسان إذا كان يحدِّثُ نفسَه في الصلاةِ كثيراً فإنَّ دواءه ما وصفه النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم؛ أن يتفلَ عن يساره ثلاث مرات، وأن يستعيذَ بالله من الشيطان الرجيم، قال الصحابي الذي روىٰ هذا الحديث: ففعلت ذلك فأذهب الله عني ما أجد، وهذه شهادة

---

(١) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [٣٦٠].

وتطبيق شهادة بأنه انتفع، وتطبيق بأنه عمل، ولكن قد يقول قائل: إذا كان الإنسان مع الجماعة فكيف يتفل عن يساره؟ فالجواب: إن كان آخر واحد علىٰ اليسار أمكنه أن يتفل عن يساره في غير مسجد، وإلا فليتفل عن يساره في ثوبه في غترته، في منديل، فإن لم يتيسر هذا كفىٰ أن يلتفت عن يساره ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »(١).

١١- الانشغال بالصلاة لا بغيرها:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا نسلم علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، إنا كنا نسلم عليك فترد علينا؟ قال: «**إن في الصلاة شُغلًا**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**إن في الصلاة شغلًا**» معناه: إنَّ المصلي وظيفتُه أن يشتغل بصلاته فيتدبر ما يقوله، ولا يعرج علىٰ غيرها، فلا يرد سلامًا ولا غيره »(٣).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**إن في الصلاة شُغلًا**» في رواية أحمد، عن ابن فضيل: «**لشغلًا**» بزيادة اللام للتأكيد، والتنكير فيه للتنويع، أي: بقراءة القرآن

---

(١) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [٣٥٤].

(٢) رواه البخاري (٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (٥/ ٢٧) حديث رقم (٥٣٨).

والذكر والدعاء، أو للتعظيم؛ أي: شُغلًا وأيّ شغل، لأنها مناجاة مع الله تستدعي الاستغراق بخدمته، فلا يصلح فيها الاشتغال بغيره »[1].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا قمت إلىٰ الصلاة فقم قانتًا كما أمرك الله، وإياك والسهوَ والالتفاتَ؛ أنْ ينظرَ الله إليك وتنظرَ إلىٰ غيره، تسألُ الله الجنةَ وتعوذُ به من النار وقلبُك ساهٍ لا تدري ما تقولُ بلسانك »[2].

وقال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « صليت المغرب ليلة ما بين باب الأخضر، وباب حطة من البيت المقدس، ومعنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المغربي الزاهد، فلما سلَّمنا تمارىٰ رجلان كانا عن يمين أبي عبد الله المغربي؛ وجعل أحدهما يقول للآخر: أسأتَ صلاتك، ونقرتَ نقر الغراب. والآخر يقول له: كذبت؛ بل أحسنتُ وأجملتُ. فقال المعترض لأبي عبد الله الزاهد: ألم يكن إلىٰ جانبك؛ فكيف رأيته يصلي؟ قال أبو عبد الله: لا علم لي به، كنت مشتغلًا بنفسي وصلاتي عن الناس وصلاتهم. فخجل الرجل وأعجب الحاضرون بالقول »[3].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٧٣) حديث رقم (١١٩٩).

(٢) تعظيم قدر الصلاة – محمد بن نصر المروزي (١/ ١٨٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣١٣).

١٢- النظر إلى موضع السجود:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أهمية النظر إلى موضع السجود حال الصلاة:

قال عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]: « هو أنْ لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا »(١).

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هو أنْ لا ترفع بصرك عن موضع سجودك »(٢).

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هو أنْ لا يعرف من علىٰ يمينه ولا من علىٰ يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله عَزَّوَجَلَّ »(٣).

وسُئل الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن الخشوع في الصلاة، فقال: « غضُّ البصر، وخفض الجناح، ولين القلب، وهو: الحزن والخوف »(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « "فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده" فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلًا للفطرة؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٧) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) تفسير الثعلبي - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٨/ ٤٣٣) [المؤمنون: ٢].

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٧) [سورة المؤمنون: ٢].

(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٦).

- وهو الذل والسكون - لا يناسب حاله أن ينظر إلىٰ ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسب حاله الإطراق وغض بصره أمامه »[1].

المطلب الثاني: حكم تغميض العينين في الصلاة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولم يكن من هديه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تغميضُ عينيه في الصلاة، وقد تقدم أنه كان في التشهد يُومئ ببصره إلىٰ أصبعه في الدعاء، ولا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ إشارتَه »[2].

وسُلت اللجنة الدائمة: هل يجوز للمصلي أن يغمض عينيه في حال القيام والركوع والسجود بقصد تمام الخشوع وعدم اللهو بعينيه؟

ج: الخشوع في الصلاة مطلوب من المصلي، بل هو صفة من صفات المؤمنين التي مدحهم الله بها فأثنىٰ عليهم سبحانه بأنهم في صلاتهم خاشعون، وينبغي أن يضع المصلي بصره في موضع سجوده إلا في حالة التشهد فينظر موضع إشارته، وأما التغميض فغير مشروع في الصلاة بل مكروه.

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم [3].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٧٧).

(٢) زاد المعاد (١/ ٢٠٤).

(٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. (٧/ ٢٤).

وسئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما حكم تغميض العينين في الصلاة من أجل الخشوع فقد سمعت أن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أنه جائز، وقد يكون مندوبـًا لأجل الخشوع؟

الجواب: « أما إذا طرأ ما يوجب التغميض فلا بأس، مثل: أن يدخل في الصلاة ثم حصل أمامه صبيان يلعبون، أو لاحظ شيئًا يشغله عن الصلاة، فهنا لا بأس أن يغمض، وإذا أغمض عينيه بدون سبب ورأىٰ من نفسه أنه يخشع فهذا من وحي الشيطان؛ لأن تغميض العين في الصلاة مكروه، فإنه قيل: إنه فعل المجوس عند عبادتهم النيران.

فتغميض العين فيه تفصيل: إذا كان لأمرٍ حدث فتخشىٰ أن تتبعه بصرك فتنشغل عن صلاتك فهنا غمض العينين، وأما أن تغمض عينيك من أجل الخشوع فهذا خطأ »(١).

١٣- تَكرارُ بعضِ الآياتِ في الصلاة إذا كان منفردًا:

كان العُبَّاد يقفون عند بعض الآيات، ويرددونها مرارًا وتكرارًا؛ تلذُّذًا بترتيل مبناها، وخشوعًا وتفكُّرًا في معناها، واستجلابًا لثواب قراءتها وفهم محتواها، وقد ورد هذا الفعل في الصلاة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعن كثير من الصحابة ومن بعدهم.

(١) المصدر: سلسلة اللقاء الشهري [٤٠].

فمن ذلك:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بآية حتىٰ أصبح يرددها،** والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨] »(١).

وعن القاسم بن محمد قال: « كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطور: ٢٧] **وتدعو وتبكي، وترددها!** فقمت حتىٰ مللتُ القيام فذهبت إلىٰ السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والقاسم هو ابن أخيها محمد بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »(٢).

وعن مسروق قال: « قال لي رجل من أهل مكة: **هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتىٰ أصبح، أو قرب أن يصبح؛ يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي:** ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية: ٢١] الآية كلها »(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٥٠) والنسائي (١٠١٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١١٨).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٩).

(٣) السنن الكبرىٰ - النسائي (١٠/ ٤٠٠) حديث رقم (١١٨٣٣).

وقال رجل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلًا لم يزل البارحة يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١] إلىٰ الصبح، ما قدر أن يجاوزها؛ يعني: نفسه »(١).

وقال إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كثيرًا ما رأيت الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يردد من أول الليل إلىٰ آخره هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١] ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمىٰ مَبْكَاةَ العابدين؛ لأنها محكمة »(٢).

وقال زائدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة، وخرج الناس، ولم يعلم أني في المسجد، وأردت أن أسأله مسألة من حيث لا يراني أحد، قال: فقام فقرأ، وقد افتتح الصلاة، حتىٰ بلغ إلىٰ هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧]، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه، فلم يزل يرددها حتىٰ أَذَّن المؤذن لصلاة الفجر »(٣).

---

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٦٧) رقم (١٢٣٢).

(٢) تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦) [الجاثية: ٢١].

(٣) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٨٨).

وعن بشير مولىٰ الربيع بن خثيم قال: « بِتُّ عند الربيع بن خُثَيم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلَهُ حتىٰ أصبح لم يَعْدُها ببكاءٍ شديدٍ »(١).

وعن يحيىٰ بن عبد الرحمن قال: « سمعت سعيد بن جبير يردد هذه الآية حتىٰ أصبح: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩] »(٢).

وعن القاسم بن أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يردد هذه الآية في الصلاة بضعًا وعشرين مرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١] »(٣).

وقال محمد بن عوف الحِمْصِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيتُ أحمد بن أبي الحواري عندنا بأنطَرْسُوس - بلد من سواحل بحر الشام - فلمَّا صلَّىٰ العَتَمَةَ قام يُصلي؛ فاستفتح بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال: فطُفتُ الحائط كلَّهُ، ثم رجعتُ، فإذا هو لا يجاوزُها ثم نمتُ، ومررت في السَّحَر، وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فلم يزل يُرَدِّدُها إلىٰ الصبح »(٤).

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦) [الجاثية: ٢١].

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٢٥٧).

(٣) الزهد للإمام أحمد (٦١٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٨٨).

وكان الشيخ تقي الدين السُّبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ربما تلا آية واحدة، فكررها إلىٰ مطلع الفجر.

وقد استمع له بعض أصحابه ليلة وهو يقرأ، فوصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فما زال يكررها إلىٰ طلوع الفجر[(١)].

وكان الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا تلا قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦] رددها إلىٰ السحر[(٢)].

وعن نُسير أبي طعمة مولىٰ الربيع بن خثيم، أنّ الربيع بات يتلو آية من القرآن مَرّ عليها ما يتلو غيرها حتىٰ أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١][(٣)].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٩/ ٢١١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ص/ ٧٨).

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد (٨/ ٣٠٧).

مطلب: هل يشرع تكرار الآيات في الفرائض كالنوافل؟

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما تكرار الآية فإن من السنة في النافلة خاصة أن يكرر الإنسان الآية التي يرىٰ أن في تكرارها خشوعـًا في قلبه؛ لأن النبي- صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم – صلىٰ صلاة الليل ومر بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] وجعل يرددها إلىٰ الصباح وهو في صلاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ...أما في الفريضة فإن عند أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

قاعدة: أن ما ثبت في النفل ثبت في الفرض، بناءً علىٰ هذه القاعدة التي دلت عليها أيضـًا السنة نقول: حتىٰ في الفريضة إذا مررت بآية يكون في تكرارها خشوع فكرر؛ لكن يمنعني من هذا أن الواصفين لصلاة النبي –صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- الفريضة لم يكونوا يقولون ذلك عنه، فلهذا نقول: في الفريضة جائز، في النافلة سنة »(١).

١٤- استحضار مناجاة الله عَزَّوَجَلَّ:

عن الْبَيَاضِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج علىٰ الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إن المصلي يناجي ربه عَزَّوَجَلَّ، فلينظر ما يناجِيه، ولا يجهر بعضكم علىٰ بعض بالقرآن**»(٢).

---

(١) سلسلة اللقاء الشهري « اللقاء الشهري [٤٩].

(٢) موطأ مالك (٢١٣) ومسند أحمد (١٩٠٢٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن شماله تحت قدمه**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإنه يناجي ربه**» إشارة إلىٰ إخلاص القلب وحضوره وتفريغه لذكر الله تعالىٰ وتمجيده وتلاوة كتابه وتدبره »(٢).

ومما يدل علىٰ خصوصية مناجاة المصلي لربه: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من صلىٰ صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداجٌ**» - ثلاثًا - غيرُ تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام!! فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قال الله تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قال الله تعالىٰ: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قال الله تعالىٰ: أثنىٰ علي عبدي، وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال:**

---

(١) رواه البخاري (١٢١٤) ومسلم (٥٥١) واللفظ له.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٤١) حديث رقم (٥٥١).

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[1].

قال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ما يقوله الباري تعالىٰ عند قراءة العبد كل آية منها، وأعلمَ العبدَ أنَّ ربَّه يسمع قراءته، وحمده، وثناءه عليه، وتمجيده إياه، ودعاءه ورغبته إليه؛ **حضًّا للعبد علىٰ الخشوع عند قراءة هذه السورة التي تختص بها هذه المعاني التي لا نعلم اجتماعها في سورة من السور** »[2].

وقد رُوي أن الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: « يا موسىٰ! إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعًا مطمئنًا، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل ولسان صادق »[3].

ولقد كان السلف يفقهون هذا المعنىٰ ويعملون به، حتىٰ إنَّ أحدهم لا يأبهُ لِما يجري حولَهُ إذا كان في الصلاة؛ فهذا أبو عبد الله النباجي صَلَّىٰ يومًا بأهلِ طَرَسُوس، فَصِيحَ بالنفير، فلم يخفف الصلاة، فلما فرغوا قالوا: أنت جاسوس، قال: ولم؟ قالوا: صيح بالجهاد وأنت في الصلاة فلم تخفف!

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥) ومالك في الموطأ (٢٢٤).

(٢) المنتقىٰ شرح موطأ مالك (١/ ١٥٨) حديث رقم (٢٢٤).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣).

قال: ما حسبت أن أحدًا يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله عَزَّوَجَلَّ[1].

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أكثر معين علىٰ الخشوع في الصلاة أن يشعر الإنسان إذا وقف يصلي أنه يناجي الله عَزَّوَجَلَّ ويخاطبه، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرد عليه هذه المناجاة، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم أنه قال: قال الله تعالىٰ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين...» الحديث[2]، فإذا شعر الإنسان بهذا الشعور، فلا بد أن يستحضر ما يقوله ويفعله في صلاته؛ لأنه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، الذي يعلم ما في قلبه ويعلم ما توسوس به نفسه »[3].

مطلب: وصية أبي حامد لكل راكع وساجد:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأَحضِرْ قلبك ما أنت فيه، وفرِّغه من الوسواس، وانظُرْ بين يدي من تقوم، ومن تناجي، واستح أن تناجي مولاك بقلبٍ غافل، وصدرٍ مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات. واعلم أنه تعالىٰ مطَّلع علىٰ سريرتك وناظر إلىٰ قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك، واعبده في صلاتك كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢٧٩).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥) ومالك في الموطأ (٢٢٤).

(٣) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [٢٤٦].

فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك لقصور معرفتك بجلال الله تعالىٰ، فقدِّر أن رجلًا صالحًا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك، ثم ارجع إلىٰ نفسك وقل: يا نفس السوء الا تستحين من خالقك ومولاك، إذ قدَّرت اطَّلاع عبدٍ ذليل من عباده عليك، وليس بيده ضرك ولا نفعك، خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك، ولا تخشعين لعظمته، أهو - تعالىٰ - عندك أقل من عباده؟! فما أشد طغيانك وجهلكّ وما أعظم عداوتك لنفسك. وعالج قلبك بهذه الحيل فعسىٰ أن يحضر معك في صلاتك؛ فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت مع الغفلة والسهو فهو إلىٰ الاستغفار والتكفير أحوج »(١).

١٥- العلم بثواب الخشوع في الصلاة:

قال أبو عبد الله البراثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن لم يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه الأعمال في جميع الأحوال »(٢).

ومفهومه: من علم ثواب الأعمال سهُلت عليه في أغلب الأحوال.

وكلما كان الخشوع أكثر كانت الصلاة أتم، وكان الأجر أعظم.

---

(١) بداية الهداية (ص/ ٤٤ـ ٤٥).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٦/ ٨٠).

وتقدم ذكر أدلة ثواب الخاشعين في أول هذا الفصل[١]، ومنها: حديث عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه: «**فإن هو قام فصلىٰ، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه**»[٢].

والشاهد: «**وفرَّغ قلبه لله**» وهذا يدل علىٰ الخشوع، وأَجرُ ذلك مغفرةُ الذنوب.

وحديث عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وفيه: «**ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه. ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة**»[٣].

وحديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**ما من امرئ مسلمٍ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسِنُ وضوءَها وخُشوعَها وركوعَها إلا كانت كفارةً لِما قبلها من الذنوبِ ما لم يُؤتِ كبيرةً**». وذلك الدهرَ كلَّه[٤].

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: « فمن أكبر العون علىٰ الخشوع:

أولاً: أن يعتقد الإنسان أنه واقف بين يدي الله.

---

(١) الفصل الثاني: المبحث الثاني: الترغيب في تحقيق الخشوع (ص/ ١٦).

(٢) رواه مسلم (٨٣٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٤).

(٤) رواه مسلم (٢٢٨).

ثانيًا: أن يعتقد أن الخشوع من كمال الصلاة، وأن الإنسان ربما ينصرف من صلاته، وما كتب له منها إلا نصفها أو ربعها أو عشرها.

ثالثًا: أن يعتقد كثرة الثواب بالخشوع، فهذه من الأسباب أن الإنسان يستحضر ذلك، ولهذا قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافع الأخبثان**»[1]، لماذا؟ لأن قلبه مشغول »[2].

١٦- التذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]: « أي: والذين هم في صلاتهم متذلِّلون لله بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته، وإذا تذلَّل لله فيها العبدُ رُؤيت ذِلَّتُهُ خضوعه في سكون أطرافه وشغله بفرضه وتركه ما أُمر بتركه فيها »[3].

فالتذلل لله في القيام والركوع والسجود في الصلاة من الأسباب التي تدفع المسلم إلىٰ الخشوع والاستكانة والخضوع لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلىٰ درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر.

وأشد حالات القرب من الله عند المسلم هي حالة السجود، ففيه يستحضر القلب معنىٰ القرب من خالق الخلق، وحين ينتاب المسلم في صلاته وسجوده

---

(١) رواه مسلم (٥٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

(٢) سلسلة لقاءات الباب المفتوح» لقاء الباب المفتوح [٣٧].

(٣) تفسير الطبري - جامع البيان (١٩/ ٩) [المؤمنون: ٢].

هذا الشعور يخضع ويخشع، والسجود أقرب وقت وأقرب موضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات؛ قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: اسجد أنت يا محمد مصلياً، واقترب أنت يا أبا جهل من النار، قاله زيد بن أسلم. **الثاني**: اسجد أنت يا محمد في صلاتك لتقرب من ربك، فإن أقرب ما يكون العبد إلىٰ الله تعالىٰ إذا سجد له »(١).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أي: لِربِّك، ﴿وَٱقْتَرِب﴾ ليه بسجودك وبالطاعة والأعمال الصالحة »(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أي: صل لله ﴿وَٱقْتَرِب﴾ أي: تقرب إلىٰ الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة، وقيل: المعنىٰ: إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، روىٰ عطاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جبهته في الأرض ساجدًا لله**».

---

(١) تفسير الماوردي - النكت والعيون (٦/ ٣٠٩) [العلق: ١٩].

(٢) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٠٣) [العلق: ١٩].

قال علماؤنا: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها، فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره.

ولقد أحسن من قال:

وَإِذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَوَاضُعًا مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا »[١]

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. فأكثروا الدعاء»[٢].

قال ابن الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يعني: أقرب حالات العبد من ربه حال كونه ساجدًا، وهذا لأن حالة السجود تدل علىٰ غاية تذلل واعتراف بعبودية نفسه وربوبية ربه، فكان مظنة الإجابة، فأمر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإكثار الدعاء بقوله: "فأكثروا" فيه "الدعاء" »[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « المخبِتُ: المطمئنُّ، فإنَّ الخَبْت من الأرض: ما تطامَن فاستنقع فيه الماء. فكذلك القلبُ المخبِتُ قد خشع وتطامَنَ، كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماءُ، فيستقرُّ فيها. وعلامته أن يسجدَ بين يدي ربه إجلالًا له وذلًّا وانكسارًا بين يديه سجدةً لا يرفع رأسَه منها

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٢٩) [العلق: ١٩].

(٢) رواه مسلم (٤٨٢).

(٣) شرح المصابيح لابن الملك (٢/ ١٦).

حتىٰ يلقاه »[١]. فالتذلل في الصلاة واستحضار القُرْب من الله في السجود سبب موصل إلىٰ خشوع العبد لربه وخالقه.

١٧- إزالة ما يشغل عن الخشوع في الصلاة:

جاءت الأحاديث الكثيرة التي ترشد المصلي إلىٰ أن يزيل ما يشغله عن الخشوع في صلاته؛ حتىٰ تِتِمَّ للعبد الصلاةُ وينالَ أجرَ الخاشعين، فمن ذلك: **أن يزيل التصاوير والنقوش التي تشغله عن الخشوع في الصلاة، وأنْ لا يلبس ثيابًا فيها زينة، أو فيها ألوان، أو تكون ضيِّقة أو واسعة أكثر من الحاجة،** أو نحو ذلك مما يجعله منشغلًا بها في صلاته، **وأن يقضي حاجته قبل الدخول في الصلاة، وأن لا يصلي بحضرة الطعام وهو جائع، وأنْ لا يصلي في مكان فيه أصوات تشغله عن الخشوع في الصلاة،** ونحو ذلك مما ينبغي للمصلي إزالته قبل الدخول في الصلاة أو فيها.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكل ما يشغل القلب لا تُصلِّ مع وجوده، حتىٰ لو فرض أن حولك أناسًا، وضجيجًا؛ كلامٌ يشغلك عن الصلاة، فلا تصل، وأخر الصلاة حتىٰ يزول هذا الضجيج، أو اذهب إلىٰ مكان آخر ليس فيه ضجيج، وذلك أن المقصود من الصلاة، وأن لب الصلاة وروح الصلاة هو: الطمأنينة، والخشوع، وحضور القلب، وليست الصلاة مجرد حركات يقوم بها

---

(١) كتاب الروح لابن القيم (٢/ ٦٥٦).

الإنسان؛ قيامـًا، وركوعـًا، وسجوداً، وقعوداً، أهم شيء أن يكون القلب مصليـًا قبل أن يكون البدن مصليـًا؛ ولهذا نهي عن الصلاة بحضرة الطعام، وعن الصلاة مع مدافعة الأخبثين، وكذلك كل ما يشغل الإنسان، لا يُصلِّ في حال اشتغاله »(١).

حتىٰ إن الفقهاء يعذرون أصحاب الشواغل في ترك الجماعة والجمعة حتىٰ يتخلص من تلك الشواغل؛ فقد ذكر الحجَّاوي في (**زاد المستقنع**) الذي يُعذر في ترك جمعة وجماعة؛ فقال: ويُعذَرُ في تركِ جُمُعَةٍ وجماعة: مريضٌ، ومدافعُ أحدِ الأخبثين، ومن بحَضْرةِ طعامٍ محتاجٍ إليه. وهذا يدل علىٰ أهمية إزالة الشواغل.

وتفاصيل هذه الشواغل وأدلتها ستأتي في (موانع الخشوع) إن شاء الله.

١٨- سكون الجوارح في الصلاة:

عن جابر بن سمرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس!! اسكنوا في الصلاة**»(٢).

والشاهد: الأمر بالسكون في الصلاة.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس**» هو بإسكان الميم وضمها، وهي التي لا تستقر بل

(١) سلسلة لقاءات الباب المفتوح «لقاء الباب المفتوح» [٦٣].

(٢) رواه مسلم (٤٣٠).

تضطرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها، والمراد بالرفع المنهي عنه هنا: رفعهم أيديهم عند السلام مشيرين إلىٰ السلام من الجانبين كما صرح به في الرواية الثانية »(١).

وقال عطاء ابن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع: هو أنْ لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة »(٢).

وقال عمرو بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هو السكون وحسن الهيئة »(٣).

وقال طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما رأيت مصليًا مثل ابن عمر، أشدَّ استقبالًا للقبلة بوجهه وكفيه وقدميه »(٤).

وقال غيلان بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان مسلم بن يسار إذا صلىٰ كأنه ثوب مُلْقًىٰ، من قِلَّةِ الْتِفَاتِهِ »(٥).

وقال أحمد بن سنان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيتُ وكيعًا إذا قام إلىٰ الصلاة ليس يتحرك منه شيءٌ، لا يزول، ولا يميل علىٰ رِجْل دون الأخرىٰ »(٦).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ١٥٣) حديث رقم (٤٣٠).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٨) [المؤمنون: ٢].

(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٥٢١).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٣٠٤).

(٥) الزهد لأبي حاتم (ص٦٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٥٧).

ورأىٰ سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا يعبث بلحيته في صلاته فقال: « لو خشع قلبُ هذا لخشعَتْ جوارحُه »(١).

وقال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلىٰ الصلاة؛ هاب الرحمن عَزَّوَجَلَّ أن يشذ نظره، أو يلتفت، أو يقلب الحصىٰ، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيًا ما دام في الصلاة »(٢).

١٩- اتخاذ السترة:

عن سهل بن أبي حثمة، يبلغ به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إِذا صلىٰ أحدُكم إلىٰ سُترةٍ فليدْنُ منها، لا يقطعِ الشيطانُ عليه صلاتَه**»(٣).

قال الشيخ علي القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واستفيد منه أن السترة تمنع استيلاء الشيطان علىٰ المصلي، وتمكنه من قلبه بالوسوسة إما كُلًا أو بعضًا، بحسب صدق المصلي وإقباله في صلاته علىٰ الله تعالىٰ، وأن عُدْمَها يُمكِّنُ الشيطانَ من إزلاله عما هو بصدده من الخشوع والخضوع، وتدبره القراءة والذكر ».

ثم قال: « قلت: فانظر إلىٰ متابعة السنة، وما يترتب عليها من الفوائد الجمة »(٤).

---

(١) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد (١١٨٨). وقد رُوي مرفوعًا، ولم يصح.

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٢٨٢).

(٣) رواه أبو داود (٦٩٥) والنسائي (٧٤٨). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٦٩٥).

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦٤٦).

٢٠- الاستعاذة بالله من الشيطان قبل القراءة:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: « فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن تَدَبُّرِهِ والعمل بما فيه، وليس يريد استعذ بعد القراءة، بل هو كقولك: إذا أكلت فقل: بسم الله، أي: إذا أردت أن تأكل »[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﵁، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جَدُّك، ولا إله غيرُك». ثم يقول: «لا إله إلا الله». ثلاثًا. ثم يقول: «الله أكبرُ كبيرًا» ثلاثًا، «أعوذ بالله السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيم، من همزِهِ ونفخِه ونفثِهِ». ثم يقرأُ[٢].

قال المباركفوري ﵀: « قوله: «من همزه» بدل اشتمال أي: وسوسته.

«ونفخه» أي: كبره المؤدي إلىٰ كفره.

«ونفثه» أي: سحره »[٣].

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٤) [النحل ٩٨].

(٢) رواه أبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٥).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٢/ ٤٣) حديث رقم (٢٤٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان يتعوذ من الشيطان، من همزه ونفثه ونفخه. قال: « وهمزُه: المُوتةُ، ونفثُه: الشِّعرُ، ونفخهُ: الكبرياءُ- المُوتَة: شبه الجنون »(١).

٢١- التَّرسُّل في قراءة القرآن في الصلاة:

قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: علىٰ ترسُّل في التلاوة وترتيل، قاله مجاهد، وابن عباس، وابن جريج. فيعطي القارئ القراءة حقها مِنْ ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن، من غير تلحين ولا تطريبٍ مؤدٍّ إلىٰ تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام »(٢).

وعن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: « ما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلىٰ في سبحته قاعدًا حتىٰ كان قبلَ وفاته بعام، فكان يصلي في سبحته قاعدًا، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ، فَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا »(٣). قوله: **"حتىٰ تكون"** أي: السورة بواسطة الترتيل.

---

(١) رواه أحمد (٣٨٢٨) وابن ماجه (٨٠٨) وحسنه ابن حجر كما في نتائج الأفكار (١/ ٤١٥) وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٣٨٢٨).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٣٩) [الإسراء ١٠٦].

(٣) رواه مسلم (٧٣٣).

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « سُئِلَ أنسٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف كانت قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

فقال: كانت مَدًّا، ثم قرأ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم »(١).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **"كان يمدُّ مدًّا"** المراد أنه كان يمدّ ما كان في كلامه من حروف المد واللين بالقدر المعروف وبالشرط المعلوم عند أرباب الوقوف»(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « المطلوب شرعًا؛ إنَّما هو التَّحسين بالصَّوت، الباعث علىٰ تدبُّر القرآن وتفهُّمه، والخشوع والخضوع، والانقياد للطَّاعة »(٣).

٢٢- الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في الصلاة والخشوع:

الإخلاص في الصلاة وفي جميع العبادات سبب لتحصيل كل خير يُرجىٰ من الأعمال الصالحة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٦).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣٨) حديث رقم (١٤٦٥).

(٣) مقدمة التفسير، فضائل القرآن (ص/ ١٩٥).

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أي: أخلصُه وأصوبُه ». وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « العمل لا يُقبل حتىٰ يكونَ خالصًا صوابًا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان علىٰ السنة »(١).

٢٣- الحرص على العمل بالسنة في أداء الصلاة وغيرها:

فمن تابع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله فقد سلك سبيل المهتدين، ويرجىٰ له التوفيق إلىٰ تحقيق الخشوع والفوز بالأجر في الصلاة وفي غيرها؛ لأن طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سبب للهداية إلىٰ كل خير، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾: « أي: وإن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه؛ تهتدوا إلىٰ الحق وترشدوا إلىٰ الخير وتفوزوا بالأجر »(٢).

وطاعة الرسول سبب لنيل رحمة الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

---

(١) تفسير البغوي (٥/ ١٢٤) [الملك: ٢].

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٥) [النور: ٥٤].

٢٤- التأمل في أحوال السلف مع الصلاة:

وهذا سبب مهم ونافع في تحقيق عبادة الخشوع وغيرها من العبادات؛ فكما أنَّ النظر في أمور الدنيا إلىٰ الأدنىٰ سببٌ للرضا بما أُعطي الشخص؛ فكذلك النظر في أمور الدين إلىٰ من هو أعلىٰ وأفضل سبب لشحذ الهمم وتقوية العزائم، وفيه تنبيه للشخص علىٰ مدىٰ تقصيره مقارنة بالسابقين.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر في نفسه فلم يتكبر، ومن عرف الله لم يراء، ومن لاحظ جريان أقداره علىٰ مقتضىٰ إرادته لم يحسد »[(١)].

وقال حمدون القصّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من نظر في سير السّلف عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال »[(٢)].

ولأجل هذا المقصد أوردت فيما يلي بعض النماذج من خشوع السلف في صلاتهم، وأسأل الله أن يرزقنا الاهتداء وحسن الاقتداء.

(١) تلبيس إبليس (ص/ ١١٦).

(٢) الاعتصام للشاطبي (ص/ ٨٦).

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف في صلاتهم

إن سيد الخاشعين هو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الذي قال الله لنا في اتباعه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

والخاشعون بعده صحابته الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، الذين قال الله لنا في اتباعهم: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] فمن اقتدىٰ برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في أمور دينه؛ فإنه يجاهد نفسه علىٰ الخشوع في صلاته، وقبل ذلك عملًا بالقرآن الكريم الذي دعا إلىٰ الخشوع في الصلاة.

وهناك نماذج كثيرة من خشوع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاته، وكذلك خشوع أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وخشوع التابعين وأتباعهم بإحسان رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعًا. وفيما يلي ذِكرٌ لنماذجَ يسيرةٍ من خشوعهم في صلاتهم لتكون ذكرىٰ؛ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] وأسأل الله أن يرزقنا الاهتداء وحسن الاقتداء.

المطلب الأول: نماذج من خشوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاته:

عن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرجَل**(١)، يعني: يبكي »(٢).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: « في الحديث دليل علىٰ أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا، وقد قيل: إن كان البكاء من خشية الله لم يبطل، وهذا الحديث يدل عليه »(٣).

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « ما كان فينا فارسٌ يومَ بدر غيرُ المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا قائم إلا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **تحت شجرة يصلي، ويبكي حتىٰ أصبح**»(٤).

وبوَّب له ابنُ حبان في صحيحه: (**ذكرُ إباحةِ بكاء المرء في صلاته إذا لم يكن ذلك لأسباب الدنيا**).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: « كسفت الشمس علىٰ عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأطال القيام،

---

(١) **أزيز**: هو صوت البكاء. قيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء. **والمِرجَل**: بكسر الميم إناء، يغلىٰ فيه الماء. كما في حاشية السندي علىٰ النسائي (١٢١٤).

(٢) رواه النسائي (١٢١٤) وأبو داود (٩٠٤) وأحمد (١٦٣١٢) وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٢١٣).

(٣) نيل الأوطار (٢/ ٣٧٥).

(٤) رواه ابنُ حبان في صحيحه (٢٢٥٧) وأحمد (١٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٤٥).

ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال - قال شعبة: وأحسبه قال في السجود نحو ذلك - وجعل يبكي في سجوده، وينفخ ويقول: «رب لم تعدني هذا وأنا أستغفرك، لم تعدني هذا وأنا فيهم». فلما صلىٰ قال: «عُرِضَت عليَّ الجنة، حتىٰ لو مددت يدي تناولت من قطوفها، وعرضت عليَّ النار، فجعلت أنفخ خشية أن يغشاكم حرُّها، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ورأيت فيها أخا بني دعدع سارق الحجيج، فإذا فطن له قال: هذا عمل المحجن، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء تعذب في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتىٰ ماتت، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا انكسفت إحداهما - أو قال: فعل أحدهما شيئًا من ذلك - فاسعوا إلىٰ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

وعن عطاءٍ قال: « دخلت أنا وعبيدُ بنُ عمير علىٰ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا؟ فقال: أقول: يا أمه، كما قال الأول: زُرْ غِبًّا تزدَدْ حُبًّا. قال فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال بن عمير: أخبرينا بأعجبِ شيء رأيتِهِ من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال «يا عائشةُ ذريني أتعبَّدُ اللَّيلةَ لربِّي» قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرَّك.

---

(١) رواه النسائي (١٤٩٦) وأحمد (٦٤٨٣). وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٤٩٥).

قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتىٰ **بلَّ حِجرَهُ**، قالت: ثم بكىٰ، فلم يزل يبكي حتىٰ بلَّ لحيتَه، قالت: ثم بكىٰ فلم يزل يبكي حتىٰ بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لِمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]» [١].

المطلب الثاني: نماذج من خشوع أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصلاة:

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: لمَّا مرض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فَأُذِّنَ، فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[٢].

وفي لفظ: قلت: إن أبا بكر رجل أسيف؛ إن يقم مقامك يبكي، فلا يقدر علىٰ القراءة.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٦٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤) ومسلم (٤١٨). (أسيف) أي: سريع البكاء والحزن. وقيل: هو الرقيق.

وفي لفظ: قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك، لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس.

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، زوج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قالت: « لم أعقل أبويَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرَّ علينا يومٌ إلا يأتينا فيه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ طَرَفي النهار، بكرةً وعشيةً، فلما ابتُلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتىٰ إذا بلغ بَرْكَ الْغِمَادِ لقيه ابن الدَّغِنَةِ، وهو سيد الْقَارَةِ، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيحَ في الأرض، وأعبدَ ربي.

قال ابنُ الدَّغِنَةِ: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرَج، إنك تكسِب المعدومَ، وتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَقري الضيفَ، وتُعين علىٰ نوائب الحق، فأنا لك جارٌ، ارجع، واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل معه ابن الدَّغِنَةِ، فطاف ابن الدَّغِنَةِ عشيةً في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ، وَلَا يُخْرَجُ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين علىٰ نوائب الحق؟

فلم تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يُؤْذِينَا بذلك ولا يستعلنْ به، فإنا نخشىٰ أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بِفِنَاءِ داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذفُ عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بَكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلىٰ ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، علىٰ أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنىٰ مسجدا بفِناءِ داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانْهَهُ، فإن أحب أن يقتصر علىٰ أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبىٰ إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يردَّ إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخفرَك، ولسنا مُقِرِّينَ لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتىٰ ابن الدغنة إلىٰ أبي بكر فقال: قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر علىٰ ذلك، وإما أن تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضىٰ بجوار الله عَزَّوَجَلَّ، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يومئذ بمكة، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمسلمين: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ» وهما الحرَّتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامّةُ من كان هاجر بأرض الحبشة إلىٰ المدينة، وتجهَّز أبو بكر قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «عَلَىٰ رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي».

فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحَبَسَ أبو بكر نفسه علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصحبَه، وعلَفَ راحلتين كانتا عنده ورق السمر، وهو الخبَطُ، أربعةَ أشهر »(١).

المطلب الثالث: نماذج من خشوع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صلاته:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: « رأيتُ عمر بن الخطاب البكَّاء، وهو يصلي، حتىٰ سمعت خنينه، من وراء ثلاثة صفوف »(٢).

وعن علقمة بن وقاص قال: « صليت خلف عمر بن الخطاب، فقرأ سورة يوسف، فكان إذا أتىٰ علىٰ ذكر يوسف، سمعتُ نشيجه من وراء الصفوف »(٣).

وعن عبد الله بن شداد، قال: « سمعت نشيج عمر، وإني لفي الصف خلفه في صلاة، وهو يقرأ سورة يوسف حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: ٨٦] »(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٤١٦).

(٣) المصدر السابق (٤١٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٢٧١٦). النشيج: صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره. - النهاية، مادة: نشج). والبث: أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه، حتىٰ يبثه. غريب السجستاني (ص/ ١٢٣).

وذُكِر عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه صلَّىٰ بالجماعة صلاة الصبح، فقرأ سورة يوسف، فبكىٰ حتىٰ سالت دموعه علىٰ ترقوته، وفي رواية: أنه كان في صلاة العشاء.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « فيدل علىٰ تكريره منه، وفي رواية: أنه بكىٰ حتىٰ سُمِعَ بكاؤه من وراء الصفوف »(١).

وعن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [الطور: ٧]، قال: فربا منها ربوة عِيدَ منها عشرين يومًا »(٢).

وقال عبيد بن عمير رَحِمَهُٱللَّهُ: « صلىٰ بنا عمر صلاة الفجر فقرأ سورة يوسف حتىٰ إذا بلغ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤﴾ [يوسف: ٨٤]، بكىٰ حتىٰ انقطع فركع »(٣).

المطلب الرابع: نماذج من خشوع عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في صلاته:

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩]، قال: « هو عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ »(٤).

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ص: ٩٦).

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص/ ١٣٧).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٨١).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٣٨١).

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، في قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: ٧٦]، قال: « هو عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ »(١).

وعن محمد بن سيرين رَحِمَهُٱللَّهُ قال: « قالت امرأة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن »(٢).

وعن سليمان بن يسار رَحِمَهُٱللَّهُ، أن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قام بعد العشاء فقرأ القرآن كله في ركعة، لم يصل قبلها ولا بعدها(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: « وقراءة القرآن في ركعة ثابت عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ »(٤).

وعن السائب بن يزيد رَحِمَهُٱللَّهُ، أن رجلًا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي رَحِمَهُٱللَّهُ، عن صلاة طلحة بن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ قال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ قال: نعم. قال: قلت لأغلبن الليلة النفر علىٰ الحِجر - يعني المقام - فلما قمت إذا رجل يزحمني مقنعًا، قال: فالتفت فإذا بعثمان

(١) المصنف - ابن أبي شيبة (١٨/ ٤٣) حديث رقم (٣٤٢٠٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٨٧) رقم (١٣٠).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٤٥٢) رقم (١٢٧٥).

(٤) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٢).

فتأخرت عنه، فصلىٰ فإذا هو يسجد سجود القرآن حتىٰ إذا قلت: هذا هو أذان الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها، ثم انطلق.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد رُوي هذا من غير وجه أنه صلىٰ بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج. وقد كان هذا من دأبه، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ »[١].

وقال حسان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به … يقطع الليل تسبيحًا وقرآنًا[٢]

ويقول القحطاني في نونيته عن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

من كان يسهر ليلة في ركعة … وترًا فيكمل ختمة القران

وهذا يدل علىٰ خشوعه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن الصلاة ثقيلة إلا علىٰ الخاشعين؛ ولهذا كان يحدِّث بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلىٰ ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

والشاهد من الحديث: «لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يحدث فيهما نفسه»، فالمراد لا يحدِّث بشيء من أمور الدنيا وما لا يتعلق بالصلاة، ولو عرض له

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٨١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

حديث فأعرض عنه بمجرد عروضه عفي عن ذلك، وحصلت له هذه الفضيلة - إن شاء الله تعالىٰ -؛ لأن هذا ليس من فعله، وقد عفي لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولا تستقر »(١).

المطلب الخامس: من خشوع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاته:

كان عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أذَّن المؤذن وحضر وقت الصلاة تزلزل وتلوّن، فقيل له: ما لك؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله علىٰ السماوات والأرض فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان (٢).

المطلب السادس: من خشوع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصلاة:

عن القاسم بن محمد قال: « كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأُسَلِّمُ عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي، وترددها! فقمت حتىٰ مللتُ القيام فذهبت إلىٰ السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ».

والقاسم هو ابن أخيها محمد بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٣).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٣/ ١٠٨) حديث رقم (٢٢٦).

(٢) شرح سنن أبي داود لابن رسلان (١٩/ ١٢٣).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٩).

وعن مسروق، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أنها مرت بهذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧] فقالت: « اللهم من علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم ». فقيل للأعمش: « في الصلاة؟ فقال: في الصلاة »(١).

المطلب السابع: من خشوع الصحابة في صلاة القيام:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « خرجنا مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعني في غزوة ذات الرقاع-، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أنْ لا أنتهي حتىٰ أُهريق دمًا في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا؟». فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «كُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ». قال: فلما خرج الرجلان إلىٰ فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتىٰ الرجل، فلما رأىٰ شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه، حتىٰ رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نَذِرُوا به هرب، فلما رأىٰ المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله ألا أَنبهتَنِي أوَّلَ ما رَمَىٰ؟ قال: كنت في سورة أقرَؤُها فلم أُحِبَّ أن أَقْطَعَها »(٢).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥) رقم (٦٠٣٦). وشُعب الإيمان للبيهقي (٣٠٩٢).

(٢) رواه أبو داود (١٩٨) وأحمد (١٤٨٦٥) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٨) وشعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (١٤٧٠٤).

وعند أحمد زيادة: فقال له أخوه المهاجري: « يغفر الله لك، ألا كنت آذنتني أول ما رماك؟ قال: فقال: كنت في سورة من القرآن قد افتتحتها أصلي بها، فكرهت أن أقطعها، وَايْمُ اللهِ، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، لَقَطَعَ نَفْسِي قبل أن أقطعها »(١).

المطلب الثامن: نماذج من خشوع عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صلاته:

عن عمرو بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يصلي في الحِجْر، والمنجنيق يصُبُّ تُوبَهُ، فما يلتفت، يعني لمَّا حاصروه - التُّوب: حَجَرُ المنجنيق »(٢).

وعن عمر بن قيس، عن أمه: « أنها دخلت علىٰ ابن الزبير بيته، فإذا هو يصلي، فسقطت حيَّةٌ علىٰ ابنه هاشم، فصاحوا: الحية، الحية! ثم رموها، فما قطع صلاته »(٣).

وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إذا قام إلىٰ الصلاة كأنه عود، وحدَّث أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان كذلك »(٤).

---

(١) المسند (١٤٨٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٩).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٤٣٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٨).

عن يحيىٰ بن وثاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن ابن الزبير كان يسجد حتىٰ تنزل العصافير علىٰ ظهره، ولا تَحْسبُه إلا جِذْمَ حائط [1].

وقال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كنت أمرُّ بابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو خلف المقام يصلي كأنه خشبة منصوبةٌ لا تتحرك »[2].

المطلب التاسع: من خشوع عروة بن الزبير في الصلاة:

سافر عروة من المدينة إلىٰ دمشق، وفي الطريق بوادي القرىٰ أصيبتْ رجلُه بأَكَلَةٍ، ولم يَكَد يَصِل دمشق حتىٰ كانت نصفُ ساقه قد تلِفتْ، فدخل علىٰ الخليفة الوليد بن عبد الملك، فبادر الوليد باستدعاء الأطبَّاء العارفين بالأمراض وطرق علاجها.

فأجمعوا علىٰ أن العلاج الوحيد هو قطعها قبل أن يَسريَ المرض إلىٰ الرِّجل كلِّها حتىٰ الوَرِك، وربما أكلتِ الجسمَ كله، فوافق عروةُ بعد لأْيٍ علىٰ أن تُنْشَر رِجله، وعرض عليه الأطباء إسقاءه مُرْقِدًا حتىٰ يغيب عن وعيه، فلا يشعر بالألم، فرفض عروة ذلك بشدة قائلًا: لا والله، ما كنت أظن أحدًا يشرب شرابًا، أو يأكل شيئًا يُذهِب عقلَه، ولكن إن كنتم لا بُدَّ فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة؛ فإني لا أحس بذلك ولا أشعر به!

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل (ص/ ١٦٤) رقم (١١١٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٩).

فقطعوا رجله من فوق الأكلة من المكان الحي؛ احتياطًا أنْ لا يبقىٰ منها شيء، وهو قائم يصلي، فما تضوَّر ولا اختلج[١].

المطلب العاشر: من خشوع أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصلاة:

قال يزيد بن الكميت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الخوف من الله تعالىٰ، فقرأ بنا عليٌّ بن الحسن ليلةً في العشاء الآخرة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]، وأبو حنيفة خلفه، فلما قضىٰ الصلاة، وخرج الناس، نظرت إليه وهو جالس يتفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل بي، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيتٌ قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم يصلي، وقد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا مَن يجزي بمثقال ذرةٍ خيرًا خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرةٍ شرًّا شرًّا، أجِرِ النعمانَ عبدَك من النار ومما يقرب منها من سوء وأدخله في سعة رحمتك.

قال: فأذَّنتُ والقنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت قال: تريد أن تأخذ القنديل؟

قلت: قد أُذِّنَ لصلاة الغداة. قال اكتم عليَّ ما رأيت. وركع ركعتين، ثم جلس حتىٰ أقيمت الصلاة، وصلىٰ معنا الغداة علىٰ وضوء أول الليل »[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٠١) و (وفيات الأعيان) لابن خلكان (٢/ ٤١٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩٨).

وقد ردد أبو حنيفة ليلةً كاملة قوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦] »(١).

المطلب الحادي عشر: نماذج من خشوع عمر بن عبد العزيز في صلاته:

عن مقاتل بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] فجعل يكررها، لا يستطيع أن يجاوزها »(٢).

وعن محمد بن أبي الحارث الثقفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « رأيتُ عمر بن عبد العزيز رفع رأسه من السجود، فقعد بين السجدتين مقدار عشرين آية، ثم سجد، فلما رفع رأسه، نظرتُ إلىٰ الدموع سائلة علىٰ خدَّيْه، قال أبو عمرو: قلت لمحمد: أفي التطوع كان ذلك؟ قال: نعم بمكة »(٣).

وعن علي بن شبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حدثنا أصحابنا الحجيون قالوا: لما رفع عمر بن عبد العزيز رأسه من السجود خلف المقام، نظروا إلىٰ موضع سجوده مبتلًا من دموع عينيه »(٤).

---

(١) الأخبار العليات (٢/ ١١٩٣).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم (٤٢٦)، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي [ص/ ١٥٧].

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ٢٤٥).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص/ ١٥٨).

المطلب الثاني عشر: من خشوع التابعي سليمان بن طرخان التيمي في صلاته:

عن معتمر بن سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « صلىٰ بنا أَبي[١]، فقرأ سورة [ق] في صلاة الفجر، فلما انتهىٰ إلىٰ هذه الآية ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، غلبته عَبْرَتُه، فلم يستطع أن يجوز، فركع »[٢].

المطلب الثالث عشر: من خشوع محمد بن إسماعيل البخاري في الصلاة:

عن بكر بن منير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان محمد بن إسماعيل البخاري يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضىٰ الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني! »[٣].

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « دُعي محمد بن إسماعيل إلىٰ بستان بعض أصحابه، فلما حضرت صلاة الظهر صلىٰ بالقوم، ثم قام للتطوع، فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه.

فقال لبعض من معه: انظر هل ترىٰ تحت قميصي شيئًا؟ فإذا زنبورٌ قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا، وقد تورَّم من ذلك جسده، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة.

---

(١) يعني سليمان بن طرخان التيمي (ت ١٤٣هـ)، وهو تابعي ثقة، روىٰ له الجماعة. كما في تهذيب الكمال (١٢/ ٥).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٨٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤١).

فقال له بعضهم: كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبرك؟ فقال: كنت في سورة فأحببتُ أن أتمها »[1].

المطلب الرابع عشر: من خشوع محمد بن نصر المروزي في الصلاة:

قال محمد بن يعقوب بن الأخرم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما رأيت أحسن صلاة من محمد بن نصر، كان الذباب يقع علىٰ أذنه فيسيل الدم ولا يذبُّه عن نفسه، ولقد كنا نتعجب من حسن صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة! كان يضع ذقنه علىٰ صدره، فينتصب كأنه خشبة منصوبة »[2].

وقال أبو بكر الصبغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أدركتُ إمامين لم أرزق السماع منهما: أبو حاتم الرازي، ومحمد بن نصر المروزي، فأما ابنُ نصر فما رأيتُ أحسن صلاةً منه، لقد بلغني أن زنبورًا قعد علىٰ جبهته فسال الدم ولم يتحرك! »[3].

المطلب الخامس عشر: نماذج من خشوع الفضيل بن عياض في الصلاة:

عن محمد بن نَاجِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: صليت خلف الفضيل، فقرأ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ [الحاقة:١] في الصبح، فلما بلغ إلىٰ قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ [الحاقة:٣٠]، غلبه البكاء، فسقط ابنه عليٌّ مغشيًا عليه، وذكر الحكاية.

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٣١).

(٢) شعب الإيمان (٣/ ١٥٢) رقم (٣١٧٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦).

ثم قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهل يراد من العلم إلا ما انتهىٰ إليه الفضيل رحمة الله عليه؟ »[1]، وهذا كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « ليس العلمُ بكثرة الرواية، **إنما العلمُ الخشية** »[2].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « **كفىٰ بخشية الله علمًا**، وكفىٰ بالاغترار به جهلًا »[3].

وقال مجاهد والشعبي: « **إنما العالم من يخشىٰ الله** »[4].

وعن قادم الديلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]، قال: « أخذ فضيل بن عياض بيدي فقال لي: ابك علىٰ فضيل أيام الدنيا، فإني رأيت منك ودًّا، رفع رأسه مرة من سجوده في مسجد الكوفة، فإذا الحصىٰ مبتلٌّ، قال: ثم بكىٰ للرحيل حتىٰ رحمته »[6].

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « ما رأيت أحداً أخْوف من الفضيل وابنه »[7].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٨).

(٢) أخرجه بن حبان في روضة العقلاء رقم (٦٩) صـ (٦١).

(٣) المصنف - ابن أبي شيبة (١٩/ ٣٣١).

(٤) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤٣٧) [سورة فاطر: ٢٨].

(٥) صحب الفضيل بن عياض وأقرانه، وسلك مسلكه في الخضوع والخشوع. حلية الأولياء (١٠/ ١٣١).

(٦) الرقة والبكاء (١٣٥).

(٧) صفة الصفوة (١/ ٤٣٣).

المطلب السادس عشر: نماذج من خشوع علي بن الفضيل بن عياض في الصلاة:

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكان عليٌّ قانتًا لله، خاشعًا، وجلًا، ربانيًا، كبير الشأن »(١).

وعن براهيم بن بشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « الآية التي مات فيها عليٌّ بن الفضيل في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنت فيمن صلىٰ عليه »(٢).

وقال الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « مات قبل أبيه بمدة من آية سمعها تقرأ، فغشي عليه، وتوفي في الحال »(٣).

وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « صليت خلف فضيل بن عياض المغرب، وابنه عليٌّ إلىٰ جانبي، فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فلما قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ سقط عليٌّ علىٰ وجهه مغشيًّا عليه، وبقي فضيل عند الآية، فقلت في نفسي: ويحك أما عندك من الخوف ما عند الفضيل وعلي؟ فلم أزل أنتظر عليًّا، فما أفاق إلىٰ ثلث من الليل بقي ».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٣).

(٢) تاريخ بغداد (٥/ ٤٥٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٣).

رواها: ابن أبي الدنيا، عن عبد الرحمن بن عفان، وزاد: وبقي فضيل لا يجاوز الآية، ثم صلىٰ بنا صلاة خائف، وقال: فما أفاق إلىٰ نصف من الليل(١).

وعن فضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بكىٰ ابني علي، فقلت: يا علي ما يبكيك؟ قال: يا أبه! أخاف ألاّ تجمعنا القيامة »(٢).

وعن محمد بن الحسن قال: « كان علي بن الفضيل يصلّي حتىٰ يزحف إلىٰ فراشه ثم يلتفت إلىٰ أبيه فيقول: يا أبه! سبَقني العابدون »(٣).

المطلب السابع عشر: نماذج من خشوع السلف عند النداء بالصلاة وماذا يتذكرون:

عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « إذا أذَّن المؤذِّن لم تبعد دابَّةُ بَرٍّ ولا بحر إلا أصغت واستمعت، قال: ثم بكىٰ الحسن بكاء شديداً »(٤).

وعن قادم الديلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كنا عند فضيل بن عياض وهو في المسجد، فأذَّن المؤذن، فبكىٰ حتىٰ بلَّ الحصىٰ، ثم قال: أُشَبِّهُهُ بالنداء. ثم بكىٰ »(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٣٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٤٢).

(٥) المصدر السابق (١٤٧).

وعن الحارث بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان أبو عمران الجوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سمع الأذان، تغيَّر لونه، وفاضت عيناه »(١).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان منصور بن صَفيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبكي في وقت كل صلاة، فكانوا يرون أنه يذكُر الموتَ والقيامة عند الصلوات »(٢).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان أبو خالد المؤذن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أذَّن بكىٰ، وربما صرخ الصرخة في إثر الأذان، فقال له بعض أولياء الأمر: ما الذي يغشاك عند النداء؟ فبكىٰ ثم قال: **إنني لأشبهه بالقيامة**. ثم غُشي عليه، قال سفيان: وسمعته يقول: لولا ما أؤمل من الفَرج والراحة بعد الأذان، لظننت أن نفسي ستخرج فَرَقًا من الموت! قال سفيان: وذكروا عنه أنه كان يقول إذا فرغ من أذانه: انقطعت الرغائب دونك، وكلَّت الألسن إلا عن ذكرك، وذهلت عقول أوليائك عن غيرك شوقًا واشتياقًا، فأعطِ القوم إلهي أمنيتهم، وأجب دعوتهم، وتفضَّل علينا وعليهم بجودك يا كريم. أو قال نحواً من هذا »(٣).

وعن عبد الوهاب الحارثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان أبو بكر النهشلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سمع النداء، تغيَّر لونه، وأرسل عينيه فبكىٰ، قال: وحدثني رجل، من بني ... أنه قال سألته عن ذلك، فقال: **أشبِّهه بالصريخ يوم العَرْض**. قال: ثم غُشي عليه»(٤).

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٦٥).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٤١).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٤٥ – ١٤٦).

(٤) المصدر السابق (١٤٣ –٢٤٤).

المطلب الثامن عشر: نماذج من خشوع السلف عند الطُّهور والاستعداد للصلاة:

عن عبد الرحمن بن حفص القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا توضأ اصفرَّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟! »(١).

وعن أحمد بن إسحاق الحضرمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حدثني شيخ من أهل واسط يكنىٰ أبا سعيد، وكان جارًا لمنصور بن زاذان قال: رأيت منصورًا(٢) توضأ فلما فرغ دمَعَتْ عيناه، ثم جعل يبكي حتىٰ ارتفع صوته، فقلت: رحمك الله ما شأنك؟! قال: وأي شيء أعظم من شأني؟ إني أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سِنة ولا نوم »(٣).

وعن نعيم بن مورِّع بن توبة التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « كان عطاء السليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا فرغ من طُهوره ارتعد وانتفض، وبكىٰ بكاءً شديدًا، فقيل له في ذلك، فقال: إني أريد أن أتقدَّم علىٰ أمرٍ عظيم، إني أريد أن أقوم بين يدي الله »(٤).

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٥٤).

(٢) هو ابن زاذان؛ روىٰ عن الحسن وابن سيرين وعطاء، توفي في الطاعون عام ١٣١هـ.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ١٢).

(٤) حلية الأولياء (٦/ ٢١٨).

المطلب التاسع عشر: نماذج من خشوع السلف في الركوع والسجود:

عن محمد بن عبد الله الزرَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « صليت إلىٰ جنب رياح القيسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكنت أسمع وقع دموعه علىٰ البواري[١] مثل الوكف: طق طق »[٢].

وعن عبيد الله بن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « أتيت صاحبًا لي يقال له عمران بن مسلم، فأراني موضعين مبتلِّين في مسجده، أحدهما بحذاء الآخر، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا والله من دموع ضيغم - ضيغم بن مالك الراسبي- البارحة بين المغرب والعشاء وهو راكع »[٣].

وعن أفلح مولىٰ محمد بن علي قال: « خرجت مع محمد بن علي[٤] حاجًا؛ فلما دخل المسجد نظر إلىٰ البيت فبكىٰ حتىٰ علا صوته، فقلت: بأبي أنت وأمي! إن الناس ينظرون إليك، فلو رفقت بصوتك قليلًا! قال: ويحك يا أفلح! ولم لا أبكي؟ لعل الله أن ينظر إليَّ منه برحمةٍ فأفوز بها عنده غدًا. قال: ثم طاف بالبيت، ثم جاء حتىٰ ركع عند المقام، فرفع رأسه من سجوده، فإذا موضع سجوده مبتلٌّ من دموع عينيه »[٥].

---

(١) - البواري: الحصير المنسوج.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٣١).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٧).

(٤) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر (ت: ١١٤).

(٥) صفة الصفوة (١١٠/ ٢).

عن محمد بن جعفر بن يحيىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « رأيت خالداً الزيات رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد رفع رأسه من سجدة ... فنظرت إلىٰ الحصىٰ مبتلة من دموع عينيه »(١).

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٢٩).

المبحث السادس: موانع الخشوع في الصلاة

معرفة موانع الخشوع في الصلاة يُعتبر تكملة لأسباب الخشوع في الصلاة؛ فإن من لم يجتنب الموانع قد لا يستطيع تحقيق الخشوع، ولذلك فإنَّ درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح، فالموانع مفاسد، وأسباب الخشوع مصالح، وفي المثل: الوقاية خير من العلاج، وتلك الموانع كثيرة، فينبغي اجتنابها كلها، ومنها ما يأتي:

١- الكلام في الصلاة- وهو من مبطلاتها:

قال تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذا الأمر مستلزمٌ ترك الكلام في الصلاة، لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرد علىٰ ابن مسعود حين سلم عليه، وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال: «إن في الصلاة لشغلًا» »(١).

وعن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: « بينا أنا أصلي مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عطس رجل من القوم. فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أُمِّياهْ! ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٤) [البقرة: ٢٣٨]. والحديث رواه البخاري (٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨).

منه، فوالله! ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[1].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « فيه تحريم الكلام في الصلاة، سواء كان لحاجة أو غيرها، وسواء كان لمصلحة الصلاة أو غيرها، فإن احتاج إلىٰ تنبيه أو إذن لداخل ونحوه سبَّح إن كان رجلًا، وصفَّقت إن كانت امرأة، هذا مذهبنا ومذهب مالك وأبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والجمهور من السلف والخلف ... وهذا في كلام العامد العالم، أما الناسي فلا تبطل صلاته بالكلام القليل عندنا، وبه قال مالك وأحمد والجمهور »[2].

٢- الضحك في الصلاة:

الضحك في الصلاة يمنع تحقيق الخشوع، أو يُذهبه إن كان موجودًا، وهو من مبطلات الصلاة إن كان عمدًا وبصوت، كما هو موضح في المطلب الآتي.

مطلب: حكم الضحك في الصلاة:

سُئلت اللجنة الدائمة: يقولون: إن البسمة تبطل الصلاة، والقهقهة تبطل الوضوء والصلاة معًا، فهل هذا صحيح؟

ج: تَبطُلُ الصلاة بالقهقهة، ولا تبطل بمجرد الابتسام، ولا يبطل الوضوء بالقهقهة، سواء حصلت أثناء الصلاة أم خارجها لعدم الدليل الصحيح علىٰ

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٢١) حديث رقم (٥٣٧).

بطلانه بذلك. وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم[1].

وسُئلت اللجنة أيضًا: ما حكم الضحك في الصلاة وهو يعلم أنه يبطلها أو لا يعلم؟

ج: الضحك في الصلاة لا يجوز، سواء علم أن الضحك يبطل الصلاة أم لا، وهو يبطلها إجماعًا. وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم[2].

٣- الصلاة في مكان فيه زخارف وألوان وأشكال ونحو ذلك:

المانع الثالث من موانع الخشوع في الصلاة، هو الصلاة في مكانٍ يوجد فيه ما يشغل المصلي من مسموع أو مرئي أو ملموس؛ ولذلك جاءت الأدلة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله وفعله ما يدلُّ علىٰ عنايته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإزالة ما يشغله أو يشغل غيره في الصلاة، ومن ذلك:

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان قرام لعائشة، سترت به جانب بيتها، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلَاتِي**»[3].

---

(١) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. (٧/ ٩٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٣٧٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « «قِرَام» بكسر القاف وتخفيف الراء: ستر رقيق من صوف ذو ألوان، قوله: «أميطي» أي: أزيلي وزنًا ومعنىٰ، «تَعرِض» بفتح أوله وكسر الراء؛ أي: تلوح »[١].

وعن صفية بنت شيبة أم منصور قالت: « أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ عثمان بن طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «**إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تُخَمِّرَهُمَا فَخَمِّرْهُمَا؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي**»، قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش في البيت حتىٰ احترق البيت، فاحترقا »[٢].

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**أن تخمر القرنين**»: أي: **تغطي قرني الكبش الذي فدىٰ الله تعالىٰ به إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أعين الناس**، كذا في فتح الودود، وعثمان هذا هو ابن طلحة القرشي العبدري الحَجَبَي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ - بفتح الحاء المهملة وبعدها جيم مفتوحة وباء موحدة - منسوبة إلىٰ حِجابة بيت الله الحرام شرفه الله تعالىٰ، وهم جماعة بني عبد الدار إليهم حِجابة الكعبة ومفتاحها، نسب كذلك غير واحد »[٣].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/ ٤٨٤) حديث رقم (٣٧٤).

(٢) رواه أحمد (٢٣٢٢١) وأبو داود (٢٠٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٠٤).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٦/ ٧) حديث رقم (٢٠٣٠).

٤- الصلاة في ثياب تشغل المصلي:

والمراد بالثياب التي تشغل المصلي هي التي فيها نقوش أو ألوان، أو أن تكون ضيقة أو واسعة أكثر من الحاجة، مما يجعل المصلي منشغلًا بها، فيفوته الخشوع؛ ولذلك ورد حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أن النبي صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَىٰ أَبِي جَهْمٍ، وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلاَتِي»(١).

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « ففيه الحث علىٰ حضور القلب في الصلاة وتدبر ما ذكرناه، ومنع النظر من الامتداد إلىٰ ما يشغل وإزالة ما يخاف اشتغال القلب به، وكراهية تزويق محراب المسجد وحائطه ونقشه وغير ذلك من الشاغلات، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جعل العلة في إزالة الخميصة هذا المعنىٰ...» ثم قال النووي: « قال أصحابنا: يستحب له النظر إلىٰ موضع سجوده، ولا يتجاوزه. وقال بعضهم: يكره تغميض عينيه، وعندي لا يكره إلا أن يخاف ضررًا »(٢).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُٱللَّهُ: « فيه مبادرة الرسول إلىٰ مصالح الصلاة، ونفي ما لعله يخدش فيها، وأما بعثه بالخميصة إلىٰ أبي جهم فلا يلزم منه أن يستعملها في الصلاة. ومثله قوله في حلة عطارد حيث بعث بها إلىٰ عمر: «إني لم

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ومسلم (٥٥٦). والخميصة: كساء مربع من صوف أو غيره به خطـوط أو نقوش. والكساء الأنبجاني: كساء من الصوف له أهداب ولا رسم فيه.

(٢) شرح صحيح مسلم (٥/ ٤٤) حديث رقم (٥٥٦).

أبعث بها إليك لتلبسها»، ويحتمل أن يكون ذلك من جنس قوله: «كل فإني أناجي من لا تناجي»، ويستنبط منه كراهية كلِّ ما يشغل عن الصلاة من الأصباغ والنقوش ونحوها »[١].

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فيه إيذان بأن للصور والأشياء الظاهرة تأثيرًا في القلوب الطاهرة والنفوس الزكية، يعني فضلًا عمن دونها »[٢].

٥- الصلاة في حال النعاس:

إذا غلب النعاس علىٰ الإنسان فإنه لا يعي ما يقول، فضلًا عن أنْ يحقِّق الخشوع؛ ولذلك أرشد النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناعسَ إلىٰ الانصراف، وليأخذ بأسباب إزالة النعاس من نوم أو غيره.

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا نعَس أحدُكم وهو يُصلِّي فلِينصرِفْ فلْينَمْ؛ حتىٰ يعلمَ ما يقولُ»[٣].

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقدْ حتىٰ يذهبَ عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعسٌ لا يدري لعله يستغفرُ فيسبُّ نفسَهُ»[٤].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٨٣) عند شرح حديث رقم (٣٧٣).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٨٣) عند شرح حديث رقم (٣٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٤٦٩) والنسائي (٤٤٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١١).

(٤) رواه البخاري (٢١٢) ومسلم (٧٨٦).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفيه الحث على الإقبال على الصلاة بخشوع وفراغ قلب ونشاط، وفيه أمر الناعس بالنوم أو نحوه مما يذهب عنه النعاس، وهذا عام في صلاة الفرض والنفل في الليل والنهار، وهذا مذهبنا والجمهور، لكن لا يخرج فريضة عن وقتها، قال القاضي: وحمله مالك وجماعة على نفل الليل؛ لأنه محل النوم غالبًا »(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « النعاس في القتال أَمَنَةٌ من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان »(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه في غزاة بدر وأحد، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن، وهو من الله، وفي الصلاة ومجالس الذكر والعِلم من الشيطان »(٣).

٦- المجيء إلى الصلاة سعياً:

فإن ذلك يجعله يدخل في الصلاة وقد حفزه النفس، فلا يخشع الخشوع المطلوب أو الكامل؛ ولذلك ورد النهي عن الجري عند الذهاب إلى الصلاة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا سمعتم**

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٧٤) حديث رقم (٧٨٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٤٢١٩) ومسدّد- كما في المطالب العالية (٣٥٦٢) - والطبري (٦/ ١٦٣).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٥٨).

الإقامة فامشوا إلىٰ الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تُسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فَأَتِمُّوا»[١].

٧- الصلاة بحضرة طعامٍ وهو جائع:

بوَّب البخاري في صحيحه: (بابٌ: إذا حضر الطعامُ وأُقيمت الصلاة!).

وكان ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: يبدأ بالعَشَاءِ.

وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: « من فِقْهِ المرء إقبالُه علىٰ حاجته حتىٰ يُقبلَ علىٰ صلاته وقلبُه فارغٌ »[٢].

وعن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا وضع العشاء، وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء**»[٣].

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إذا قُرِّبَ العشاء وحضرت الصلاة فابدؤوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تَعْجَلوا عن عشائكم**»[٤].

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « في هذه الأحاديث كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله؛ لما فيه من اشتغال القلب به، وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٢٩)، كتاب الأذان.

(٣) صحيح البخاري (٦٧١).

(٤) رواه مسلم (٥٥٧) والبخاري (٦٧٢).

مع مدافعة الأخبثين، وهما: البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع، وهذه الكراهة عند جمهور أصحابنا وغيرهم إذا صلىٰ كذلك وفي الوقت سعة، فإذا ضاق بحيث لو أكل أو تطهر خرج وقت الصلاة صلىٰ علىٰ حاله محافظة علىٰ حرمة الوقت، ولا يجوز تأخيرها.

وحكىٰ أبو سعد المتولي من أصحابنا وجهًا لبعض أصحابنا أنه لا يصلي بحاله، بل يأكل ويتوضأ وإن خرج الوقت؛ لأن مقصود الصلاة الخشوع فلا يفوته، وإذا صلىٰ علىٰ حاله وفي الوقت سعة فقد ارتكب المكروه، وصلاته صحيحة عندنا وعند الجمهور، لكن يستحب إعادتها ولا يجب، ونقل القاضي عياض عن أهل الظاهر: أنها باطلة.

وقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ولا يعجلن حتىٰ يفرغ منه» دليل علىٰ أنه يأكل حاجته من الأكل بكماله، وهذا هو الصواب، وأما ما تأوله بعض أصحابنا علىٰ أنه يأكل لقمًا يكسر بها شدة الجوع فليس بصحيح، وهذا الحديث صريح في إبطاله »[(١)].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «لا صلاةَ بحضرة الطَّعامِ»[(٢)].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٤٦) حديث رقم (٥٥٧).

(٢) رواه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**لا صلاة بحضرة الطعام**»، أي: عند حضور طعامٍ تتوق نفسه إليه، أي: لا تقام الصلاة في موضع حضر فيه الطعام، وهو يريد أكله، وهو عام للنفل والفرض والجائع وغيره، وفيه دليل صريح علىٰ كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال؛ لاشتغال القلب به...، وأما الصلاة بحضرة الطعام ففيه مذاهب: منهم من ذهب إلىٰ وجوب تقديم الأكل علىٰ الصلاة، ومنهم من قال إنه مندوب، ومن قيد ذلك بالحاجة ومن لم يقيد »(١).

مطلب: مسائل تتعلق بحديث «لا صلاة بحضرة طعام»:

سُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: هل الحديث «لا صلاة بحضرة طعام» خاص بالنافلة، أم هو عام للفريضة والنافلة معًا، وإذا كان عامًا فهل يسقط وجوب الجماعة بحضرة الطعام؟

فأجابت اللجنة: أن الحديث عام يشمل النافلة والفريضة، والمقصود به: أن يصلي المسلم وفكره معلق بصلاته وقراءته ودعائه، لا يكون مشغولًا بطعامه، وإذا كان جائعًا ثم وضع الطعام وأقيمت الصلاة فإنَّ تركه للطعام مع الجوع يشغل عن أداء الصلاة كما يجب عليه أن يؤديها، وليس المقصود أن الطعام يسقط الجماعة، فلا يجوز أن يتخذ إحضار الطعام وقت الصلاة سلمًا لترك الصلاة، إذ قد أوجب الله صلاة الجماعة حتىٰ في حال الخوف إذا كان مستمرًا،

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١/ ١١٢) حديث رقم (٨٩).

وليس هذا خاصًا بالطعام، بل كأن يدافع الأخبثين، فلا ينبغي له أن يذهب إلىٰ الصلاة، بل يقضي حاجته ثم يتوجه إلىٰ الصلاة فإن أدرك الجماعة فبها وإلّا صلىٰ وحده أو بمن يجد؛ لما روىٰ مسلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا صلاةَ بحضرةِ الطّعامِ ولا وهو يُدافِعُهُ الأخبثانِ**» والأخبثان: البول والغائط.

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم(١).

٨- سماع أصواتٍ غير صوت الإمام:

إنَّ سماعَ أصواتٍ وضجيج غير صوت الإمام سببٌ لذهاب الخشوع في الصلاة أو نقصانه؛ ولذلك نهىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رفع الصوت بالقرآن إنْ كان في رفعه تشويش علىٰ الآخرين.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اعتكف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّترَ، وقال: «**ألا إن كلكم مُناجٍ ربه، فلا يؤذينَّ بعضُكم بعضًا، ولا يرفعْ بعضكم علىٰ بعض في القراءة**» أو قال: «**في الصلاة**»(٢).

---

(١) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء؛ الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - المجموعة الثانية (٥/ ٣٨٣).

(٢) رواه أبو داود (١٣٣٢) وأحمد (١١٨٩٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٣٩). وقال الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤١٩): صحيح علىٰ شرط الشيخين.

وعن الْبَيَاضِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج علىٰ الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إن المصلي يناجي ربه عَزَّ وَجَلَّ، فلينظر ما يناجِيه، ولا يجهر بعضكم علىٰ بعض بالقرآن**»(١).

قال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج علىٰ الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراء، ظاهره أنَّ صلاتهم كانت نافلة، لمعان:

أحدها: أنها لو كانت فريضة لأمهم فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثاني: علو أصواتهم وقراءة جميعهم، ولو كانت فريضة لرفع صوته الإمام وحده؛ لأن المعهود أنهم كانوا يصلون الفريضة بصلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بصلاة إمام، وقد بين في حديث حماد بن زيد أن ذلك كان في رمضان؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن جمعهم علىٰ إمام في نوافل رمضان.

وإذا كان رفع الصوت بقراءة القرآن ممنوعًا حينئذ لأذىٰ المصلين فبأن يُمنع رفع الصوت بالحديث وغيره أولىٰ وأحرىٰ لما ذكرناه؛ ولأن في ذلك استخفافًا بالمساجد واطِّراحًا لتوقيرها وتنزيهها الواجب وإفرادها لما بنيت له من ذكر الله تعالىٰ، قال الله العظيم: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [**الحج: ٤٠**] »(٢).

---

(١) موطأ مالك (٢١٣) ومسند أحمد (١٩٠٢٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢).

(٢) المنتقىٰ شرح موطأ مالك (١/ ١٥٠) حديث رقم (٢١٣).

وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في جواب على سؤال حول من يشغل المصلي بكلامٍ عمدًا؟

فأجابت: لا يجوز تعمد إشغال المصلي عن صلاته بكلام ولا غيره، حتىٰ إن القارئ للقرآن لا يرفع صوته بالقراءة حتىٰ لا يشغل من يصلي بجانبه، ففي الحديث عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا إن كلكم مُناجٍ ربه، فلا يؤذينَّ بعضُكم بعضًا، ولا يرفعْ بعضكم علىٰ بعض في القراءة**» أو قال: «**في الصلاة**»[1].

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم[2].

٩- الالتفات في الصلاة:

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال الله عَزَّ وَجَلَّ مقبلًا علىٰ العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه**»[3].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الالتفات في الصلاة؟ فقال: «**هو اختلاس، يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»[4].

---

(١) رواه أبو داود (١٣٣٢) وأحمد (١١٨٩٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٣٩)..

(٢) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء؛ الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز- المجموعة الثانية (٧/ ١٩٤).

(٣) رواه أبو داود (٩٠٩) والنسائي (١١٩٥) والدارمي (١٤٦٣) وأحمد (٢١٥٠٨). وحسنة الألباني أخيراً في صحيح سنن أبي داود (٤/ ٦٥-٦٦). وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (٩٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٥١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «هو اختلاس» أي: اختطاف بسرعة، ووقع في النهاية: وقيل: المختلس الذي يخطف من غير غلبة ويهرب ولو مع معاينة المالك له، والناهب يأخذ بقوة، والسارق يأخذ في خفية.

وقال ابن بزيزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أضيف إلىٰ الشيطان؛ لأن فيه انقطاعًا من ملاحظة التوجه إلىٰ الحق سبحانه »(١).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سمي اختلاسًا تصويرًا لقبح تلك الفعلة بالمختلس؛ لأن المصلي يقبل عليه الرب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والشيطان مرتصد له ينتظر فوات ذلك عليه، فإذا التفت اغتنم الشيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة...وكأن المصنف أشار إلىٰ أن علة كراهة الالتفات في الصلاة كونه يؤثر في الخشوع كما وقع في قصة الخميصة »(٢).

وعن الحارث الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسىٰ: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيىٰ: أخشىٰ إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا علىٰ الشُّرَفِ، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن،

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ٢٣٥) حديث رقم (٧٥١).

(٢) المصدر السابق.

وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترىٰ عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إلي، فكان يعمل ويؤدي إلىٰ غير سيده، فأيُّكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإنّ ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلىٰ عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدىٰ نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أَثَرِه سِراعًا حتىٰ إذا أتىٰ علىٰ حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن؛ السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعىٰ دعوىٰ الجاهلية فإنه من جثا جهنم». فقال رجل: يا رسول الله وإن صلىٰ وصام؟ قال: «وإن صلىٰ وصام، فادعوا بدعوىٰ الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين، عباد الله»[١].

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣) وأحمد (١٧٨٠٠) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢٨٥).

وقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « إذا صلىٰ أحدكم فلا يلتفت، فإنه يناجي ربه، إنَّ ربه أمامه، وإنه يناجيه فلا يلتفت »(١).

وقال عطاء ابن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وبلغنا أن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: يا ابن آدم، إلىٰ من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه »(٢).

مطلب: أقسام الالتفات في الصلاة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الالتفاتُ المنهيُّ عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ غير الله تعالىٰ.

الثاني: التفات البصر. وكلاهما منهيٌّ عنه.

ولا يزال الله مقبلًا علىٰ عبده ما دام العبد مقبلًا علىٰ صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره، أعرض الله تعالىٰ عنه ... وفي أثر آخر: يقول الله تعالىٰ: «**إلىٰ خيرٍ مني؟! إلىٰ خيرٍ مني؟!**»، ومَثَلُ من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه؛ مثل رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالًا، أو قد انصرف قلبه عن السلطان فلا يَفْهَمُ ما يخاطبه به! لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظن هذا الرّجل أن يَفْعلَ به السلطان؟!

(١) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٢٥٧) رقم (٣٢٧٠).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٤/ ٤٠٠).

أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مُبْعَدًا قد سقط من عينيه؟!

فهذا المصلي لا يستوي والحاضرُ القلبِ المقبل على الله تعالىٰ في صلاته، الذي قد أشعر قلبَه عظمةَ من هو واقف بين يديه فامتلأ قلبه من هيبته، وذَلَّتْ عنقه له، واسْتَحْيَىٰ من ربه تعالىٰ أن يقبل علىٰ غيره، أو يلتفت عنه.

وبين صلاتيهما كما قال حسان عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

وذلك أنَّ أحدهما مقبل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والآخر ساهٍ غافل.

فإذا أقبل العبد علىٰ مخلوق مثله، وبينه حجاب، لم يكن إقبالًا ولا تقريبًا، فما الظن بالخالق عَزَّوَجَلَّ؟! وإذا أقبل علىٰ الخالق عَزَّوَجَلَّ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفةٌ بها، مَلأىٰ منها، فكيف يكون ذلك إقبالًا وقد أَلْهَتْهُ الوساوس والأفكار، وذهبت به كلَّ مَذْهب؟! »(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن ذلك: إقباله علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، وعدم التفاته إلىٰ غيره **وهو نوعان**:

أحدهما: عدم التفات قلبه إلىٰ غير من هو مناجٍ له، وتفريغ القلب للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٤٣-٤٥).

والثاني: عدم الالتفات بالبصر يمينًا وشمالًا، وقصر النظر علىٰ موضع السجود وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته، ولهذا رأىٰ بعض السلف مصليًا يعبث في صلاته فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »(١).

١٠- رفع البصر إلى السماء:

عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم**»، وفي رواية: «**أو لتخطفن أبصارهم**»: « فيه النهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك، وقد نُقل الإجماع في النهي عن ذلك »(٣).

وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « "أو" هاهنا للتخيير تهديدًا، أي: ليكونن أحد الأمرين كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨] »(٤).

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ٢١) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) رواه مسلم (٤٢٨) وأبو داود (٩١٢).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ١٥٢) حديث رقم (٤٢٨).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ١٢٧) حديث رقم (٩١٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في صلاتهم؟**» فاشتد قوله في ذلك، حتىٰ قال: «**لينتهن عن ذلك، أو لتخطفن أبصارهم**»(١).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أو لتحفظن**» بضم الفوقية وفتح الفاء علىٰ البناء للمفعول أي: لتسلبن.

قال في النيل: **لا يخلو الحال من أحد الأمرين:**

إما الانتهاء عنه، وإما العمىٰ، وهو وعيد عظيم وتهديد شديد، وإطلاقه يقتضي بأنه لا فرق بين أن يكون عند الدعاء أو عند غيره، إذا كان ذلك في الصلاة كما وقع به التقييد.

والعلة في ذلك أنه إذا رفع بصره إلىٰ السماء خرج عن سمت القبلة وأعرض عنها وعن هيئة الصلاة »(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في الصلاة فلما نزل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون:٢] رموا بأبصارهم إلىٰ مواضع السجود »(٣).

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ١٢٨) حديث رقم (٩١٣).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٨) [المؤمنون: ٢].

مطلب: حكم رفع البصر إلى السماء في الصلاة:

قال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والظاهر أن رفع البصر حال الصلاة حرام لأن العقوبة بالعمىٰ لا تكون إلا عن محرم. والمشهور عند الشافعية أنه مكروه، وبالغ ابن حزم فقال: تبطل الصلاة به »(١).

وسُئلت اللجنة الدائمة: هل رفع النظر في الصلاة يبطلها أم مكروه أم لا شيء فيه؟

ج: نهىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن رفع البصر إلىٰ السماء في الصلاة وتوعد عليه، ففي صحيح البخاري وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في صلاتهم؟**» فاشتد قوله في ذلك، حتىٰ قال: «**لينتهن عن ذلك، أو لتخطفن أبصارهم**»(٢).

فهذا وعيد شديد يدل علىٰ التحريم ولكنه لا يبطل الصلاة. وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا، محمد وآله وصحبه وسلم(٣).

١١- الحركة لغير حاجة الصلاة:

عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إذا قام أحدكم في الصلاة فلا يمسح الحصىٰ، فإن الرحمة تواجهه**»(٤).

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ١٢٨) حديث رقم (٩١٣).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠).

(٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (٧/ ٢٢).

(٤) رواه النسائي (١١٩١) وأبو داود (٩٤٥) والترمذي (٣٧٩) وابن ماجه (١٠٢٧) وحسنه شعيب =

والشاهد من الحديث: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ المصلي عن مسح الحصىٰ، وأذن له في المسح مرة واحدة - إن احتاج إلىٰ ذلك - كما في حديث معيقيب الآتي ذكره، وهذا يدل علىٰ أهمية السكون وترك الحركة التي ليست من صالح الصلاة ولا من أعمالها.

وعن مُعَيْقِيبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَال: « ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسح في المسجد - يعني الحصىٰ - قال: إن كنت لا بد فاعلًا فواحدةً »(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والذي يظهر أن علة كراهيته المحافظة علىٰ الخشوع، أو لئلا يكثر العمل في الصلاة »(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن كنت لا بد فاعلًا فواحدة**» معناه: لا تفعل، وإن فعلت فافعل واحدة لا تزد، وهذا نهي كراهةِ تنزيهٍ فيه كراهتُه، واتفق العلماء علىٰ كراهة المسح؛ لأنه ينافي التواضع، ولأنه يشغل المصلي ».

قال القاضي: « وكره السلف مسح الجبهة في الصلاة وقبل الانصراف، يعني: من المسجد مما يتعلق بها من تراب ونحوه »(٣).

= الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان (٢٢٧٣) وصححه ابن باز كما في مجموع فتاوىٰ ابن باز (١١/ ٢٦٥).

(١) رواه مسلم (٥٤٦) والبخاري (١٢٠٧).

(٢) فتح الباري (٣/ ٧٩).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٣٧) حديث رقم (٥٤٦).

وقال أحمد بن سنان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيتُ وكيعًا إذا قام إلىٰ الصلاة ليس يتحرك منه شيءٌ، لا يزول، ولا يميل علىٰ رِجْل دون الأخرىٰ »(١).

مطلب: أقسام الحركة في الصلاة وحكم كل منها:

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **الحركة في الصلاة تنقسم إلىٰ خمسة أقسام:**

١- **حركة واجبة**؛ وهي التي يتوقف عليها فعل واجب في الصلاة، كما لو كان الإنسان يصلي إلىٰ غير قبلة مثلاً فجاءه من أخبره بأن القبلة عن يمينه أو شماله، فوجب عليه أن يتحرك إلىٰ القبلة، ومن ذلك ما فعله أهل مسجد قباء حين أتاهم هاتف في صلاة الصبح فأخبرهم بأن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلىٰ الكعبة، فاستداروا إلىٰ الكعبة وكانت وجوههم إلىٰ الشام، هذه الحركة الواجبة.

٢- **حركة مستحبة**؛ وهي ما يتوقف عليها فعل مستحب في الصلاة، كما لو تحرك إلىٰ سد فرجة في الصف، سواء كانت الفرجة أمامه أو عن يمينه أو عن يساره، فإنه يقرب من جعله، ويتقدم إلىٰ الصف الذي أمامه لسد الفرجة، فهذه مستحبة.

٣- **المباحة**؛ وهي الحركة اليسيرة إذا كانت للحاجة مثل ما فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين صلىٰ بأصحابه وهو يحمل أمامة بنت زينب بنت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبوها أبو العاصي بن ربيع، فإنه كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يصلي وهو

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٥٧).

حامل هذه البنت، فإذا قام حملها، وإذا سجد أو ركع وضعها بالأرض، فهذا مباح، ومنه أيضـًا - من القسم المباح - إذا كثرت الحركة لكن للضرورة كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩] يعني فصلوا ولو أنكم تمشون علىٰ أرجلكم أو راكبين.

٤- **الحركة المحرمة**: وهي الحركة الكثيرة التي تبطل بها الصلاة بدون ضرورة، فإذا تحرك الإنسان حركة كثيرة بحيث تنافي الصلاة لكثرتها وبدون ضرورة فإن صلاته تبطل، فإنها محرمة وتبطل الصلاة.

٥- **الحركة المكروهة**: وهي الحركة الكثيرة بغير حاجة، وهذه توجد كثيراً في المصلين، تجدهم يتحركون حركة كثيرة بدون حاجة؛ هذا يصلح ثوبه، وهذا ينظر إلىٰ ساعته، وهذا يخرج قلمه، وهذا يعبث في أنفه أو في لحيته، وما أشبه ذلك من الحركات التي تشاهد كثيراً، فهذه المكروهة، وإذا كثرت وتوالت أبطلت الصلاة وصارت محرمة، فعلىٰ المرء المسلم المصلي أن يستحضر أنه واقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في قبله من الهيبة والخشوع ما يظهر علىٰ جوارحه »[(١)].

---

(١) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب- الشريط رقم [٣٢].

١٢- مدافعة الأخبثين:

هذا المانع من موانع الخشوع يتساهل فيه كثير من الناس، وخصوصًا الشباب منهم، وهو مكروه شرعًا ومُضرٌّ بصحةِ الإنسان، وقد جُمع بعضُ ما يتعلق بهذا المانع وتوابعه في المطالب الآتية:

المطلب الأول: النهي عن الصلاة حال مدافعة الأخبثين:

عن عبد الله بن الأرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: « أنه خرج حاجًّا أو معتمرًا، ومعه الناس وهو يؤمُّهم، فلما كان ذات يومٍ أقام الصلاة، صلاةَ الصبح، ثم قال: لِيتقدمْ أحدُكُم، وذهب الخلاءَ، فإني سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: إذا أراد أحدكم أن يذهب الخلاءَ وقامت الصلاةُ فليبدأْ بالخلاءِ »(١).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**»(٢).

قال العظيم آبادي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «**ولا**» يصلي.

«**وهو**» المصلي.

«**يدافعه**» المصلي.

(١) رواه أبو داود (٨٨) والترمذي (١٤٢) والنسائي (٨٥٢) وابن ماجه (٦١٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٨٨).

(٢) رواه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩).

«**الأخبثان**» فاعل يدافع وهو البول والغائط، أي: لا صلاة حاصلة للمصلي حالة يدافعه الأخبثان وهو يدافعهما؛ لاشتغال القلب به وذهاب الخشوع، ويلحق به كل ما هو في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع »[١].

وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهىٰ أن يصلي الرجل وهو حاقن[٢]. لأن مدافعة الأخبثين أو أحدهما في الصلاة مما يقلل الخشوع أو يذهبه بالكلية.

المطلب الثاني: حكم صلاة الحاقن والحاقب:

وأما حكم صلاة الحاقن والحاقب[٣]؛ فقد سُئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ:

ما رأي فضيلتكم فيمن يحبس نفسه عن البول لأجل الصلاة والحفاظ علىٰ الوضوء، وذلك للبرد أو أي شيء آخر فهل عليه شيء؟

فأجاب الشيخ: عليه شيء؛ لأنه عصىٰ النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم؛ فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**»[٤]، فإذا صلىٰ الإنسان مع مدافعة الخبث - البول أو الغائط - فقد

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١/ ١١٢) حديث رقم (٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٦١٧) وأحمد (٢٢٢٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٣٢).

(٣) الحاقِنُ: هو الذي احتبس بولُه فتجمَّع. (المعجم الوسيط ص/ ١٨٩) مادة: (حقن).
والحَاقبُ: هو الذي يَحبِس غائطه. (المعجم الوسيط ص/ ١٨٧) مادة: (حقب).

(٤) رواه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩).

عصىٰ النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، بل قد ذهب بعض العلماء إلىٰ أنه لا صلاة له في هذه الحال. وعليه أن يتخلىٰ، أي: أن يبول أو يتغوط، ثم إن وجد الماء وقدر علىٰ استعماله بلا ضرر، نقول: نعم، إن وجد الماء وقدر علىٰ استعماله بلا ضرر فليفعل، وإن لم يجد الماء أو كان يخاف الضرر باستعماله فالأمر واسع ولله الحمد، فليتيمم. وصلاته بتيمم بدون مدافعة البول أو الغائط خير من صلاته بوضوء يكون فيه مدافعًا للبول والغائط، وليستحضر إذا دعته نفسه إلىٰ الصلاة وهو يدافع الأخبثين، ليستحضر قول النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «**لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافع الأخبثان**». فإذا استحضر هذا فإنه لن يذهب يصلي وهو يدافع الأخبثين(١).

المطلب الثالث: مدافعة الريح:

سُئل ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل مدافعة الريح تأخذ حكم مدافعة الأخبثين في الصلاة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إي نعم، مدافعة الريح إذا كانت تضيق عليك كمدافعة البول والغائط؛ فلا تصل مع وجوده...لأن العلة هي إشغال القلب عن الصلاة، والدليل علىٰ هذا أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**لا صلاة بحضرة طعام**»(٢)، وحضرة الطعام ليس مدافعة أخبثين، لكنه يشغل القلب، وكل ما يشغل القلب

(١) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [٣٣٢].

(٢) رواه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩).

لا تُصلِّ مع وجوده، ولهذا نهي عن الصلاة بحضرة الطعام، وعن الصلاة مع مدافعة الأخبثين، وكذلك كل ما يشغل الإنسان، لا يُصلِّ في حال اشتغاله(١).

المطلب الرابع: المدافعة وفوات الجماعة:

س: ومن خشي فوات الجماعة فهل يصلي على حاله، أم أنه يذهب ويتوضأ حتىٰ وإن فاتت الجماعة؟

الجواب: قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يكره له أن يصلي وهو يدافع الأخبثين؛ لأن ذلك يشغله عن الخشوع في الصلاة، اللهم إلا إذا كانت المدافعة شديدة، فإن القول بأن صلاته لا تصح قول وجيه جداً؛ لأنه لا يتمكن في هذه الحال من استحضار ما يقول وما يفعل، ولأن ذلك قد يسبب عليه ضرراً بدنيًا وقد نهي عن إلحاق الضرر بالبدن، وقد روي عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**لا ضرر ولا ضرار**»(٢).

وأما كونه يخشىٰ من فوات صلاة الجماعة فإنه لا حرج عليه لو فاتته صلاة الجماعة في هذه الحال، فإذا ذهب وقضىٰ حاجته وتوضأ فإنه لو فاتته الجماعة لا إثم عليه ولا حرج(٣).

---

(١) سلسلة لقاءات الباب المفتوح « لقاء الباب المفتوح [٦٣].

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٨٦٥) ومالك في الموطأ (٣١) والبيهقي في السنن (١١٧١٨) وحسنه النووي في بستان العارفين (٣٥).

(٣) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [١٢٦]

وسُئلت اللجنة الدائمة: في بعض الأحيان يدافعني الغائط قبل الصلاة وأصلي ولكن لا يدافعني أثناء الصلاة فهل تقبل صلاتي؟ وفي بعض الأحيان يجري العكس فهل تقبل صلاتي؟

ج: لا يجوز للمصلي أن يدخل في الصلاة وهو يدافع الغائط أو البول؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا صلاة بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان**»(١). أخرجه مسلم في صحيحه، والحكمة في ذلك والله أعلم أن ذلك يمنع الخشوع في الصلاة، لكن لو صلىٰ وهو كذلك فإن صلاته صحيحة، لكنها ناقصة غير كاملة للحديث المذكور ولا إعادة عليه.

وأما إذا دخلت في الصلاة وأنت غير مدافع للأخبثين وإنما حصلت المدافعة أثناء الصلاة فإن الصلاة صحيحة ولا كراهة إذا لم تمنعك هذه المدافعة من إتمام الصلاة.

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم(٢).

---

(١) رواه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩).

(٢) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. (٧/ ٢٥).

المبحث السابع: حكم الخشوع في الصلاة

الفقه في هذه المسألة هام جدًّا، والجزم به فيه صعوبة على ذوي الألباب، والاطلاع على ما قاله العلماء في هذه المسألة وتوابعها يزيد المسلم يقينًا بأهمية الخشوع وضرورة السعي في تحقيقه، وقد تم ترتيب هذا المبحث في المطالب الآتية:

المطلب الأول: من أقوال العلماء في حكم الخشوع في الصلاة:

قال السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد اتفق العلماء على أنه يطلب من المصلي أن يكون خاشعًا خاضعًا مستحضرًا عظمةَ الله وهيبتَهُ، وأنه يناجي من لا تخفى عليه خافية لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] أي: خائفون من الله متذللون له، جاعلون أبصارهم إلى مواضع سجودهم ... وقد عدّ الغزاليُّ الخشوعَ رُكنًا من أركانِ الصلاة »(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اختلف الناس في الخشوع: هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها؟ على قولين، والصحيح الأول، ومحله القلب... »(٢).

---

(١) الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلى دين الحق (٢/ ٢٦٣).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٠٤) [سورة المؤمنون: ٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ويدلُّ علىٰ وجوب الخشوع فيها أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾ [المؤمنون:١-١١] أخبر سبحانه أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنْ لا يرثها غيرهم، وقد دل هذا علىٰ وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تُورَثُ بدونها؛ لأن الجنة تُنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب »(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ علىٰ قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني.

وادعىٰ عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء علىٰ أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره؛ قال: ومما يدل علىٰ صحة هذا القول قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ⑧٢﴾ [النساء:٨٢] والتدبر لا يتصور بدون الوقوف علىٰ المعنىٰ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٥٥٤).

وكذا قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤] والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النساء: ٤٣] نهيٌ للسكران، والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلته »(١).

المطلب الثاني: أقل درجات الخشوع:

قال عبد الرحمن بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سألت الأوزاعي عن أدنىٰ ما يتعلّق المتعلّق وينجيه من هذا الويل؟ فأطرق هُنية، ثم قال: يقرؤهنّ وهو يعقلهنّ »(٢).

وسُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء: ما حكم الخشوع في الصلاة؟ وكيف أرد على من يقول: إن الخشوع في الصلاة سنة وليس بواجب؟

فأجابت اللجنة: الخشوع خشوعان: واجب ومستحب:

فالواجب: هو الطمأنينة في جميع أعمال الصلاة حتىٰ يؤديها كاملة، وهو

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٦١) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في (التفكر) كما ذكر السيوطي في (الدر المنثور) (٢/ ٤٠٩).

المراد في قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢] وهو المراد في حديث المسيء في صلاته.

والمستحب: هو العناية بإكمال الصلاة وأداء ما يستحب فيها من أفعال وأقوال.

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم(١).

المطلب الثالث: حكم الصلاة بغير خشوع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **والقَبول ثلاثة أنواع: الأول**: قَبول رِضًا ومَحبّة واعتداد ومُباهاة، وثَناء علىٰ العامل به بين الملأ الأعلىٰ.

الثاني: قَبول جَزاء وثَواب، وإن لم يَقع مَوقع الأوّل.

الثالث: قبول إسقاط للعقاب فقط، وإن لم يترتب عليه ثواب وجزاء، كقبول صلاة من لم يُحْضِر قَلبَه في شيءٍ منها، فإنه ليس له من صلاته إلا ما عَقل منها، فإنها تُسقط الفرض، ولا يُثاب عليها »(٢).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أما هل تصح الصلاة مع الوسواس؟ فإذا كان الإنسان يدافعه، فإنه لا يضره فصلاته صحيحة، وإن استرسل معه فإن أكثر أهل

---

(١) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء؛ الرئيس/ عبد العزيز بن باز. المجموعة الثانية، (٥/ ٤٠٣).

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف - ط عطاءات العلم (١/ ١٤).

العلم يقولون: إن صلاته صحيحة، وبعض العلماء يقول: إذا غلب علىٰ أكثر الصلاة فصلاته باطلة.

والصواب: أن الصلاة صحيحة لكنها ناقصة بقدر ما حصل من الوساوس التي حصلت لهذا المصلي »[1].

المطلب الرابع: إيراد ابن القيم لأدلة الفريقين مع الترجيح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع في صلاته هل يُعتَدُّ بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها إلا بما عَقَلَ فيه منها، وخشع فيه لربه، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها.

وفي المسند مرفوعًا: «**إن العبد ليصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها، حتىٰ بلغ عشرها**»[2].

وقد علّق الله فلاح المُصَلِّين بالخشوع في صلاتهم، فدلَّ علىٰ أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعْتُدَّ له بها ثوابًا لكان من المُفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإنْ غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتُدَّ بها إجماعًا، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها، وإنْ غلب عليه عدم الخشوع فيها، وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء

---

(١) سلسلة فتاوىٰ نور علىٰ الدرب « الشريط رقم [٣٦٠].

(٢) رواه أبو داود (٧٩٦) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٧٩٦).

في وجوب إعادتها: فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه لا في وسيطه وبسيطه، واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يُضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها، فكيف يعتد بصلاة فقَدتْ روحهَا ولبَّها، وبقيت صورتها وظاهرها؟! قالوا: ولو تَركَ العبد واجبًا من واجباتها عمدًا لأبطلها تركه.

وغايتُه: أن يكون بعضًا من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبها ومقصودها، وصارت بمنزلة العبد الميت؟ إذا لم يعتدَّ بالعبد المقطوع اليد، يعتقه؛ تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ في كفارة واجبة، فكيف يعتد بالعبد الميت؟

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدىٰ إلىٰ ملك من الملوك، فما الظن بمن يُهدىٰ إليه جارية شَلَّاء، أو عوراء، أو عمياء، أو مقطوعة اليد والرجل، أو مريضة، أو دميمة، أو قبيحة، حتىٰ يُهدىٰ إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة، فكيف بالصلاة التي يهديها العبد، ويتقرب بها إلىٰ ربه تعالىٰ؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها

وتعطل؟ قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائمًا بعبوديته، فالأعضاء أولىٰ أنْ لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنىٰ تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**»(١).

وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد، فهو تنبيه علىٰ أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص، فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد، والغافل لا قصد له، فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥] وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعمّ النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) واللفظ له، والبزار (١٠٠٦١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٥).

وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط، فهو تنبيه علىٰ التوعد بالويل علىٰ سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولىٰ؛ لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر، وينتقل إلىٰ بدله، والإخلاص والحضور لا يسقط بحال، ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور، فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور، كالمسافر، والمريض، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلىٰ الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب علىٰ الله في الصلاة أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شدَّة من القرآن، أو ترك تسبيحة، أو قول **"سمع الله لمن حمده"**، أو قول **"ربنا ولك الحمد"**، أو ذكر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالصلاة عليه، **ثم يصححها مع فوت لُبِّهَا، ومقصودها الأعظم، وروحها وسرها.**؟

فهذا ما احتجت به هذه الطائفة، وهي حجج كما تراها قوةً وظهورًا.

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح أنه قال «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان، وله ضراط حتىٰ لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتىٰ يخطر بين المرء وبين نفسه، فيذكره ما لم يكن يذكر، ويقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتىٰ يظل الرجل لا يدري كم صلىٰ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»(١).

قالوا: فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتىٰ لم يدر كم صلىٰ بأن يسجد سجدتي السهو، ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة - كما زعمتم - لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيمًا للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة، ولهذا سماهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «المرغمتين»، وأمر من سها بهما، ولم يُفَصل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لكل سهو سجدتان»(٢)، ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، مع أنه الغالب.

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٣٨) وحسنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (١٠٣٨). عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام علىٰ الأفعال الظاهرة، وأما حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب، **فلله تعالىٰ حكمان:**

حكم في الدنيا علىٰ الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم في الآخرة علىٰ الظواهر والبواطن، ولهذا كان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل علانية المنافقين، ويَكِلُ أسرارهم إلىٰ الله فيُناكحون، ويرثون ويورثون، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب ليست إلىٰ البشر، بل إلىٰ الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي، مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب في الآخرة، فصلاة المسلم الغافل المبتلىٰ بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولىٰ بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجلًا؛ فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه، واستنارته، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة، والفرح والسرور، واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه علىٰ الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قرَّبَه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه - والله أعلىٰ وأجل - وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلىٰ في الآخرة، ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع، **وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كلامنا في هذا كله. فإن أردتم وجوب الإعادة**؛ لتحصل هذه الثمرات والفوائد، فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها علىٰ نفسه، وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه علىٰ تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا ».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذا القول الثاني أرجح القولين، والله أعلم »[1].

المطلب الخامس: حكم التباكي في الصلاة استجلابًا للخشوع:

سُئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما حكم التباكي في الصلاة جماعةً في المساجد بصوت مرتفع لجلب الخشوع؟

الجواب: التباكي المصطنع -كما يفعله بعض الناس- غير مشروع، وأما البكاء الذي يأتي من خشوع القلب واستحضاره لعظمة الرب والخوف منه، فإن هذا مشروع، وإذا ظهر منه صوت بغير اختياره وبغير تكلف منه فلا حرج، لكن التباكي المصطنع هذا أمر لا يُشرع ولا ينبغي، بل الذي ينبغي أن يتأمل الإنسان كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تأمله بصدق ومعرفة للمعنىٰ فإن قلبه يلين ويخشع ويبكي عند ذكر العذاب خوفًا منه، وعند ذكر الثواب طمعًا فيه، وعند ذكر الرب تعظيمًا له، وعند ذكر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسيرته محبة له وشوقًا إليه[2].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧١).

(٢) المصدر: سلسلة اللقاء الشهري « اللقاء الشهري [٥].

المبحث الثامن: مظاهر الخشوع في الصلاة

١- وضع اليدين على الصدر:

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فمما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة: وضع اليدين إحداهما علىٰ الأخرىٰ في حال القيام، وقد رُوي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سئل عن المراد بذلك؟ فقال: هو ذل بين يدي عزيز، قال علي بن محمد المصري الواعظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ما سمعت في العلم بأحسن من هذا** »(١).

وتحت هذا المظهر مطلبان وفائدة:

المطلب الأول: استحباب وضع اليدين على الصدر حال القيام في الصلاة:

عن أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: « كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنىٰ علىٰ ذراعه اليسرىٰ في الصلاة. قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أعلمه إلا ينمي ذلك إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال إسماعيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُنْمَىٰ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقُلْ يَنْمِي »(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: **(كان الناس يؤمرون)** هذا حكمه الرفع؛ لأنه محمول علىٰ أن الآمر لهم بذلك هو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. قال العلماء: الحكمة

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ٢٠) [سورة المؤمنون: ٢].

(٢) رواه البخاري (٧٤٠).

في هذه الهيئة أنه صفة السائل الذليل، وهو أمنع من العبث وأقرب إلىٰ الخشوع، وكأن البخاري لحظ ذلك فعقَّبه بباب الخشوع. ومن اللطائف قول بعضهم: القلب موضع النية، والعادة أن من احترز علىٰ حفظ شيء جعل يديه عليه. قال ابن عبد البر: لم يأت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه خلاف، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين، وهو الذي ذكره مالك في الموطأ، ولم يحك ابن المنذر وغيره عن مالك غيره »[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: « رآني النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضعت شمالي علىٰ يميني في الصلاة، فأخذ بيميني فوضعها علىٰ شمالي »[2].

المطلب الثاني: هل يضع المصلي يديه تحت السرة أم فوقها:

عن قبيصة بن هُلب، عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمنا، فيأخذ شماله بيمينه »[3].

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتابعين، ومن بعدهم، يرون أن يضع الرجل يمينه علىٰ شماله

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ٢٢٤) حديث رقم (٧٤٠).

(٢) رواه النسائي (٨٨٨) وأبو داود (٧٥٥) وابن ماجه (٨١١) وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٨٨٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٥٢) وابن ماجه (٨٠٩) وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٢١٩٧٥).

في الصلاة، ورأىٰ بعضهم: أن يضعهما فوق السرة، ورأىٰ بعضهم: أن يضعهما تحت السرة، وكل ذلك واسع عندهم. واسمُ هُلب: يزيد بن قُنافة الطائي »[١].

وسئلت اللجنة الدائمة: هل وضع اليمين على الشمال فوق الصدر في الصلاة من فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لا؟

ج: من السنة وضع كف اليمنىٰ علىٰ كف اليسرىٰ والرسغ والساعد فوق الصدر أثناء القراءة في القيام، وفي القيام أيضا بعد الرفع من الركوع إلىٰ أن يخر ساجدًا وهذا هدي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته العملية. وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم[٢].

فائـدة: مواضع اليدين في الصلاة:

سُئل ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أين يضع المصلي يديه في الصلاة؟

فأجاب: في حال القيام يضعهما علىٰ صدره، هذا هو الأفضل لصحة الأحاديث في ذلك قبل الركوع وبعده، أما في حال الركوع فيضعهما علىٰ ركبتيه، وفي حال السجود يضعهما علىٰ الأرض حيال منكبيه أو حيال أذنيه، وأما في حال الجلوس بين السجدتين فيضعهما علىٰ فخذيه أو ركبتيه، وهكذا في حال التشهد الأول والأخير، ولكنه في حال التشهد يضع كفه اليمنىٰ علىٰ فخذه اليمنىٰ

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٢).

(٢) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. الرئيس/ ابن باز. المجموعة الأولىٰ (٦/ ٣٧١).

ويقبض الخنصر والبنصر ويحلق الإبهام مع الوسطىٰ، ويشير بالسبابة حتىٰ يسلم إشارة إلىٰ وحدانية الله سبحانه، ويحركها عند الدعاء وفي بعض الأحيان يقبض الأصابع كلها - أعني: أصابع كفه اليمنىٰ - ويشير بالسبابة لأن كلتا الصفتين قد ثبتت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والله ولي التوفيق (١).

٢- النظر إلى موضع السجود:

قال الإمام محمد ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الخشوع، هو أنْ لا ترفع بصرك عن موضع سجودك »(٢).

وسُئل الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن الخشوع في الصلاة، فقال: « غضُّ البصر، وخفض الجناح، ولين القلب، وهو: الحزن والخوف »(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « «فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده» فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلًا للفطرة؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع - وهو الذل والسكون - لا يناسب حاله أن ينظر إلىٰ ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسب حاله الإطراق وغض بصره أمامه »(٤).

---

(١) الدرر الثرية من الفتاوىٰ البازية (ص/ ١٧٢).

(٢) تفسير الثعلبي - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٨/ ٤٣٣) [المؤمنون: ٢].

(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٦).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٧٧).

٣- السكون وترك الحركة:

عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس!! اسكنوا في الصلاة»(١).

والشاهد: الأمر بالسكون في الصلاة.

قال عطاء ابن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ: « الخشوع: هو أنْ لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة »(٢).

وقال أحمد بن سنان رَحِمَهُ اللَّهُ: « رأيتُ وكيعًا إذا قام إلىٰ الصلاة ليس يتحرك منه شيءٌ، لا يزول، ولا يميل علىٰ رِجْل دون الأخرىٰ »(٣).

وقال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ: « وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلىٰ الصلاة؛ هاب الرحمن عَزَّوَجَلَّ أن يشذ نظره، أو يلتفت، أو يقلب الحصىٰ، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيًا ما دام في الصلاة »(٤).

ورأىٰ سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ رجلًا يعبث بلحيته في صلاته فقال: « لو خشع قلبُ هذا لخشعَتْ جوارحُه »(٥).

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣٥٨) [المؤمنون: ٢].

(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٥٧).

(٤) حلية الأولياء (٣/ ٢٨٢).

(٥) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد (١١٨٨). وقد رُوي مرفوعًا، ولم يصح.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ونكتة المسألة أن قولك: "الله أكبر" يحرِّم عليك الأفعال بالجوارح، والكلام باللسان؛ ونية الصلاة تحرِّم عليك الخواطر بالقلب، والاسترسال عن الأفكار، إلا أن الشرع لما علم أن ضبط الشر من السر يفوت طوق البشر سمح فيه، كما تقدم بيانا له »(١).

٤- الطمأنينة وترك العجلة في الصلاة:

عن عبد الرحمن بن شبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « نهىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نقرةِ الغُرابِ، وافتراش السبع، وأن يُوطِّنَ الرجلُ المكانَ في المسجد كما يُوطِّنُ البعيرُ »(٢).

وعن زيد بن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « رأىٰ حذيفةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رجلًا لا يتمُّ الركوعَ والسجودَ، قال: ما صليتَ، ولو مُتَّ مُتَّ علىٰ غير الفطرة التي فطرَ الله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(٣).

وقال الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا سجد كأنه جِذْمُ حائط ينزل علىٰ ظهره العصافير »(٤).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣١٤).

(٢) رواه أبو داود (٨٦٢) والنسائي (١١١٢) وابن ماجه (١٤٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٨٢).

(٣) رواه البخاري (٧٩١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦١).

قال أحمد بن منيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سمعت أبا قطن يقول: ما رأيت **شعبة** ركع قط إلا ظننت أنه نسي، **ولا قعد بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي** »(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعـًا، **بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلا مع الطُّمأنينة، وكلما زاد طمأنينةً ازداد خشوعـًا**، وكلَّما قَلَّ خشوعُه اشتدَّت عَجَلَتُه حتىٰ تصير حركة بدنِه بمنزلة العَبَث، الذي لا يصحبُهُ خشوعٌ ولا إقبالٌ علىٰ العبوديَّة، ولا معرفة حقيقة العبوديَّة »(٢).

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٠٧).

(٢) كتاب الصلاة (ص/ ٣٣٩).

المبحث التاسع: مراتب الناس في خشوعهم الصلاة

إذا عرف المصلي هذه المراتب التي سيأتي ذكرها؛ فينبغي له أن يحرص علىٰ الإتقان والإحسان في أداء الصلاة، وذلك بمجاهدة النفس، ومدافعة الوساوس والخواطر؛ حتىٰ يصل إلىٰ أعلىٰ مرتبة يمكنه الوصول إليها، وإليك تقسيم ابن القيم لتلك المراتب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **والناس في الصلاة علىٰ مراتب خمسة:**

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه، المُفَرِّط؛ وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ علىٰ مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ علىٰ حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه؛ لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاةٍ وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلىٰ الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها؛ لئلا يُضَيِّع شيئًا منها، بل همُّه كله مصروف إلىٰ إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبَه شأن الصلاة وعبودية ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها.

الخامس: من إذا قام إلىٰ الصلاة قام إليها كذلك، ولكنْ مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عَزَّوَجَلَّ، ناظرًا بقلبه إليه مراقبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّتْ تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه قرير العين به.

فالقسم الأول معاقَبٌ، والثاني محاسَبٌ، والثالث مكَفَّرٌ عنه، والرابع مثابٌ، والخامس مُقَرَّبٌ من ربه؛ لأن له نصيبًا ممن جُعِلَتْ قرة عينه في الصلاة، **فمن قَرَّتْ عينه بصلاته في الدنيا قَرَّتْ عينه بقربه من ربه في الآخرة، وقرت عينه - أيضًا - به في الدنيا، ومن قَرَّتْ عينه بالله قَرَّتْ به كل عين، ومن لم تَقَرَّ عينه بالله تعالىٰ تقطَّعَتْ نفسه علىٰ الدنيا حسرات**.

وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله: «**ارفعوا الحُجُبَ بيني وبين عبدي، فإذا التفت قال: أرخوها**». وقد فُسِّر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله إلىٰ غيره، فإذا التفت إلىٰ غيره أرخىٰ الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعَرَضَ عليه أمور الدنيا، وأراه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل بقلبه علىٰ الله، ولم يلتفت، لم يقدر الشيطان علىٰ أن يتوسط بين الله تعالىٰ وبين ذلك القلب؛ وإنما يدخل الشيطان إذا وَقَعَ الحجابُ؛ فإن فرَّ إلىٰ الله تعالىٰ وأحضر قلبه فَرَّ الشيطانُ، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة »[(١)].

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٢٤).

الفصل الثالث: الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه

ويحتوي هذا الفصل على تمهيد، وثمانية مباحث:

المبحث الأول: الترغيب في الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه.

المبحث الثاني: الترهيب عن التقصير في تحقيق الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه.

المبحث الثالث: بيان أهمية التدبر لتحقيق الخشوع.

المبحث الرابع: الأسباب المعينة علىٰ الخشوع عند قراءة القرآن.

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف عند قراءة القرآن أو سماعه.

المبحث السادس: موانع الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه.

المبحث السابع: قصص في تأثير القرآن علىٰ قلوب المشركين.

المبحث الثامن: الصعق والإغماء عند سماع القرآن.

تمهيد

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة. وقد بات جماعة من السلف يتلون آيه واحدة، يتدبرونها ويرددونها إلىٰ الصباح. وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة. ومات جماعات حال القراءة »[١].

مطلب: دوافع الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسبابٌ:

أحدها: أن يَلُوح له عند السماع درجةٌ ليست له، فيرتاح إليها، فتَحدُث له الشهقةُ؛ فهذه شهقة شوق.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٧٦).

وثانيها: أن يَلُوح له ذنبٌ ارتكبه، فيشهَق خوفًا وحزنًا علىٰ نفسه، وهذه شهقة خشية.

وثالثها: أن يلوح له نقصٌ فيه لا يَقدِرُ علىٰ دفعه عنه، فيُحدِث له ذلك حزنًا، فيشهَق شهقة حزن.

ورابعها: أن يلوح له كمال محبوبه، ويرىٰ الطريق إليه مسدودةً عنه، فيُحدِث ذلك شهقَة أسفٍ وحزنٍ.

وخامسها: أن يكون قد تواریٰ عنه محبوبُهُ، واشتغل بغيره، فذكَّره السماعُ محبوبَه، فلاح له جماله، ورأىٰ الباب مفتوحًا والطريق ظاهرةً، فشهق فرحًا وسرورًا بما لاح له. وبكل حالٍ فسبب الشهقة قوةُ الوارد وضعف المحل عن الاحتمال، والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلًا ولا يظهر عليه، وذلك أقوىٰ له وأدوم؛ فإنه إذا أظهره ضعُفَ أثره وأوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق؛ فإن الشاهق إما صادقٌ وإما سارقٌ وإما منافقٌ »[١].

---

(١) الفوائد (ص/ ٢٨٦- ٢٨٧).

المبحث الأول: الترغيب في الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: « فضَمِنَ الله لمن تَبِعَ القرآن أنْ لا يضل في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة »(١).

وقال خَبَّاب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لرجل: « تقرَّب إلىٰ الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحبُّ إليه من كلامه »(٢).

إن العناية بكتاب الله لا حدَّ لفوائدها، ولا حصر لفضائلها، ولا حدود لأنواعها وصورها، ومن أهم صور العناية بالقرآن الكريم وأنفعها للقلب؛ هي الحرص علىٰ تحقيق الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه، ولأجل تحقيق ذلك، يجدر البدء بذكر بعض الأدلة التي فيها الحث علىٰ الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه والثناء علىٰ الخاشعين، والترهيب من ترك الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن، والتحذير من تعمُّد التقصير في ذلك، ثم يأتي الحديث عن بقية ما يتعلق بالخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن الكريم، وكيف يمكن تحقيقه بفضل الله وتوفيقه.

المطلب الأول: الحث على الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه:

لقد حثَّ اللهُ عبادَه علىٰ الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن، وبيَّن جَلَّوَعَلَا أنَّ الجبالَ علىٰ صلابتها وشدِّتها لو أُنزِلَ عليها القرآن لتصدَّعت وخشعتْ من

(١) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة (ص/ ٦٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٢).

خشية الله سبحانه، ذلك وهي غير محاسبة ولا معاقبة؛ فحريٌّ بابن آدم أن يخشع ويخضع عند تلاوة كتاب الله أو سماعه، لأنه محاسب ومعاقب، وهو أضعف من الجبال وأوهن!

قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقرأ هذه الآية ثم يقول: « أقسم لكم، لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلا صدع قلبه »(١).

وقال أبو عمران الجوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والله لقد صرف إلينا ربنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلىٰ الجبال لحتَّها وجباها »(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قولُه تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حث علىٰ تأمُّل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها علىٰ صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة؛ أي: متشققة من خشية الله، والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق، وقيل: خاشعًا لله بما كلفه من طاعته، ﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أن يعصيه فيعاقبه. وقيل: هو علىٰ وجه المثل

---

(١) الزهد للإمام أحمد (ص/ ٢٥٨).

(٢) الذل والانكسار للعزيز الجبار- ابن رجب- (ص/ ٢٩٨).

للكفار. قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي أنه لو أنزل هذا القرآن علىٰ جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وَعِيدِهِ »[١].

المطلب الثاني: الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه من صفات أهل الإيمان:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

عن عبد الله بن عروة بن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن جدته أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قال: « قلت لها: كيف كان أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعلون إذا قُرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم. قال: فإن ناسًا إذا قُرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشيًّا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان »[٢].

وقال عَبْدُ اللهِ بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، و: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤] »[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٤) [الحشر: ٢١].

(٢) الزهد والرقائق - ابن المبارك - ت الأعظمي (ص٣٥٩).

(٣) رواه البخاري (٧٢٧٧).

عن مصعب بن سعد، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « نزل القرآن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:١-٣]، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣] كل ذلك يؤمَرُون بالقرآن أو يؤدَّبُون بالقرآن، قال خلاد: وزادني فيه قالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد: ١٦] »(١).

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: « والاقشعرار تَغيُّرٌ في جلد الإنسان عند الوَجَل والخوف، وقيل: المراد من الجلود القلوب أي قلوب الذين يخشون ربهم، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: لذكر الله، أي: إذا ذُكِرَتْ آيات العذاب اقشعرَّت جلود الخائفين لله، وإذا ذُكِرَت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) مسند البزار، البحر الزخار (٣/ ٣٥٢) رقم (١١٥٣). وصححه الألباني في صحيح الموارد (١٤٦٢).

وحقيقةُ المعنىٰ: أنَّ قلوبَهم تَقْشَعِرّ من الخوف وتلين عند الرجاء »[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: يشبه بعضه بعضًا في الحسن والحكمة، ويصدِّقُ بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف.

وقال قتادة: يشبه بعضه بعضا في الآي والحروف. **وقيل**: يشبه كتب الله المنزلة علىٰ أنبيائه، لِما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ تُثَنَّىٰ فيه القصص والمواعظ والأحكام وثُنِّي للتلاوة فلا يُمَلُّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. **وقيل**: إلىٰ العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني الإسلام »[٢].

المطلب الثالث: الثناء على الخاشعين عند تلاوة القرآن أو سماعه:

ورد الثناء علىٰ الذين يخشعون عند سماع أو تلاوة كلام الله في أكثر من موضع، فقد أثنىٰ اللهُ علىٰ الأنبياء والعلماء والعُبَّاد والمؤمنين من أهل الكتاب بسبب خشوعهم، وهذا يدل علىٰ فضل الخشوع عند تلاوة كلام الله أو سماعه، ومما ورد في الثناء عليهم بشأن الخشوع ما يأتي:

(١) تفسير البغوي (٤/ ٨٥) [الزمر: ٢٣].

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٤٩) [الزمر: ٢٣].

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة، وحمدًا وشكرًا علىٰ ما هم فيه من النعم العظيمة »(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خرّوا عليها صمًّا وعُميانًا »(٢).

وقال الله - سبحانه - عن العلماء: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعٗا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذه مبالغةٌ في صفتِهم ومدحٌ لهم، وحُقَّ لكل من توسَّم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلىٰ هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن، ويتواضع، ويذِل »(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤٢) [مريم: ٥٨].

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٦٦٩) [مريم: ٥٨].

(٣) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤١) [الإسراء: ١٠٩].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾ [الإسراء: ١٠٧]، أي: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة كزيد ابن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾؛ أي: يسقطون علىٰ وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخرور، وهو السقوط بكونه ﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾؛ أي: عليها؛ لأن الذقن، وهو مجتمع اللحيين، أول ما يحاذي الأرض؛ وكرَّر ذكر الخرور للأذقان؛ لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه، والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾؛ أي: سماعُ القرآن، أو القرآنُ بسماعِهم له ﴿خُشُوعٗا﴾ أي: لينَ قلب، ورُطوبةَ عين »(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في الذين لا يستكبرون عن قبول الحق، بل يُبادرون لقبوله ويفرحون بذلك، من القسيسين والرهبان الذين دخلوا في الإسلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٣].

قال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وصفهم برقة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن؛ كما روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ حين

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣١٣) [الإسراء: ١٠٩].

اجتمع في مجلسه المهاجرون إلىٰ الحبشة والمشركون وهم يقرأونه عليهم: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فيه سورة تنسب إلىٰ مريم، فقرأها إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم:٣٤]، وقرأ سورة طه إلىٰ قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ [طه:٩]؛ فبكىٰ النجاشي، وكذلك فعل قومُه الذين وفدوا علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس:١]؛ فبكوا، ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ تمتلئ من الدمع حتىٰ تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتىٰ يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها؛ أي: تسيل من أجل البكاء، و(من) في ﴿عَرَفُوا۟﴾ لابتداء الغاية، علىٰ أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله، ومن في ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، أو للتبعيض علىٰ أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله، وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنَة؟! »(١).

وقد بين ربُّنا - سبحانه - أن الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن من صفات الذين يخشون ربهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣].

---

(١) تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٤٦٩) [المائدة: ٨٣].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذا نعتُ أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان »(١).

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]: « فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنها تقشعر من وعيده وتلين من وعده، قاله السدي.

الثاني: أنها تقشعر من الخوف وتلين من الرجاء، قاله ابن عيسىٰ.

الثالث: تقشعر الجلود لإعظامه، وتلين عند تلاوته »(٢).

وأخبر تعالىٰ أنه من صفات المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الوجل: الخوف والفزع، والمراد: أن حصول الخوف من الله، والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان، المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان »(٣).

وأخبر تعالىٰ أنه من صفات المخبتين، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٨٦) [الزمر: ٢٣].

(٢) تفسير الماوردي - النكت والعيون (٥/ ١٢٣) [الزمر: ٢٣].

(٣) فتح القدير (٥/ ١٢٣) [الأنفال: ٢].

المبحث الثاني: الزجر والترهيب من ترك الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ **[الحديد: ١٦]**، ففي الآية زجر شديد عن التقصير أو التأخير في تحقيق الخشوع، ولذلك ورد عن الصحابة ما يدل علىٰ هذا المعنىٰ، فمن ذلك:

عن ابْن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « **ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعُ سِنين** »(١).

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير، أن أباه أخبره **أنه لم يكن بين إسلامهم، وبين أن نزلت هذه الآية، يعاتبهم الله بها، إلا أربعُ سنين**(٢).

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والمعنىٰ: أن الله عَزَّوَجَلَّ ينهىٰ المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارىٰ الذين قست قلوبهم لمَّا طال عليهم الدهر »(٣).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد وبَّخ الله من لا يخشع قلبه لسماع كلامه وتدبره، وقد سمع كثير من الصالحين هذه الآية تُتلىٰ، فأثَّرتْ فيهم آثارًا متعددة،

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٢). وحسنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار (٣/ ١٩٥).

(٣) تفسير البغوي (٨/ ٣٧). [سورة الحديد: ١٦].

فمنهم من مات عند ذلك؛ لانصداع قلبه بها، ومنهم من تاب عند ذلك، وخرج عما كان فيه »[١].

ورُوي عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: « يا ابن آدم، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة أو حدثتك بها نفسك، فاذكر عند ذلك ما حملك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت وتصدعت! أما سمعته يقول: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦] فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها، وتعتبر بها، وتزدجر عن معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه وآتاك من حكمه، لأنَّ عليك الحساب ولك الجنة أو النار »[٢].

وقال القرطبي: « وقيل: إنه خطاب للأمة، وأن الله تعالىٰ لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله. والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتًا، فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر علىٰ رده إن عصىٰ، لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب »[٣].

❖❖❖❖❖

(١) الذل والانكسار للعزيز الجبار- لابن رجب (ص/ ٢٩٨).

(٢) تفسير ابن رجب (٢/ ١٦) [المؤمنون: ٢].

(٣) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٤٥) [الحشر: ٢١].

المبحث الثالث: بيان أهمية التدبر لتحقيق الخشوع

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبُّره، أحبُّ إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل علىٰ ذلك، والسنة، وأقوال أئمة المسلمين »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لو علم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتدبر، لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فقراءة آيَة بتفكر وتَفَهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتَفَهُّم، وأنفع للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب ... ولهذا أنزل الله القرآن؛ لِيُتَدَبَّر ويُتَفكَّر فيه، ويُعمَلَ به، لا لمجرد الإعراض عنه »(٢).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن أعظم ما يُتَقَرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ من النوافل كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكُّر وتدبر وتَفَهُّم »(٣).

إنَّ التدبر هو الوسيلة النافعة، والطريقة الناجعة لتحقيق الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه، إذْ كيف يخشع من لم يتدبَّر القرآن ولم يقف علىٰ معانيه؛ ولذلك جاء في آيات كثيرة الحثُّ علىٰ التدبر، وبين ربُّنا أنَّ القرآن أُنزِلَ للتدبُّر في

---

(١) أخلاق أهل القرآن [ص/ ١٦٩].

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٢).

معانيه والعمل بما فيه، وللتدبُّر فوائد كثير كزيادة الإيمان وصلاح القلوب، ونحو ذلك مما سيأتي ذكره في المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى التدبُّر:

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ يعني: أفلا يتفكرون في القرآن، والتدبر: هو النظر في آخر الأمر، ودبر كل شيء: آخره »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأمَّا (التأمُّل في القرآن) فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه وجمعُ الفكر علىٰ تدبُّره وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله »(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يأمر تعالىٰ بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك، فإنَّ تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم »(٣).

المطلب الثاني: الحث على تدبر القرآن:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) تفسير البغوي [النساء: ٨٢].

(٢) مدراج السالكين (٢/ ٨٣).

(٣) تفسير السعدي (٢/ ٢٢٢) [النساء: ٨٢].

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: « أفلا يتدبرون القرآن؛ فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي، وأن أحدًا من الخلائق لا يقدر عليه »(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: « ودلت هذه الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] علىٰ وجوب التدبر في القرآن؛ ليعرف معناه »(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهُّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] ثم قال:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلًا مختَلَقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم، ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾؛ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من

(١) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٨٢).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠) [النساء: ٨٢].

عند الله، كما قال تعالىٰ مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]؛ أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلىٰ المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلىٰ المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالىٰ الراسخين وذم الزائغين »(١).

وقال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « إذاً والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله، لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك »(٢).

المطلب الثالث: تدبُّر القرآن من أعظم مقاصد إنزاله:

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، قال الشيخ محمد الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: وأمَّا كون تَدبُّر آياته، من حِكَم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بِالتَّحْضِيضِ علىٰ تَدبُّره، وتوبيخ من لم يتدبره؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٤) [النساء: ٨٢].

(٢) تفسير الطبري - جامع البيان (٢٢/ ١٧٩) [المؤمنون: ٦٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨] »(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ للإنكار والمعنىٰ: أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (أم) هي المنقطعة، أي: بل أعلىٰ قلوب أقفالها فهم لا يفهمون ولا يعقلون »(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكلما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] »(٣).

---

(١) أضواء البيان [سورة ص: ٢٩].

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٦) [سورة محمد: ٢٤].

(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٢٢) [سورة النساء: ٨٢].

وقال السُّلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سمعت الإمام أبا عثمان المغربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: ليكن تدبُّرك في الخلق تدبُّر عبرة، وتدبُّرك في نفسك تدبُّر موعظةٍ، وتدبرك في القران تدبر حقيقة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ جرَّأكَ به على تلاوته، ولولا ذلك لكلَّتِ الألْسُنُ عن تلاوته »(١).

المطلب الرابع: من فوائد تدبُّر القرآن:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وبالجملة فلا شيْء أنفع للقلب من قراءَة القرآن بالتدبر والتَّفَكُّر؛ فَإِنَّه جَامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورث المحبة والشوق، وَالخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرِّضَا والتفويض وَالشكر وَالصبر، وَسَائِر الأحوال الَّتِي بها حَيَاة القلب وكماله. وكذلك يزْجر عَن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه »(٢).

وقال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما حظ التجربة؛ فوالله الذي لا إله إلّا هو، ما رأيت- وأنا ذو النفس الملأىٰ بالذنوب والعيوب- أعظم إِلَانةً للقلب واستدرارًا للدمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث علىٰ التوبة؛ من تلاوة القرآن وسماع القرآن »(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٢٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٣) تفسير ابن باديس [ص/ ٣٩].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو علىٰ الحقيقة، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلىٰ درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترىٰ الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]؛ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا »(١).

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٢٢) [النساء: ٨٢].

وقال ابن القيم في النونية:

فَتدبّرِ القُرآنَ إن رُمتَ الهُدى ... فالعِلمُ تحتَ تَدبُّر القُرآنِ [1]

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (المتن/ ٥٥) رقم البيت (٧٣٦).

المبحث الرابع: الأسباب المعينة على الخشوع عند قراءة القرآن

قد جعل اللهُ لكل شيء سببًا، فمن أخذ بالأسباب فُتحت له الأبواب، ووصل إلىٰ الهدف المنشود، وتحقق له المقصود، وأسبابُ الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن كثيرة، منها عامة في جميع العبادات، ومنها ما يتعلق به خاصة، وهذا ذكرٌ لبيان أهم تلك الأسباب:

١- إصلاح النية عند قراءة القرآن:

إن قراءة القرآن عبادة، والعبادات مبناها علىٰ الإخلاص؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].

فمن أَخلَص خُلِّصَ، وأُعين علىٰ تحقيق الخشوع، وعلىٰ إقامة العبادات حق القيام.

والأعمال إنما تكون صحيحة مقبولة بصلاح نية العامل؛ فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها، أو إلىٰ امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»(١).

(١) رواه البخاري (١).

فلا يُطلب بالقرآن شرف المنزلة في الدنيا، أو رئاسة، أو مال، أو وجاهة، أو ثناء عند الناس، أو غير ذلك من أعراض الدنيا الزائلة، فمن صرف نيته إلىٰ شيء من ذلك خُشي عليه من عذاب الله الذي دلَّ عليه حديث أبي هريرة الآتي، الذي أبكىٰ معاوية عندما حُدِّث به، وبكىٰ أبو هريرة قبل التحديث به.

مطلب: الترهيب من سوء نية القارئ والمتعلم:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من طلب العلم ليماريَ به السفهاء أو ليُباهيَ به العلماء أو ليصرفَ وجوهَ الناسِ إليه فهو في النار**»(١).

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله «**ليماري به السفهاء**» أي: يجادل به ضعاف العقول، وقوله «**أو ليباهي به**» أي: يفاخر، وقوله: «**أو ليصرف وجوه الناس إليه**» أي: ينوي به تحصيل المال والجاه وصرف وجوه الناس العوام إليه وجعلهم كالخدم له، أو جعلهم ناظرين إذا تكلم متعجبين من كلامه إذا تكلم مجتمعين حوله إذا جلس، وقوله «**فهو في النار**» معناه: أنه يستحقها بلا دوام، ثم فضل الله واسع فإن شاء عفا بلا دخول »(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تعلَّموا العِلمَ لتُباهوا بِهِ العُلماءَ، ولا لتُماروا بِهِ السُّفَهاءَ، ولا تخيَّروا بِهِ**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٢). ورواه الترمذي بنحوه (٢٦٥٤) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه (١/ ١١١) حديث رقم (٢٥٣).

المَجالسَ، فمن فعلَ ذلِكَ فالنَّارُ النَّارُ»(١). وفي لفظ «ولا لِتَجْتَرِئوا به المجالسَ، فمن فعل ذلك فالنارُ النارُ»(٢).

قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «لا تعلَّموا» أي: لا تتعلموا - بالتاءين - فحذفت إحداهما، وقوله: «ولا تخيَّروا بِهِ المَجالسَ» أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها، وقوله: «فالنَّارُ» أي: فله النار أو فيستحق النار »(٣).

حديث عظيم جامع:

عن عقبة بن مسلم، أنَّ شُفَيًّا الأصبحي، حدَّثَ أنه، دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتىٰ قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أسألك بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلًا ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثا

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤) وابن حبان في صحيحه (٧٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٨).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٧٠).

(٣) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه، حديث رقم (٢٥٤).

حدثنيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا علىٰ وجهه فأسندته علي طويلًا، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا كان يوم القيامة ينزل إلىٰ العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت علىٰ رسولي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانًا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتىٰ بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتىٰ لم أدعك تحتاج إلىٰ أحد؟ قال: بلىٰ يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالىٰ: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذاك، ويؤتىٰ بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتىٰ قتلت، فيقول الله تعالىٰ له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذاك»، ثم ضرب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ركبتي فقال: «يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

وقال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفيًّا، هو الذي دخل علىٰ معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيّافًا لمعاوية فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: « قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاءً شديدًا حتىٰ ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦] »(١).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « في الحديث دليل علىٰ تغليط تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلىٰ الحث علىٰ وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] وفيه: أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالىٰ بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء علىٰ العلماء وعلىٰ المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمول علىٰ من فعل ذلك لله تعالىٰ مخلصا »(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٢) وصححه الألباني في صحيح الموارد (٢١١٩) وأصله في مسلم (١٩٠٥).

(٢) شرح مسلم (١٣/ ٥١) حديث رقم (١٩٠٥).

مطلب آخر: ذم الذين يتأكلون بالقرآن ويتعجلون أجره:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**يكون خلف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيًّا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن، لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر**»، قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: «**المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به**»(١).

وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والأعجمي، فقال: «**اقرءوا فكلٌّ حسن وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه**»(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: « وفي الحديث رفع الحرج وبناء الأمر علىٰ المساهلة في الظاهر، وتحري الحسبة والإخلاص في العمل، والتفكر في معاني القرآن، والغوص في عجائب أمره »(٣).

وقال العظيم آبادي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «**يتعجلونه**» أي: ثوابه في الدنيا «**ولا يتأجلونه**» بطلب الأجر في العقبىٰ، بل يؤثرون العاجلة علىٰ الآجلة،

---

(١) رواه أحمد (١١٣٤٠) وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (١١٣٤٠).

(٢) رواه أبو داود (٨٣٠) وأحمد (١٤٨٥٥) وصححه الوادعي في الصحيح المسند من دلائل النبوة (٥٨٨).

(٣) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٥/ ١٦٩١).

ويتأكلون ولا يتوكلون، وقوله: «وسيجيء أقوام يقيمونه» أي: يصلحون ألفاظه وكلماته، ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته «كما يقام القدح» أي: يبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة لأجل الرياء والسمعة والمباهاة والشهرة »[(١)].

٢- أن يتذكر قارئ القرآن أنه يقرأ كلام الجبار سبحانه:

قال ابن قُدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة »[(٢)].

وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا كان كلام العالم أولىٰ بالاستماع من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرَّؤُوم أحق بالاستماع من كلام غيرها، فالله أعلم العلماء وأرحم الرحماء، فكلامه أولىٰ كلام بالاستماع، والتدبر، والفهم »[(٣)].

وقال الخَوَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قلت لنفسي: يا نفس اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة »[(٤)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولكن السماع لكلامه كالسماع منه - سبحانه -؛ فإنه كلامه الذي تكلم به حقًّا، فمن سمعه فليُقَدِّر نفسه كأنه يسمعه من الله »[(٥)].

---

(١) عون المعبود (٣/ ٤٢) [حديث ٨٣٠].

(٢) مختصر منهاج القاصدين [ص/ ٦٨].

(٣) فهم القرآن ومعانيه للحارث المحاسبي [ص/ ٢٤٧].

(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٨٠).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٣).

٣- الاستعاذة بالله من الشيطان قبل القراءة:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: « فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان، فيصدك عن تدبره، والعمل بما فيه، وليس يريد استعذ بعد القراءة، بل هو كقولك إذا أكلت فقل بسم الله، أي: إذا أردت أن تأكل »(١).

٤- حسن الترتيل والتغني بالقرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَلٍ وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اقرأه حرفًا حرفًا. وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحب الناس في القراءة إلىٰ الله أعقلهم عنه »(٢).

وسمع علقمةُ رجلًا يقرأ قراءةً حسنة؛ فقال: « لقد رتَّل القرآن، فداه أبي وأمي »(٣).

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٤) [سورة النحل: ٩٨].

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٧) [سورة المزمل: ٤].

(٣) المصدر السابق (١٩/ ٣٨) [سورة المزمل: ٤].

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأقلُّ الترتيل تركُ العَجَلة في القرآن عن الإبانة، وكلما زاد علىٰ أقلِّ الإبانة في القراءة كان أحبَّ إليَّ ما لم يبلُغْ أن تكونَ الزيادةُ فيها تمطيطًا »(١).

وقال أبو بكر بن طاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « تدبَّرْ في لطائف خطابه، وطالبْ نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفَهْمِ معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه »(٢).

ولأهمية هذا السبب وحاجة كل القراء إليه تم إضافة بعض ما يُحتاج إليه في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأمر بتحسين الصوت بالقرآن:

عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعلموا كتاب الله وتعاهدوه، وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلُّتًا من المَخاض في الْعُقُلِ**»(٣).

وعن البراء بن عازبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**زيِّنوا القُرآنَ بأصواتِكمْ**»(٤).

---

(١) الأم للشافعي (١/ ١٣٢).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٨) [سورة المزمل: ٤].

(٣) رواه أحمد (١٧٣١٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٦٤).

(٤) رواه أبو داود (١٤٦٨) وابن ماجه (١٣٤٢) والنسائي (١٠١٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٤٩)، والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٠).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « معناه زينوا أصواتكم بالقرآن، هكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث، وزعموا أنه من باب المقلوب، كما قالوا: عرضت الناقة علىٰ الحوض، أي: عرضت الحوض علىٰ الناقة، وكقولهم: إذا طلعت الشعرىٰ واستوىٰ العود علىٰ الحرباء، أي: استوىٰ الحرباء علىٰ العود، وعن شعبة قال: نهاني أيوب أن أُحدِّث: «زينوا القرآن بأصواتكم» قلت: ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدَّم الأصوات علىٰ القرآن، وهو الصحيح، ... عن البراء بن عازب أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن» والمعنىٰ: اشغلوا أصواتكم بالقرآن، والهجوا بقراءته واتخذوه شعارًا وزينة »[(١)].

وعن البراء بن عازبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «حسِّنوا القرآنَ بأصواتِكم، فإنَّ الصوتَ الحسنَ يزيدُ القرآنَ حُسْنًا»[(٢)].

وفي رواية: «حُسن الصوت؛ زينة القرآن»[(٣)].

---

(١) معالم السنن (١/ ٢٩٠).

(٢) رواه الدارمي (٣٥٤٤) والحاكم في المستدرك (٢١٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٤٥).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩٨٨١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣١٤٤).

المطلب الثاني: الثناء على ذوي الأصوات الحسنة والإشادة بهم وبأصواتهم:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما أذِنَ اللهُ لشيء كأَذَنِهِ لنبيٍ يتغنَّىٰ بالقرآن يجهرُ به**»(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: « وقوله: «**أذن**» أي: استَمَع. والحاصل: أن لفظ «**أَذِن**» بفتحة ثم كسرة في الماضي، وكذا في المضارع مشترك بين الإطلاق والاستماع؛ تقول: أَذِنْتُ آذَنُ. بالمد فإن أردت الإطلاق فالمصدَرُ بكسرة ثم سكون، وإن أردت الاستماع فالمصدر بفتحتين »(٢).

وعن البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقرأ في العشاء: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾ [التين:١] **فما سمعت أحدًا أحسنَ صوتًا أو قراءةً منه** »(٣).

وعن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي موسىٰ: «**لو رأيتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود**»(٤). قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: « والمراد بالمزمار: الصوت الحسن، وأصله الآلة، أطلق اسمه علىٰ الصوت للمشابهة »(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٣) ومسلم (٧٩٢).

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٧٥٤٦) ومسلم (٤٦٤).

(٤) رواه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣).

(٥) فتح الباري (٩/ ٩٣) حديث رقم (٥٠٤٨).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: « أبطأت علىٰ عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة بعد العشاء، ثم جئتُ فقال: أين كنت؟ قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام وقمتُ معه حتىٰ استمع له، ثم التفت إلي فقال: «هذا سالم مولىٰ أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا» »[1].

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: « أجمع العلماء علىٰ استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها »[2].

المطلب الثالث: الترهيب من ترك التغني بالقرآن:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ليس منَّا مَنْ لم يَتغنَّ بالقُرآن »[3].

قال الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ: « هذا يتأول علىٰ وجهين:

أحدهما: تحسين الصوت.

والوجه الثاني: الاستغناء بالقرآن من غيره، وإليه ذهب سفيان بن عيينة، ويقال: تغنىٰ الرجل بمعنىٰ استغنىٰ.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) وأحمد (٢٥٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ٨٠) حديث رقم (٧٩٣).

(٣) رواه أبو داود (١٤٦٩) وابن ماجه (١٣٣٧) والدارمي (١٥٣١) وأحمد (١٤٧٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٦٩)، والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٨٤).

وفيه وجه ثالث: قاله ابن الأعرابي؛ أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سألت ابن الأعرابي عن هذا؟ فقال: إن العرب كانت تتغنىٰ بالركباني إذا ركبت الإبل وإذا جلست في الأفنية وعلىٰ أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن يكون القرآن هجيراهم مكان التغني بالركباني »(١).

وعن عبيد الله بن أبي يزيد قال: « مر بنا أبو لبابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فاتبعناه حتىٰ دخل بيته، فدخلنا عليه، فإذا رجل رثُّ البيتِ رثُّ الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ليسَ منَّا مَنْ لم يتَغنَّ بالقُرآنِ**». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: **يُحسِّنُه** ما استطاع »(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والصحيح: أنه من التغني بمعنىٰ تحسين الصوت، وبذلك فسره الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: **يحسنه** بصوته ما استطاع »(٣).

٥- التأني وترك الإسراع المخل بالتدبُّر والخشوع:

قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ١٠٦﴾ **[الإسراء: ١٠٦]**.

---

(١) عون المعبود (٤/ ٢٤٠) حديث رقم (١٤٦٩).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧١) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج زاد المعاد (١/ ٤٦٦).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٤١).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي علىٰ تَرَسُّلٍ في التلاوة وترتيلٍ، قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج، فيعطي القارئُ القراءةَ حقَّها مِنْ ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن، من غير تلحين ولا تطريب مؤدٍّ إلىٰ تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان، فإن ذلك حرام »(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: علىٰ ترسُّلٍ وتمهُّلٍ في التلاوة؛ فإن ذلك أقرب إلىٰ الفهم وأسهل للحفظ »(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث لم يَفْقَهْهُ**»(٣).

قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»؛ أي: لم يفهم ظاهر معانيه، وأما فهم دقائقه فلا يفي به الأعمار، والمراد نفي الفهم لا نفي الثواب، كذا في المجمع »(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز »(٥).

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٣٩) [الإسراء: ١٠٦].

(٢) فتح القدير (٣/ ٣١٣) [الأسراء: ١٠٦].

(٣) رواه أحمد (٦٨١٠) والترمذي(٢٩٤٩) وأبو داود (١٣٩٤) وصححه الألباني في الصحيحة (٥/ ٦٠١).

(٤) تحفة الأحوذي (٨/ ٢٢١) [حديث/ ٢٩٤٩].

(٥) مصنف عبد الرزاق (٣/ ٣٥٣) رقم (٥٩٤٦).

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: « لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكَّر فيها أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن هذْرمةً »(١).

مطلب: الزجر عن الإسراع في القراءة الذي بسببه يفوت الخشوع والتدبر:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ القرآن في كل شهر**» قال: قلت: إني أجد قوَّةً قال: «**فاقرأه في عشرين ليلة**» قال: قلت: إني أجد قوة، قال: «**فاقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك**» (٢).

عن أبي وائل قال: « جاء رجل يقال له نَهيكُ بنُ سِنان إلىٰ عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أبا عبد الرحمن! كيف تقرأ هذا الحرف، ألفا تجده أم ياء: من ماء غير آسن، أو من ماء غير يا سن؟ قال فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه؛ نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن بينهن، سورتين في كل ركعة »(٣).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « معناه: أن الرجل أخبر بكثرة حفظه وإتقانه، فقال ابن مسعود: تهذُّه هذًّا، وهو بتشديد الذال، وهو شدة الإسراع والإفراط في

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٧٢).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٤) ومسلم (١١٥٩).

(٣) رواه البخاري (٧٧٥) ومسلم (٨٢٢).

العجلة، ففيه النهي عن الهذِّ، والحث علىٰ الترتيل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء »(١). وعند أبي داود بلفظ: «أَهَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَنَثْرًا كَنَثْرِ الدَّقَلِ؟»».

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الهَذُّ: سرعة القراءة، وإنما عاب ذلك عليه لأنه إذا أسرع القراءة ولم يرتلها فاته فهم القرآن وإدراك معانيه »(٢).

وفي النهاية: « أراد أتهذ القرآن هذًّا فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر. والهذُّ: سرعة القطع ونصبه علىٰ المصدر »(٣).

وقال العظيم آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «ونثرًا كنثر الدقل» أي: كما يتساقط الرطب اليابس من العذق إذا هز. «والدقل»: رديء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورًا.

قاله في النهاية: «كان يقرأ النظائر» هي السور المتقاربة في الطول»(٤).

مطلب آخر: نصيحة بازية مهمة للسادة الأئمة:

قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الواجب علىٰ الأئمة أن يتقوا الله، وأن يطمئنوا في صلاتهم، وفي ركوعهم وسجودهم، وأن يرتلوا القراءة ويحسنوا أصواتهم بها حتىٰ يؤدوا كلام الرب بتلاوة حسنة وقراءة واضحة تخشع لها القلوب.

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ١٠٥) [حديث/ ٨٢٢].

(٢) معالم السنن (١/ ٢٨٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٥).

(٤) عون المعبود (٤/ ١٩١) حديث رقم (١٣٩٦).

هذا هو الواجب علىٰ الأئمة أن يجتهدوا في الطمأنينة والخشوع في الصلاة حتىٰ يستفيدوا ويستفيد من خلفهم، وحتىٰ يؤدوها كما شرع الله، وقد قال الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وقد أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسيء في صلاته أن يطمئن، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّىٰ تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا...» (١). الحديث.

فالواجب علىٰ الأئمة أن يُعنوا بهذا الأمر، وأن يطمئنوا في ركوعهم وسجودهم وبعد الركوع وبين السجدتين، وأن يعنوا بالقراءة فيقرأوا قراءة واضحة بينة ليس فيها خفاء ولا إسقاط شيء من الحروف، وأن يمكنوا من وراءهم من القراءة بعد الفاتحة وإن كانت غير واجبة، ولكن الأفضل في الصلاة السرية أن يقرأ المأموم الفاتحة وما يتيسر معها مع إمامه، والإمام كذلك يقرأ سورة بعد الفاتحة أو آيات في السرية والجهرية في الأولىٰ والثانية، لكن في السرية يقرأ المأموم زيادة علىٰ الفاتحة، وفي الجهرية تكفيه الفاتحة وينصت للإمام، فإذا لم يتمكن المأموم من أن يقرأ مع الفاتحة شيئًا لأن الإمام استعجل فلا يضره ذلك، لأن الواجب الفاتحة وما زاد عليها ليس بواجب فلا يضر تركه

---

(١) رواه البخاري (٦٢٥١) ومسلم (٣٩٧).

ولا يبطل الصلاة، ولكن يجب أن يعتني بالركوع والسجود من جهة الطمأنينة وبين السجدتين وبعد الركوع كذلك، هذه أمور عظيمة وفريضة لا بد منها في حق الجميع: الإمام والمأموم والمنفرد، والله ولي التوفيق »(١).

٦- الجمع بين النظر في الآيات الكونية والشرعية:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: « بِتُّ في بيت ميمونةَ ليلةً، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندها، لأنظرَ كيف صلاةُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالليل، فتحدَّث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أهله ساعةً ثم رقدَ، فلما كان ثُلُثُ الليل الآخر، أو بعضُه، قعد فنظر إلىٰ السماء، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قام فتوضأ واستنَّ، ثم صلىٰ إحدىٰ عشْرَة ركعةً، ثم أذَّن بلالٌ بالصلاة، فصلىٰ ركعتين، ثم خرج فصلىٰ للناس الصبحَ »(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وقوله: فخرج فنظر إلىٰ السماء ثم تلا هذه الآية في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ الآيات، فيه أنه يستحب قراءتها عند الاستيقاظ في الليل مع النظر إلىٰ السماء لما في ذلك من عظيم التدبر، وإذا تكرر نومه واستيقاظه وخروجه؛

---

(١) الدرر الثرية من الفتاوىٰ البازية (ص/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٢) ومسلم (٢٥٦).

استحب تكريره قراءة هذه الآيات كما ذكر في الحديث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم »[(١)].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله** عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

٧- الإنصات وحسن الاستماع لقراءة القرآن:

أمر الله بالاستماع والإنصات للقرآن إذا قُرئ علينا، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾ [**الأعراف: ٢٠٤**].

قال الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يُقال: ما الرحمةُ إلىٰ أحَدٍ بأسرعَ منها إلىٰ مُستَمِعِ القرآن؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [**الأعراف: ٢٠٤**]، ولعلَّ من الله واجبةٌ »[(٣)].

وقال المفسر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذا الأمر عامٌّ في كل من سمِع كتابَ الله يتلىٰ، فإنه مأمورٌ بالاستماع له والإنصات، والفرقُ بين الاستماع والإنصات؛ أن الإنصات في الظاهر بترك التحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٣/ ١٤٦) حديث رقم (٢٥٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٥٦) والبيهقي في الشعب (١٢٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٦).

(٣) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة (ص/ ٦١).

وأما الاستماع له: فهو أن يُلقيَ سمعه، ويُحضرَ قلبه ويَتدبَّرَ ما يستمعُ، فإنَّ من لازَمَ علىٰ هذين الأمرين حين يُتلىٰ كتابُ الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجدِّدًا، وهدىٰ متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتَّب اللهُ حصولَ الرحمة عليهما، فدلَّ ذلك علىٰ أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له ويُنْصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامُه، فإنه مأمور بالإنصات، حتىٰ إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولىٰ من قراءته الفاتحة، وغيرها »[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « حُسْن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٨]، وذمَّ علىٰ خلاف هذا الوصف فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: ٤٧]؛ فمدح المُنْصِت لاستماع كلامه مع حضور العقل وأَمَر عباده بذلك أدبًا لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤] »[٢].

---

(١) تفسير السعدي (٤٠٦) [الأعراف: ٢٠٤].

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦) [الأعراف: ٢٠٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: استمَع ما يقالُ له، يقال: ألق سمعك إليّ، أي: استمِعْ مني، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾؛ أي: شاهد القلب والفهم، وليس بغافل، ولا ساهٍ »(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ المعنىٰ: أنه ألقىٰ السمع إلىٰ ما يتلىٰ عليه من الوحي الحاكي لما جرىٰ علىٰ تلك الأمم، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ أي: حاضرُ الفَهْمِ، أو حاضرُ القلبِ لأنَّ من لا يفهمُ في حكم الغائب، وإنْ حضرَ بجسمه فهو لم يحضرْ بِفَهْمِه؛ قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: وقلبه حاضرٌ فيما يسمعُ. قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي لا يكونُ حاضرًا وقلبه غائبٌ »(٢).

٨- اختيار الوقت المناسب:

وأفضله ما كان ليلًا، وأفضل ذلك ما كان بعد نوم لمن وُفِّق له، حيث قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦].

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ١٧٠) [سورة ق: ٣٧].

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٩٥) [ق: ٣٧].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: « أي: هو أجدر أن يفقه القرآن »(١).

ويقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن مُدَارَسَة جبريل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في كل ليلة من رمضان: « المقصود من التلاوة: الحضور والفهم؛ لأن الليل مَظِنَّة ذلك؛ لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية »(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ينبغي للمرء أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، وفي صلاة الليل أكثر، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة، وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والمُلْهِيَات والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المُحْبِطَات، مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء بالرسول كان ليلًا »(٣).

٩- القراءة في الصلاة:

قال تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) رواه أبو داود (١٣٠٤) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٠٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٧٤).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٥٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تفضل صلاةُ الجميع صلاةَ أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءًا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فاقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾(١).

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ يعني صلاة الفجر، سمَّىٰ صلاة الفجر قرآنًا لأنها لا تجوز إلا بقرآن، وانتصاب قرآن من وجهين؛ **أحدهما**: أنه عطف علىٰ الصلاة؛ أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء، وقال أهل البصرة: علىٰ الإغراء، أي: وعليك قرآن الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار »(٢).

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن القراءة في الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة ... ولكن من حصل له نشاط وفهم للقراءة دون الصلاة؛ فالأفضل في حقه ما كان أنفع له »(٣)، ومعلوم عند العابدين الصالحين قديمًا وحديثًا أن حضور القلب في الصلاة أكثر منه خارج الصلاة، ومن جرب مثل تجربتهم عرف مثل معرفتهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨) ومسلم (٦٤٩).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ١٤٨) [الإسراء: ٧٨].

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ٦٢).

١٠- جمع الهمة وحضور القلب:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: أي: فهم وعقل، ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾؛ أي: استمعَ كتاب الله، وهو شاهدُ القلب والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهو إشارةٌ إلىٰ المانع من حصولِ التأثير، وهو سهوُ القلب، وغيبتُهُ عن تعقُّلِ ما يُقال له والنظرِ فيه وتأمُّلِه، فإذا حصل المؤثِّرُ - وهو القرآنُ - والمحلُّ القابلُ، وهو القلبُ الحيُّ، ووُجِد الشرطُ، وهو الإصغاءُ، وانتفىٰ المانعُ وهو اشتغال القلبِ وذهولُه عن معنىٰ الخطاب وانصرافُه عنه إلىٰ شيءٍ آخر؛ حَصَل الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكُّرُ »(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: قلبٌ عظيمٌ حيٌّ، ذكيٌّ، زكيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع، وكذلك من ألقىٰ سمعه إلىٰ آيات الله، واستمعها، استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضر، فهذا له أيضًا ذكرىٰ وموعظة، وشفاء وهدىٰ.

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة (ص/ ٣٦٢).

(٢) الفوائد (ص/ ٣).

وأما المُعرض، الذي لم يُلقِ سمعَه إلىٰ الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفُه ونعتُه»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعَك، واحضُرْ حُضورَ من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك علىٰ لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق:٣٧] وذلك أنَّ تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا علىٰ مُؤثِّرٍ مُقْتَضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثرِ، وانتفاء المانع الذي يمنعُ منه؛ تضمَّنَتِ الآيةُ بيانَ ذلك كلِّه بأوجزِ لفظٍ وأبينِهِ وأدلِّهِ علىٰ المُراد. فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّمَ من أول السورةِ إلىٰ هاهنا، وهذا هو المؤثِّرُ.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمرادُ به القلبُ الحيُّ الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس:٦٩-٧٠] أي: حيَّ القلبِ.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجَّه سمعَه وأصغَىٰ حاسَّةَ سمعِهِ إلىٰ ما يُقال له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ١١٢٣) [سورة ق: ٣٧].

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهدُ القلبِ حاضرٌ غيرُ غائبٍ »[١].

١١- فَهْمُ معاني آيات القرآن الكريم:

قال إياس بن معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التَّفسير: كمَثَل قومٍ جاءهم كتاب من مَلِكِهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعةٌ لا يدرون ما في الكتاب، ومَثَلُ الذي يعرف التَّفسير: كمَثَل رجلٍ جاءهم بمصباح، فقرؤوا ما في الكتاب »[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يدخل في معنىٰ قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»؛ تعليمُ حروفِه ومعانيه جميعًا، بل تعلُّم معانيه هو المقصود الأوَّل بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان؛ كما قال جُندب بن عبد الله، وعبد الله ابن عمر وغيرهما: تعلَّمنا الإيمان، ثمَّ تعلَّمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا »[٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وينبغي له أن يَتَعَلَّم أحكام القرآن، فيَفْهَم عن الله مراده، وما فرض عليه، فيَنْتَفِع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا »[٤].

---

(١) الفوائـــد (ص/ ٣و٤).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ٤٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٣ / ٤٠٣).

(٤) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإذا علمت - أيها المسلم - أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله؛ ليُستضاء به، ويُهْتَدىٰ بهُداه في أرضه، فكيف ترضىٰ لبصيرتك أن تعمىٰ عن النور؟!... يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علمًا صحيحًا »(١).

وقد أحسن القائل:

إنَّ العلومَ وإنْ جَلَّتْ مَحاسِنُها ... فَتَاجُها مَا بِهِ الإيمانُ قَدْ وَجَبَا
هُوَ الكِتَابُ العَزِيزُ، اللهُ يَحْفَظُهُ ... وبعدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَّجَ الكُرَبَا
واتْلُ بِفَهْمٍ كتابَ اللهِ، فِيْهِ أَتَتْ ... كُلُّ العُلومِ، تَدَبَّرْهُ تَرَ العَجَبَا(٢)

١٢- الوقوف عند المعاني:

والمقصود بذلك: أن يقف القارئ عند المعنىٰ، متأمِّلاً له، ومتفكِّراً فيه؛ قبل أن يجاوزه إلىٰ غيره، ومن أبلغ الشَّواهد علىٰ ذلك وأوضحها حديث **حذيفة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: « صليت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فافتتح البقرة. فقلت: يركع عند المائة. ثم مضىٰ، فقلت: يصلي بها في ركعة! فمضىٰ، فقلت: يركع بها! ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٦٥ – ٤٦٦).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٤١).

يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلىٰ»، فكان سجوده قريبًا من قيامه »[1]. وهذا من صور الوقوف عند المعاني.

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واصفًا الوقوف المفيد عند المعاني: « أنْ يشغل قلبَه بالتَّفكير في معنىٰ ما يلفظ به، فيعرف معنىٰ كلِّ آية، ويتأمَّل الأوامر والنَّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإنْ كان ممَّا قصر عنه فيما مضىٰ اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمةٍ استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب »[2].

وقد كان السلف يقفون عند معاني الآيات وقتًا طويلًا، بل ربما يُمضي بعضهم ليلَه كلَّهُ متفكِّرًا في آية واقفًا عند معناها، ومن ذلك:

رُويَ عن عامر بن عبد القيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قرأ في ليلة سورة غافر، فلما انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: ١٨] فلم يزل يرددها حتىٰ أصبح[3].

---

(١) رواه مسلم (٧٢٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٢٨٣).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٨٧).

وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لأن أقرأ: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١] أرددهما وأتفكر فيهما، أحبُّ من أن أبيت أَهُذ القرآن »[١].

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « البكاء مستحب مع القراءة وعندها، وطريقُهُ في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد، والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء - كما يحضر الخواص - فليبك على فقد ذلك، فإنه من أعظم المصائب »[٢].

١٣- فهم المقصد من إنزال القرآن:

إن بعض الناس يظن أن القرآن له أوقات معينة، ومناسبات محدودة؛ فيعتقدون أن وقته في الصباح فقط، أو أنه يُقرأ عند الموت، أو في مقدمة المناسبات ونحو ذلك، وهذا الحصر بهذه الأحوال يُعتبر من الجفاء مع هذا الكتاب العزيز، لأن القرآن منهج حياتنا، ومهجة أعيننا، ونور قلوبنا، ودليلنا إلىٰ كل خير، وزاجرنا عن كل شر، وشفاء من الأمراض، وحصن حصين من الشرور، وسبب لذهابِ الأحزان وراحةِ القلوب، فلا غنىٰ لمسلمٍ عن قراءة مبانيه وفهم معانيه، فينبغي للمسلم أن يقضي مع القرآن ما يستطيع من الوقت،

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص/ ٢٨٧).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٧٩).

فهو الكتاب الذي جعله الله مباركًا بركة مطلقةً؛ قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص: ٢٩]، فبركته تصل إلىٰ القلوب والعقول والأبدان والأحوال.

وهو كتابُ هدايةٍ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء: ٩].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه؛ هداه الله من الضلالة، ووقاه يومَ القيامة سوءَ الحساب، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]»(١).

وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجار اللهُ تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقىٰ في الآخرة، ثم قرأ الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]»(٢).

وجعله الله حياةً للأرواح ونورًا لها في الظلمات: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤١٣) رقم (٣٤٣٨).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٢٥) [طه: ١٢٣].

وجعل الله فيه النور العام لجميع الناس بإذنه سبحانه؛ قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

مطلب: عموم نفع القرآن:

وصف الله هذا الكتاب بأوصاف كثيرة في آية واحدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل: ٨٩].

وإذا أردت أن تعرف عظمة هذا القرآن، وتأثيره في النفوس والمجتمعات، فتأمل ما وصفه الله تعالىٰ به في مواضع كثيرة، حيث وصفه بأنه: كريم، وحكيم، وعظيم، ومجيد، ومبارك، وعزيز، ومصدّق، ومُهيمِن، وهُدىٰ، ورحمة، وشفاء، ونور، وذِكْر، وموعظة، ورُوح، وتفصيل كل شيء، وبصائر، وأنه حق، وبرهان، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف، كما سماه بالفرقان؛ لأنه يفرق بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، وبالقرآن؛ لأنه جمع ثمرة الكتب قبله.

فينبغي للمسلم أن يُقبل علىٰ كتاب ربه إقبالًا يليق بهذا القرآن العظيم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فأنزله الله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار.

فلله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدىٰ وشفاء ورحمة ونورًا، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين، فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقًا بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ ذلك.

... ويعرف أنه سِيق لهداية الخلق كلهم، عالِمِهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم. فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين علىٰ معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلىٰ ذلك معرفة علوم العربية علىٰ اختلاف أنواعها. فمن وُفِّق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال علىٰ تدبُّرِه وتَفَهُّمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه، ولوازمه وما تتضمنه، وما يدل عليه منطوقًا ومفهومًا، فإذا بَذَلَ وُسْعَه في ذلك فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه »(١).

فمن تأمل هذا واستحضره عند قراءة القرآن وسماعه كان ذلك عونًا له علىٰ الخشوع والتدبر لآيات القرآن الكريم.

---

(١) مقدمة تفسير السعدي (١/ ١١).

١٤- استحضار أننا المُخَاطَبون بهذا القرآن:

جاء رجلٌ إلىٰ ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال: « اعهَدْ إليَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأَرْعِها سمعَك، فإنه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌ ينهىٰ عنه »[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ: « إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها في النهار »[٢].

وقال محمد بن كعب القُرظي رَحِمَهُٱللَّهُ: « من بلغه القرآن، فكأنما كلَّمه الله »[٣].

وعَقَّبه في الإحياء بقوله: « وإذا قَدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عَمَلَه، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه، الذي كتبه إليه؛ ليتأمله ويعمل بمقتضاه، ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبَلِ ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبّرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات »[٤].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص١٢) رقم (٣٦). وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٦١٩).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (صـ/ ٥٤). الباب الخامس: في آداب حامل القرآن.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٧١).

(٤) الإحياء (١/ ٢٨٥).

وقال الخَوَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قلت لنفسي: يا نفس اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة »[(١)].

وقال صاحب الإحياء: « فيُقَدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قَدَّر أنه المنهيُّ والمأمور، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء، علم أن السَّمَر غير مقصود، وإنما المقصود أن يعتبر بها، ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]، فليقدِّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم علىٰ الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالىٰ »[(٢)].

وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس، فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فَلْيُقَدِّر أنه المقصود؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [الأنعام: ١٩].

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٨٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥).

١٥- الامتثال لأوامره، والتصديق التام بأخباره:

إن قراءة القرآن لقصد نيل الثواب أمر محمود، ولكن الأكمل منه أن يقرأه المسلم ابتغاء مرضاة الله، ولقصد أنْ يعمل بأوامره، ويجتنب نواهيه، ويعتبر بقصصه وأخباره، ويرغب في وعده، ويرهب من وعيده، ويتعرف علىٰ خالقه - سبحانه - بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله الواردة في هذا الكتاب المجيد، وحينئذٍ يكون قد أتىٰ سببًا عظيمًا من أسباب الخشوع، وقرأ القرآن حق قراءته، فإن هذا من حق تلاوته التي أُمِرنا بها؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: « والذي نفسي بيده، إنَّ حقَّ تلاوته: أن يحلَّ حلاله، ويحرمَ حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرفَ الكلم عن مواضعه، ولا يتأولَ منه شيئًا علىٰ غير تأويله »(١).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، في قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: « يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتَّبعها »(٢).

وعن الحسن البصريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله: « ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]؛ قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويَكِلُون ما أشكلَ عليهم إلىٰ عالمه »(٣).

---

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٢/ ٥٦٧) [سورة البقرة: ١٢١].

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢١٨) [سورة البقرة: ١٢١].

(٣) تعظيم قدر الصلاة - محمد بن نصر المروزي (١/ ٣٩٨) رقم (٣٨٩).

وقال صاحب الإحياء: « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك اللسان والعقل والقلب؛ فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتّعاظ والتأثُّر بالانزجار والائتمار؛ فاللسان يُرتِّل، والعقل يُترجم، والقلب يتعظ »(١).

١٦- معرفة منزلة أهل القرآن وثواب قراءته:

إنَّ مما يدفع المسلم إلىٰ مزيدِ عنايةٍ بالقرآن الكريم، هو أن يتذكر ما في العناية به من الثواب، وما أكرم الله به أهل القرآن، وكيف صار أهل القرآن من أهل الله جَلَّجَلَالُهُ، وفضائلهم كثيرة وعظيمة، فمن ذلك:

عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنَّ للهِ أَهْلين منَ النَّاس» قالوا: يا رسولَ اللهِ، مَن هُم؟ قالَ: «هُم أَهْلُ القرآنِ، أَهْلُ اللهِ وخاصَّتُهُ»(٢).

قال السندي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «هم أهل القرآن» أي: حفظة القرآن؛ يقرأ آناء الليل وأطراف النهار، العاملون به. قوله: «أهلُ الله» بتقدير أنهم أهلُ الله، أي: أولياؤه المختصون به اختصاص أهلِ الإنسان به »(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٥) والدارمي (٣٣٦٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٥) والـوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٧).

(٣) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه (١/ ٩٤) حديث رقم (٢١٥).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة. والذي يقرأُ القرآن وَيَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران**»(١).

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة: طعمها طيب، وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة: طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: طعمها مر، ولا ريح لها**»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيحبُّ أحدُكم إذا رجعَ إلىٰ أهله أن يجدَ فيه ثلاث خَلِفَاتٍ عِظامٍ سِمانٍ؟**» قلنا: نعم، قال: «**فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خلفات عظام سمان**»(٣).

وعن أُمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان،**

(١) رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠) ومسلم (٧٩٧).

(٣) رواه مسلم (٨٠٢).

أو كأنهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ، تحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَة».

قال معاوية: « بلغني أن البطلة: السحرة »(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقالُ لصَاحِبِ القرآنِ اقرَأْ وارتَقِ ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلَك عندَ آخِرِ آيةٍ تقرؤُها»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يجيءُ القرآنُ يومَ القيامَةِ، فيقولُ: يا ربِّ حلِّهِ، فيُلْبَسُ تاجَ الكرامَةِ، ثُمَّ يقولُ: يا ربِّ زدْهُ، فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامَةِ، ثُمَّ يقولُ: يا ربِّ ارضَ عنْهُ، فيَرْضَىٰ عنه، فيقولُ: اقرأْ، وارْقَ، ويزادُ بكُلِّ آيةٍ حسنَةً»(٣).

١٧- التحلِّي بأخلاق أهل القرآن والتأدب بآداب حملته:

إذا تذكَّر حاملُ القرآن أنه يحملُ كلامَ الله في قلبه؛ حملَه ذلك علىٰ القيامِ بحقِّ القرآن؛ من خشوعٍ وعباداتٍ وأخلاقٍ وغير ذلك من الفضائل، وكذلك يعينه علىٰ البعد عما لا يليق بأهل القرآن، وعلىٰ سبيل المثال؛ أن يحرص علىٰ النوافل، كما في حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٢٠٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٩١٥) والدارمي (٣٣٥٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣٠).

«يا أَهلَ القرآنِ أوتِروا فإنَّ اللهَ وِترٌ يحبُّ الوِترَ»(١)، فخصهم بالخطاب لأهمية حفاظهم عليه.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حيث قال: « ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليلِهِ إذا الناس نائمون، وبِنَهارِهِ إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس فرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلُطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن: أن يكون باكيًا، محزونًا، حليمًا، حكيمًا، سِكِّيتًا. ولا ينبغي لحامل القرآن: أن يكون جافيًا، ولا غافلًا، ولا سخَّابًا، ولا صيّاحًا، ولا حديدًا »(٢).

١٨- الأخذ بآداب قراءة القرآن الظاهرة:

وآداب قراءة القرآن الظاهرة كثيرة ومعلومة عند أهل القرآن، وهذا تذكير ببعضها باختصار:

آداب تلاوة القرآن الظاهرة:

١- الطهارة في البدن والثوب والمكان.

٢- استعمال السواك والطيب قبل القراءة.

٣- الجلوس بوقار مستقبل القبلة.

---

(١) رواه أبو داود (١٤١٦) والترمذي (٤٥٣). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٠).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٨٨).

٤- ترك الانشغال بغير القراءة في أثنائها؛ كالحديث مع الناس لغير حاجة، والنظر في الجوال لغير حاجة، وإطلاق النظر يمينًا ويسارًا لغير حاجة.

٥- ترك الحركة والاهتزاز والعبث بالأيدي ونحو ذلك، ومما يوضح هذه الفقرة والتي قبلها ما قاله النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آداب قراءة القرآن: « ومما يعتنىٰ به، ويتأكد الأمر به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك: اجتناب الضحك، واللغط، والحديث في خلال القراءة، إلا كلامًا يضطر إليه ... ومن ذلك العبث باليد وغيرها؛ فإنه يناجي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يعبث بين يديه. ومن ذلك النظر إلىٰ ما يلهي ويبدد الذهن. وأقبح من هذا كله النظر إلىٰ ما لا يجوز النظر إليه. وعلىٰ الحاضرين مجلس القراءة، إذا رأوا شيئًا من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها، أن ينهوا عنه حسب الإمكان؛ باليد لمن قدر، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر علىٰ اللسان، وإلا فلينكر بقلبه، والله أعلم »(١).

٦- أن يسجد كلّما قرأ آية فيها سجود تلاوة.

٧- الإمساك عن القراءة عند التثاؤب حتىٰ ينقضي التثاؤب، ثم يقرأ. قاله مجاهد(٢).

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٨٢- ٨٤).

(٢) المصدر السابق (ص/ ١٠١).

٨- ذكر النووي أن القارئ إذا قرأ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] و﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم: ٨٨] و﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦] فينبغي أن يخفض بها صوته كما كان إبراهيم النخعي يفعل(١).

٩- إذا كان يقرأ من حفظه فخرج منه ريح فيُمسك عن القراءة حتىٰ يتكامل خروج الريح. كما رواه الآجري عن عطاء(٢).

١٠- أن يصلي علىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند آية الأمر بالصلاة عليه(٣).

١١- أن يُسبِّح عند الأمر بالتسبيح، ويَحمد عند الحمد ويستغفر عند الأمر بالاستغفار، ونحو ذلك، كما روي عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ (٤).

١٢- أن يتوقف ويحمد الله إذا عطس في أثناء القراءة، أو يشمت عاطسًا حمِدَ الله، ثم يواصل قراءته(٥).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخلاق حملة القرآن للآجري (٢٠٢). وذكره النووي في التبيان (ص/ ١٠١).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن للنوي (ص/ ١٠١).

(٤) المصدر السابق (ص/ ١٠٢).

(٥) المصدر السابق (ص/ ١٠٥).

١٣- أن يقطع قراءته ويتابع الأذان إذا سمع المؤذن ثم يعود إلىٰ قراءته، قال النووي: « وهذا متفق عليه عند أصحابنا »(١).

١٤- ترك القراءة عند غلبة النعاس، لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا قام أحدُكم من الليل، فاستَعجَم القرآنُ علىٰ لسانه، فلم يَدْرِ ما يقولُ، فليَضْطَجِعْ**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «**فاستعجم عليه القرآن**» أي: استغلق ولم ينطلق به لسانُه لغلبة النعاس »(٣).

١٥- عدم الجهر بالقراءة علىٰ الآخرين، بل يتوسط في رفع الصوت.

١٦- مراعاة المعنىٰ في الوقف والابتداء.

١٧- وضع المصحف علىٰ شيءٍ مرتفع عن الأرض التي تطأها الأقدام، ولا يضع المصحف أسفل من مستوىٰ قدم الشخص ولا يوجهها نحوه.

وكذلك سماعات الصوت أثناء استماع القرآن منها ينبغي رفعها عن مساوة الرجل، سواء عند السماع من الجوال أو في السيارة أو من أي مسجل، وقد سُئل ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: سماحة الشيخ، في بعض السيارات تكون سماعات المسجل محاذية للأقدام، وقد توضع الأقدام والحذاء علىٰ السماعة. والسؤال

---

(١) المصدر السابق (ص/ ١٠٥).

(٢) رواه مسلم (٧٨٧).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ٧٥) حديث رقم (٧٨٧).

هو عندما يشغل القرآن، فهل يكون في هذا امتهان لكتاب الله - تعالىٰ-؟ وهل يقاس هذا الفعل علىٰ فتواكم علىٰ من يمد أقدامه أمام كتاب الله - تعالىٰ - نرجو التوجيه، والله يحفظكم؟

فأجاب: إذا كانت السماعات كما ذكر تحت الأقدام، أو عند حذاء الأقدام، فإنه لا يفتحه علىٰ القرآن الكريم؛ لأن كون القرآن الكريم يُسمع من تحت قدم الإنسان لا شك أن فيه إهانة للقرآن، وإذا كان الإنسان لا بد أن يستمع إلىٰ القرآن، فليرفع السماعة عن محاذاة الأقدام(١).

١٩- الوقوف على أحوال السلف في الخشوع والتدبر للقرآن:

هذا تابع لأسباب الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه، وهو سببٌ مُهمٌّ لتحقيق الخشوع عند تلاوة أو سماع القرآن، وفيه فوائد كثيرة، منها؛ شحذ الهمم وتقوية العزائم، وترك الاعتداد بالنفس؛ فعندما يطِّلع القارئ علىٰ أحوال السلف فإنه يستصغر نفسه وعمله بجانب أعمالهم وخشوعهم، وفيه التنبيه علىٰ مواطن يغفل عنها كثير من الناس؛ حيث إن السلف تنبهوا لأمور غفل عنها كثير من الناس بعدهم، فمن قرأ عن عباداتهم وأحوالهم تنبه لتلك الوقفات التي وُفِّق لها السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وغيرها من الفوائد التي يحظىٰ بها من يطلع علىٰ أحوال السلف في عباداتهم ومعاملاتهم، وفيما يلي ذِكرٌ لنماذج من خشوع السلف عند قراءة القرآن أو سماعه، وأسأل الله أن يرزقنا الاهتداء وحسن الاقتداء.

---

(١) المصدر/ سلسلة لقاءات الباب المفتوح [لقاء الباب المفتوح: ٥٧].

المبحث الخامس: نماذج من خشوع السلف عند قراءة القرآن أو سماعه

إن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظمُ الخلقِ خشوعًا، وأتمُّهم لله خشيةً وخُضوعًا، كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن نفسه بقوله: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(١).

وفي العلم بأحوالِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عونٌ علىٰ الاقتداء، والتأسي بأفعاله سببٌ للاهتداء، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]، ثم الصحابة والتابعون، وأتباعهم الصالحون، نِعمَ القدوة والسلف، لكل مُتَّبعٍ من الخلَف، في سيَرِهم عِبَرٌ وعظات، وفوائدُ نافعات، ولأجل تحقيق الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه، هذه نماذج يسيرة من أحوال الخاشعين عند استماع القرآن أو إسماعِهِ، تم ترتيبها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: من خشوع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القرآن:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ علي**»، قال: قلت: أَقرأُ عليك وعليك أُنزلَ؟ قال: «**إني أشتهي أن أسمعَه من غيري**»، قال: فقرأتُ النساءَ حتىٰ إذا بلغتُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: ٤١] قال لي: «**كف**»، أو «**أمسك**»، فرأيت عينيه تذرفان(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٥) ومسلم (٨٠٠).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفي حديث ابن مسعود هذا فوائد منها: استحباب استماع القراءة، والإصغاء لها، والبكاء عندها، وتدبرها، واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له، وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم »(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا قولَ الله عَزَّوَجَلَّ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال «اللهُمَّ! أُمَّتي أُمَّتي» وبكىٰ. فقال الله عَزَّوَجَلَّ: يا جبريلُ! اذهب إلىٰ محمد، وربك أعلم، فسَلْه ما يُبكيك؟ فأتاه جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فسأله. فأخبره رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قال. وهو أعلمُ. فقال الله: «يا جبريل! اذهب إلىٰ محمدٍ فقل: إنا سنُرضِيكَ في أُمَّتِك ولا نَسُوءُكَ»(٢).

المطلب الثاني: من خشوع الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مع القرآن:

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، زوج النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: « لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٨٨) [حديث: ٨٠٠].

(٢) رواه مسلم (٢٠٢).

طرفي النهار، بكرة وعشية، ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بِفِناء داره، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشرافَ قريشٍ من المشركين »[١].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: « لمَّا مرض رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فَأُذِّنَ، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس» »[٢].

وفي لفظ: قلت: « إن أبا بكر رجل أسيف؛ إن يقم مقامك يبكي، فلا يقدر علىٰ القراءة ».

المطلب الثالث: من خشوع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، مع القرآن:

عن أبي عِمْرانَ الْجَوْنِيّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « مر عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، بدير راهب فناداه: يا راهبُ يا راهبُ. قال: فأشرف عليه فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، قال: فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرتُ قول الله عَزَّوَجَلَّ في

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤) ومسلم (٤١٨). (أسيف) أي: سريع البكاء والحزن. وقيل: هو الرقيق.

كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ٣-٥]، فذلك الذي أبكاني »(١).

ورُوِيَ أنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيًّا عليه فكان يُعاد أيامًا، وأخذ يومًا تبنةً من الأرض، فقال: « يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم أكُ شيئًا مذكورًا، يا ليتني كنت نسيًا منسيًّا، يا ليتني لم تلدني أمي »(٢)، وكان في وجه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خطّان أسودان من الدّموع، وقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقىٰ الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون »(٣).

ولما قرأ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، وانتهىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، خرَّ مغشيًّا عليه. ومرَّ يومًا بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ [الطور: ١]، فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧-٨] نزل عن حماره واستند إلىٰ حائط، ومكث زمانًا ورجع إلىٰ منزله فمرض شهرًا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه(٤).

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم - ط العلمية (٢/ ٥٦٧).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٤).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٣- ١٨٤).

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧-٨] فربا منها ربوة عيد منها عشرين يومًا »(١).

المطلب الرابع: من خشوع عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مع القرآن:

عن القاسم بن محمد قال: « كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فأسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي، وترددها! فقمت حتىٰ مللتُ القيام فذهبت إلىٰ السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والقاسم هو ابن أخيها محمد بن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ »(٢).

وعن عُمارَة بن عُمَير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حدّثني من سمع عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، إذا قرأت هذه الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بكت حتىٰ تبُلّ خِمارها »(٣).

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وبكاء عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن الله أمرك أن تقري في بيتك »(٤).

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص/ ١٣٧).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠/ ٧٩).

(٤) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٨٣) [الأحزاب: ٣٣].

المطلب الخامس: من خشوع ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع القرآن:

عن مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « دخلت على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقلت: يا أبا عباس! كنت عند ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقرأ هذه الآية فبكى.

قال: أية آية؟ قلت: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن هذه الآية حين أنزلت، غمَّتْ أصحابَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غمًّا شديدًا، وغاظتهم غيظًا شديدًا، يعني، وقالوا: يا رسول الله، هلكنا، إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا، وبما نعمل، فأمّا قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قولوا: «سمعنا وأطعنا»، قالوا: سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾ إلى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]، فتُجُوِّزَ لهم عن حديث النفس، وأُخِذوا بالأعمال »(١).

(١) رواه أحمد (٣٠٧٠) والطبري في التفسير (٦٤٦١) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٣٠٧٠).

وعن عبد الله بن عبيد بن عُمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أن أباه كان يقصُّ لابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابنُ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قاعدٌ ناحيةً، فقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢]، فبكىٰ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتىٰ لثِقَ[(١)] جيبه من دموعه، وابتلت لحيته »[(٢)].

وعن عبد الله بن عقيل بن شمير الرياحي، عن أبيه قال: « شرب عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ماء باردًا، فبكىٰ فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤] قال: فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا إلا الماء البارد، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠] »[(٣)].

وعن نافع، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنه: « كان إذا أتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦] بكىٰ حتىٰ يبلَّ لحيتَه البكاءُ، ويقول: بلىٰ يا رب »[(٤)].

---

(١) أي: ندي أو ابتلَّ.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١١٢).

(٣) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل (ص١٥٦) رقم (١٠٥٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء رقم (١٠٦٤)، وجود إسناده ابن حجر العسقلاني في الإصابة (٢/ ٣٤٩).

المطلب السادس: من خشوع عامة الصحابة وحبهم لسماع القرآن:

عن أبي سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا رأىٰ أبا موسىٰ قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسىٰ. فيقرأُ عنده »[1].

وكان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسىٰ يقولون: « يا أبا موسىٰ ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يستمعون »[2].

وعن إسماعيل السُّدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « سمعت أبا أراكة قال: صليت مع علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتىٰ إذا كانت الشمس علىٰ حائط المسجد قيد رمح، قال: وحائط المسجد أقصر مما هو الآن، ثم قلب يده، فقال: والله لقد رأيتُ أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما أرىٰ اليوم شيئًا يشبههم؛ لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا بين أعينهم أمثالُ رُكَبِ المَعْزَىٰ، قد باتوا لله سُجَّدًا وقيامًا يتلون كتاب الله، ويُراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادُوا كما تميدُ الشجرُ في يومِ الريح، وهملت أعينهم حتىٰ تبلَّ ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفترًا يضحك حتىٰ ضربه ابن ملجم عدو الله الفاسق »[3].

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٥٣٦) وعبد الرزاق في المصنف (٤٣١٠).

(٢) الداء والدواء (ص/ ٥٥١).

(٣) مقتل عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لابن أبي الدنيا (ص/ ٢٥). ط١ دار البشائر - دمشق - ١٤٢٢هـ.

وعن حصين بن عبد الرحمن قال: « قلتُ لأسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: كيف كان أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عند قراءة القرآن؟ قالت: كانوا كما ذكرهم الله، أو كما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ. تدمع عيونهم، وتقشعر جلودهم »[١].

وقيل للحسن رَحِمَهُٱللَّهُ: « إن هاهنا قومًا إذا استمعوا القرآن بكوا حتىٰ تعلو أصواتهم! فقال الحسن: لم يزل الناس علىٰ ذلك؛ يبكون عند الذكر وقراءة القرآن »[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: « هذا سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المشايخ؛ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، يقول لأبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ذَكِّرْنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون، وكان أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا اجتمعوا أمَرُوا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون »[٣].

---

(١) تلبيس إبليس (٢٨٨).

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا (٣/ ١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٨٠).

المطلب السابع: من خشوع عمر بن عبد العزيز مع القرآن:

عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قرأ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١]، فبكىٰ، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ٢]، ما أرىٰ المقابر إلا زيارة، ولا بدّ لمن يزورها أن يرجع إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار»(١).

وعن عبد الأعلىٰ بن أبي عبد الله الغَبْري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرج يوم الجمعة في ثياب دَسِمَةٍ، ووراءه حَبَشِيٌّ يمشي، فلما انتهىٰ إلىٰ الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهىٰ إلىٰ الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتىٰ صعد المنبر، فخطب، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١] فقال: وما شأن الشمس؟ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢] حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: ١٢-١٣] فبكىٰ، وبكىٰ أهلُ المسجد، وارتجَّ المسجد بالبكاء، حتىٰ رأيتُ أنَّ حيطانَ المسجدِ تبكي معه»(٢).

وقرأ ذات يوم ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الآية، فبكىٰ بكاءً شديدًا حتىٰ سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة فجلست تبكي لبكائه، وبكىٰ أهل الدار لبكائهما، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم علىٰ تلك الحال،

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٤٢٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٣/ ٤١٦).

فقال له: يا أبة ما يبكيك؟ فقال: يا بنى خير، ودَّ أبوك أنه لم يعرِف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بنى لقد خشيت أن أهلك، وأن أكون من أهل النار(١).

المطلب الثامن: جملة من خشوع السلف مع القرآن:

١- قال هشام بن حسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ [الطور:١] حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧-٨] فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه »(٢).

٢- عن عنبسة الخواص قال: « بلغني أن محمد بن واسع، كان يجعل ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١] وردًا يردِّدها ويبكي »(٣).

٣- عن خالد بن الصقر السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان أبي خاصًّا لسفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال أبي: فاستأذنتُ على سفيان في نحر الظُّهر، فأذنت لي امرأة، فدخلت عليه وهو يقرأ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف:٨٠] ثم يقول: بلى يا رب! بلى يا رب! وينتحب. وينظر إلى سقف

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢١٧).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٦٢) [سورة الطور: ٧].

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٤٢٨).

البيت ودموعه تسيل، فمكثتُ جالسًا كم شاء الله، ثم أقبل إليَّ، فجلس معي، فقال: مذ كم أنت ههنا؟ ما شعرتُ بمكانك »(١).

٤- قال إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان إذا ذكر الله، أو ذُكر عندَه، أو سمع القرآن، ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكىٰ حتىٰ يرحمه من يحضره »(٢).

وقال إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كثيرًا ما رأيت الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردد من أول الليل إلىٰ آخره هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١] ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمىٰ مَبْكَاةُ العابدين، لأنها محكمة »(٣).

٥- قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان علي بن الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يستطيع أن يقرأ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ [القارعة:١] ولا تُقرأُ عليه »(٤).

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٩٥).

(٢) الوافي بالوفيات (٨/ ٤٢١).

(٣) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦) [الجاثية: ٢١].

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٢٩٩).

٦- روىٰ الحافظ ابن عساكر أن الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٠﴾ [المرسلات: ٣٨-٤٠] الآيات. فلم يزل يبكي حتىٰ غُشِيَ عليه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

٧- عن عبد الله بن رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن صفوان بن محرز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكىٰ حتىٰ أقول: « قد انْدَقَّ قضيب زُورِه؛ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٧] »(٢).

٨- عن إسماعيل بن ذكوان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان يزيد الرقاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنْ دخلَ بيتَه بكىٰ، وإن شهد جنازةً بكىٰ، وإن جلس إليه إخوانُه بكىٰ وأبكاهم. فقال له ابنه يومًا: يا أَبه كم تبكي؟! والله لو كانت النار خُلقت لك ما زدتَ علىٰ هذا البكاء! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خُلقت النار إلا لي، ولأصحابي، ولإخواننا من الجن؟ أما تقرأ يا بني: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ [الرحمن: ٣١]؟ أما تقرأ يا بني: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾ [الرحمن: ٣٥]؟ فجعل يقرأ عليه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن: ٤٤] قال: فجعل يجول في الدار ويصرخ ويبكي، حتىٰ غُشي عليه،

---

(١) تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٤٢١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٩/ ٥٢٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨٣٦) [الشعراء:٢٧٧].

فقالت للفتىٰ أمُّه: يا بني ما أردتَ إلىٰ هذا من أبيك؟ فقال: والله إنما أردتُ أن أهوِّن عليه، لم أرد أن أزيده حتىٰ يقتل نفسه »(١).

وعن صالح المري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت يزيد الرقاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ هذه الآية علىٰ أصحابه ويبكي: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة: ٢٦-٢٨] قال: تقول الملائكة بعضهم لبعض: من أي باب يُرتقىٰ بعمله فيُرتقىٰ فيه بروحه، ويقول أهله: هذا والله حين فراقه، فيبكي إليهم ويبكون إليه ولا يستطيع أن يحير إليهم جوابًا. قال: ثم بكىٰ يزيد بكاء شديدًا »(٢).

٩- عن أبي سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « ما رأيت أحدًا الخوفُ أظهرُ علىٰ وجهه والخشوعُ في بدنه من الحسنِ بنِ صالح بن حيٍّ، قام ليلةً إلىٰ الصبح بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾ [النبأ: ١] فلما بلغ إلىٰ قوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ: ٣٠] فغُشيَ عليه حتىٰ طلعَ الفجر »(٣).

١٠- وعن سالم أبي بسطام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان عمر بن المنكدر لا ينام الليل يُكثر البكاء علىٰ نفسه، فشق ذلك علىٰ أمه، فقالت لأخيه محمد بن المنكدر: إن الذي يصنع عمر يشقّ عليّ فلو كلّمته في ذلك. فاستعان عليه بأبي حازم فقالا له: إن الذي تصنع يشق علىٰ أمك. قال: فكيف أصنع؟ إن الليل إذا دخل عليَّ هالني

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٤٨).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٥/ ٨٧).

(٣) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٥/ ٤٠٣) رقم (٢٢٦٩).

فأستفتح القرآن وما تنقصني نهمتي فيه. قالا: فالبكاء؟ قال: آية من كتاب الله أبكتني. قالا: وما هي؟ قال: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ [الزمر: ٤٧] »[١].

المطلب التاسع: خشوع جماعة من أهل اليمن عند تلاوة القرآن:

عن أبي صالح السمان التابعي قال: « لما قدم أهل اليمن في زمن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فسمعوا القرآن فجعلوا يبكون، فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هكذا كنَّا، ثم قست القلوب »[٢].

وهذا إن صحَّ إلىٰ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فهو من تواضعه ومقته لنفسه في الله، وشدة خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ، وإلَّا فهو من هو في البكاء والخشوع.

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٨٠).

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص١٣٥).

المبحث السادس: موانع الخشوع عند قراءة القرآن أو سماعه

هذه الموانع منها ما يُضْعِفُ التدبر، ويؤخر تحقيق الخشوع عند تلاوة القرآن أو سماعه، ومنها ما يمنع ذلك بالكلية، بل ويبطل أجر التلاوة فضلًا عن تحقيق الخشوع أو نيل الثواب عليه -كالرياء- فمن المُهمِّ للعاقل اللبيب أن يتعرف عليها حتىٰ يجتنبها، من باب قول القائل:

عرفتُ الشرَّ لا للشّرِّ لكن لتوقِّيه ... فمن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيهِ(١)

وهي كثيرة – عافنا الله منها – ومنها:

١- الذنوب والمعاصي:

قال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: سأمنعهم فهْم كتابي. وقاله سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها. وقيل: سأصرفهم عن نفعها، وذلك مجازاة علىٰ تكبرهم، نظيره: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] »(٢).

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كِبْر أو هوىٰ أو حب دنيا، أو هو مُصِرّ علىٰ ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد علىٰ مفسر ليس

---

(١) من بحر الهَزَج لأبي نواس، كما في يتيمة الدهر (١/ ٨٤).

(٢) تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٨٣) [سورة الأعراف:١٤٦].

عنده علم، أو راجع إلىٰ معقوله؛ وهذه كلها حُجب وموانع بعضها آكدُ من بعض »(١).

وقال بعض السلف: « أذنبت ذنبًا؛ فحُرِمت فهم القرآن، وفي هذا قيل:

إذا كنـــتَ في نعمـــةٍ فارْعَهـــا ... فـــإن المعاصـــي تُزيـــل الـــنِّعَمْ

وبالجملة فإنّ المعاصي نارُ النعم تأكلها، كما تأكل النارُ الحطبَ، عياذًا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته »(٢).

٢- سماع الغناء:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء.

فمن خواصِّه: أنه يُلهي القلب ويصدُّه عن فهم القرآن وتدبُّره، والعمل بما فيه؛ فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا؛ لما بينهما من التضادّ؛ فإن القرآن ينهىٰ عن اتباع الهوىٰ، ويأمر بالعِفَّة، ومُجانبة شهوات النفوس وأسباب الغيّ، وينهىٰ عن اتباع خُطُوات الشيطان.

والغناء يأمر بضد ذلك كلِّه، ويُحسِّنه، ويُهيِّج النفوس إلىٰ شهوات الغيِّ، فيُثِير كامِنَها، ويُزعجُ قاطنها، ويُحرِّكها إلىٰ كل قبيح، ويسوقها إلىٰ وصل كل

---

(١) البرهان (٢/ ١٨١).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٥٨٩).

مليحة ومليح، فهو والخمرُ رضيعا لبانٍ، وفي تهييجهما علىٰ القبائح فرسا رهان، فإنه صِنوُ الخمر ورضيعه، ونائبه وحليفه، وخَدينُه وصديقه، عَقَدَ الشيطانُ بينهما عقد الإخاء الذي لا يُفْسَخ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تُنسخ، وهو جاسوس القلوب، وسارق المروءة، وسُوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطّلع علىٰ سرائر الأفئدة، ويَدِبُّ إلىٰ محل التخييل، فيُثير ما فيه من الهوىٰ والشهوة والسخافة والرّقاعة والرعونة والحماقة.

فبينا ترىٰ الرجل وعليه سمة الوقار، وبهاء العقل، وبَهجة الإيمان، ووقار الإسلام، وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقلُه، وقَلّ حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بَهاؤه، وتخلّىٰ عنه وقاره، وفرح به شيطانه، وشكا إلىٰ الله تعالىٰ إيمانُه، وثَقُل عليه قرآنه، وقال: يا رب! لا تجمع بيني وبين قرآن عدوِّك في صدرٍ واحدٍ. فاستحسنَ ما كان قبل السَّماع يستقبحه، وأبدىٰ من سِرِّه ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلىٰ كثرة الكلام والكذب، والزهزهة والفرقعة بالأصابع، فيميل برأسه، ويهزُّ منكبيه، ويضرب الأرض برجليه، ويدقّ علىٰ أُمِّ رأسه بيديه، ويَثِبُ وثباتِ الدِّبابِ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب، ويصفِّق بيديه تصفيق النسوان، ويخور من الوَجْد كخُوار الثيران، وتارةً يتأوّه تأوّه الحزين، وتارةً يزعق زعقات المجانين »[١].

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٤٣٩- ٤٤٠).

وقال ابن القيم أيضًا في القصيدة النونية:

والله إنَّ سماعَهم في القلب والْـ ... إيمانِ مثلُ السُّمِّ في الأبدانِ

فالقلبُ بَيتُ الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ ... حُبًّا وإخلاصًا مع الإحسانِ

فإذا تَعَلَّق بالسَّماع أحالَهُ ... عبدًا لكلِّ فُلانةٍ وفُلانِ

حُبُّ الكتاب وحُبُّ ألْحان الغِنا ... في قلب عَبدٍ ليس يجتَمِعانِ (١)

٣- فضول الأكل والشرب:

عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، حسْبُ الآدميِّ لقيماتٌ يُقِمنَ صلبَهُ، فإن غلبتِ الآدميَّ نفسُهُ فثُلُثٌ للطَّعامِ وثلثٌ للشَّرابِ وثلثٌ للنَّفَسِ»(٢).

قال الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: « ذُكر هذا الحديث لبعض الفلاسفة من الأطباء، فعجب منه وقال: ما سمعت كلامًا في قلة الأكل أعظم من هذا، والله إنه لكلام حكيم »(٣).

قال الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: « أي: الحقُّ الواجبُ أنْ لا يتجاوزَ عما يُقامُ به صُلبُه ليتقوىٰ به علىٰ طاعة الله، فإن أراد البَتَّةَ لِتجاوُزٍ فلا يتجاوزْ عن القسم المذكور، جعَلَ البطن أولًا وِعاءً كالأوعية التي تُتخذُ ظروفًا لحوائج البيت توهينًا لشأنه،

(١) النونية رقم: (٥١٦١- ٥١٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٤٩) واللفظ له، والترمذي (٢٣٨٠) وأحمد (١٧١٨٦). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٢٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٨٧).

ثم جعله شرَّ الأوعية لأنها استُعمِلتْ فيما هي له، والبطنُ خَلْقٌ لأنه يُتقَوَّمُ به الصُّلبُ بالطعام، وامتلاؤه يُفضي إلىٰ الفساد في الدين والدنيا، فيكونَ شرًّا منها »[١].

وقال سلم الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الناس ثلاثة أصناف: صنف شبه الملائكة، وصنف شبه البهائم، وصنف شبه الشياطين. فأما الذين شبه الملائكة فالمؤمنون في ليلهم ونهارهم طائعين يحبون أهل الطاعة، وأما الذين شبه البهائم فالذين ليست لهم هم إلا الأكل والشرب والنكاح والنوم، فهم كالبهائم، وأما الذين شبه الشياطين فالذين في معاصي الله تعالىٰ مساءًا وصباحًا ويعطون كل الأجر »[٢].

وقال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **في كثرة الأكل خمس خصال مذمومة:**

الأولىٰ: أن يذهب خوف الله من قلبه.

الثانية: إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.

الثالثة: أن يكسل عن الطاعة.

الرابعة: إذا تكلم بالحكمة والموعظة لا يقع كلامه في قلوب الناس.

الخامسة: يهيج منه الأمراض »[٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٥١).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٧٨).

(٣) فتح القريب المجيب علىٰ الترغيب والترهيب (٩/ ٣٩٤).

وقال الحسن بن يحيىٰ الخُشَني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من أراد أن يُغْزِر دموعه ويرِقّ قلبه، فليأكل وليشرب في نصف بطنه ».

وقال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فحَدَّثْتُ بهذا أبا سليمان فقال: إنما جاء الحديث: «ثلث طعام وثلث شراب»، وأرىٰ هؤلاء قد حاسبوا أنفسهم فربحوا سُدُسًا »[1].

وقال المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قلت لأبي عبد الله، يعني؛ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجد الرجل من قلبه رِقَّة وهو يشْبَع؟ قال: ما أرىٰ! »[2].

وعن محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « من قَلَّ طُعْمُه، فَهِم وأفهم وصَفَا ورَقّ، وإنَّ كثرة الطعام لَيُثْقِل صاحبه عن كثير مما يريد »[3].

وعن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « من ضَبطَ بطنه ضَبَط دينه، ومن مَلَك جُوعَه مَلَك الأخلاق الصالحة »[4].

وعن قُثَم العابد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « كان يقال: ما قَلَّ طعام امرئ قط إلا رَقّ قلبه ونَدِيَتْ عيناه »[5].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣١٨).

(٢) الورع للمروزي (٣٢٣).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (٤٩).

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٧٣).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (١٢٤).

وعن أبي عمران الجَوْني قال: « كان يقال: من أحب أن يُنَوَّرَ قَلْبُهُ، فَلْيُقِلَّ طُعْمَه »(١).

وفي مختصر منهاج القاصدين: « ومن أبواب دخول الشيطان على قلب ابن آدم: الشِّبَع، فإنه يُقَوي الشهوة، ويشغل الطاعة »(٢).

٤- الجهل بالتفسير:

إن الجهل بمعاني القرآن يصرف القارئ عن تدبُّره، ويَحْرِمه التلذُّذ بقراءته، وفي ذلك يقول الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إنِّي لأعجب ممَّنْ يقرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذُّ بقراءته؟! »(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وينبغي له أن يَتَعَلّم أحكام القرآن، فيَفْهَم عن الله مراده، وما فرض عليه، فيَنْتَفِع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا »(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: ٢] وعَقْل

(١) المصدر السابق.

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٩٤).

(٣) تفسير الطبري (١/ ١٠).

(٤) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولىٰ بذلك »(١).

٥- طلب الدنيا بقراءته:

عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خرَج علينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا ونحن نَقترِئُ، فقال: «الحمدُ للهِ، كتابُ اللهِ واحدٌ، وفيكم الأحمرُ، وفيكم الأبيضُ، وفيكم الأسْودُ، اقرَؤوه قبلَ أنْ يَقرَأَه أقوامٌ يُقيمونَه كما يُقوَّمُ السهمُ، يَتعجَّلُ أجرَه ولا يَتأجَّلُه»(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وفي الحديث رفعُ الحرج وبناءُ الأمر علىٰ المُساهلة في الظاهر، وتحري الحسبة والإخلاص في العمل، والتفكر في معاني القرآن، والغوص في عجائب أمره.

«يتعجلونه» أي: ثوابه في الدنيا «ولا يتأجلونه» بطلب الأجر في العقبىٰ، بل يؤثرون العاجلة علىٰ الآجلة، ويتأكلون ولا يتوكلون »(٣).

٦- الإسراع في قراءته:

والإسراع المذموم هو الذي يخل بالمقصود؛ فيفوت علىٰ القارئ التدبر، أما الإسراع المعتدل مع إدراك المعنىٰ وصحة قراءة اللفظ والمبنىٰ، فلا يضر

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٣٢).

(٢) رواه أبو دود (٨٣١) وابن حبان في صحيحه (٧٦٠) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٨٣١).

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ٤٢) [حديث ٨٣٠].

- إن شاء الله - بل إنه أحيانًا أنفع للقارئ؛ حيث وأن فيه تنشيط للعقل بمتابعة معاني الألفاظ دون توقف. وقد جاء الزجر عن الإسراع المذموم في أحاديث كثيرة، ومنها:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنه قال: «**من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه**»(١).

قال الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»، أي: **لم يفهم ظاهر معانيه**، وأما فهم دقائقه فلا تفي به الأعمار، **والمراد نفي الفهم لا نفي الثواب** »(٢).

٧- ترك التغني به:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليسَ منَّا مَنْ لم يَتغنَّ بالقُرآن**»(٣).

وعن عبيد الله بن أبي يزيد قال: « مر بنا أبو لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فاتبعناه حتىٰ دخل بيته، فدخلنا عليه، فإذا رجل رثُّ البيتِ رثُّ الهيئة، فسمعته يقول: سمعت

---

(١) رواه أحمد (٦٨١٠) والترمذي (٢٩٤٩) وأبو داود (١٣٩٤) وصححه الألباني في صفة الصلاة (١١٩).

(٢) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره (ص/ ٩٦).

(٣) رواه أبو داود (١٤٦٩) وابن ماجه (١٣٣٧) والدارمي (١٥٣١) وأحمد (١٤٧٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٦٩) والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٨٤).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ليسَ منَّا مَنْ لم يتَغنَّ بالقُرآنِ». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يُحسِّنُه ما استطاع »[١].

٨- سهوُ القلب عن تعقُّلِ ما يقرأ أو يسمع:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: « استمعَ كتاب الله، وهو شاهدُ القلب والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ. وهو إشارةٌ إلىٰ المانع من حصولِ التأثير، وهو سهوُ القلب وغيبتُهُ عن تعقُّلِ ما يُقال له والنظرِ فيه وتأمُّلِه »[٢].

وبقية موانع الخشوع تجدها بالنظر في أضداد أسباب الخشوع، وقد تقدم ذكر أسباب الخشوع، فمن أراد تحقيق الخشوع فليأخذ بالأسباب وليجتنب أضدادها فإنها موانع من تحقيق الخشوع، وبينها تفاوت في الإضرار بتحقيق الخشوع؛ فبعضها قد يمنع عن القارئ الخشوعَ والتدبُّرَ بالكلية، وبعضها ينقصه ويضعف كمال تحقيقه، والمعصوم من عصمه الله.

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧١) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج زاد المعاد (١/ ٤٦٦).

(٢) الفوائد (ص/ ٤).

المبحث السابع: قصص في تأثير القرآن على قلوب سامِعيه

إنَّ تأثير القرآن الكريم علىٰ القلوب عظيمٌ جدًّا، حتىٰ إنه تأثر به كثيرٌ من المشركين، ولِعِظَمِ تأثيره علىٰ القلوب فقد منع كفارُ قريش أبا بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يصلي ويقرأ القرآن بفِناء بيته حتىٰ لا يفتن أبناءهم ونساءهم - في زعمهم - كما تقدم ذكره في خشوع الصلاة عند ذِكرِ خشوع أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فهو مؤثر علىٰ الجن والإنس، وعلىٰ المسلمين وغير المسلمين، وفي الاطلاع علىٰ أخبار من تأثروا بسماع القرآن ترقيق للقلب وتقوية للإيمان وزيادةُ تَعظيمٍ لهذا الكتاب المجيد، وفيها موعظة وعبرة ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

وفيما يأتي ذِكرٌ لبعض القصص التي تدل على قوة تأثير القرآن على القلوب:

١- تأثير القرآن على الجن عند سماعه:

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: ١-٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ آمرًا رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يخبر قومه: أن الجنَّ استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ [الجن: ١-٢]؛ أي: إلىٰ السداد والنجاح، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾

[الجن: ٢]، وهذا المقام شبيه بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩] »(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: « انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طائفةٍ من أصحابه، عامدين إلىٰ سوقِ عُكاظٍ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلتْ عليهم الشُّهُبُ، فرجعتِ الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغارِبَها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلَقوا، فضرَبُوا مشارق الأرض ومغارِبَها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجَّهُوا نحو تهامة إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنخلَةَ، وهو عامدٌ إلىٰ سوقِ عكاظٍ، وهو يصلي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلمَّا سمعوا القرآن تسمَّعُوا له، فقالوا: **هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجَعُوا إلىٰ قومِهِم، فقالوا: يا قومنا** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجنّ »(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٧) [سورة الجن: ١].

(٢) رواه البخاري (٤٩٢١) ومسلم (٤٤٩).

٢- تأثير القرآن في جبير بن مطعم قبل إسلامه:

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: « سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطيرَ »(١).

وفي رواية عن محمد بن جبير، عن أبيه قال: « سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أوّلَ ما وقَرَ الإيمانُ في قلبي »(٢).

وفي فتح الباري: « قوله: "**كاد قلبي يطير**" قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، وذلك من قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]. **قيل**: معناه ليسوا أشد خلقًا من خلق السماوات والأرض؛ لأنهما خلقتا من غير شيء، أي هل خلقوا باطلًا لا يؤمرون ولا ينهون؟

وقيل: المعنىٰ أم خلقوا من غير خالق؟ وذلك لا يجوز فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشد؛

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٠٢٣).

لأن ما لا وجود له كيف يخلق، وإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا.

ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٦]؛ أي: إنْ جاز لهم أن يدَّعُوا خلق أنفسهم فليدّعوا خلق السماوات والأرض، وذلك لا يمكنهم، فقامت الحجة.

ثم قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان، وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله، ولا يحصل إلا بتوفيقه، فلهذا انزعج جبير حتىٰ كاد قلبه يطير، ومال إلىٰ الإسلام»[(١)].

وقال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: (كاد قلبي أن يطير)؛ لظهور الحق ووضوح بطلان الباطل»[(٢)].

٣- تأثير القرآن في النجاشي وبطارقته:

عن أمِّ سلمةَ ابنةِ أبي أُميةَ بنِ المغيرةِ، زوجِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قالت: «لما نزلنا أرضَ الحبَشةِ، جاورنا بها خيرَ جارٍ، النجاشيَّ، أمِنَّا علىٰ ديننا، وعَبَدْنا الله لا نُؤذىٰ، ولا نسمعُ شيئًا نكرَهُه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا أن يبعثوا إلىٰ النجاشي فينا رجلين جَلْدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرفُ من متاع

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٣) رقم (٤٨٥٤).

(٢) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه (١/ ٢٧٥) رقم (٨٣٢).

مكة، وكان من أعجبِ ما يأتيه منها إليه الأَدَمُ، فجمعوا له أَدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلىٰ كل بِطريق هديَّتَه، قبل أن تُكلموا النجاشي فيهم، ثم قدِّموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يُسْلمَهم إليكم قبل أن يُكلِّمَهم، قالت: فخرجا فقدما علىٰ النجاشي، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يُكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبَا إلىٰ بلَدِ الملك منا غلمانٌ سفهاءُ، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدَعٍ لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعَثَنا إلىٰ الملِك فيهم أشرافُ قومهم لنردَّهم إليهم، فإذا كلَّمْنا الملك فيهم، فتُشيروا عليه بأن يُسْلِمَهُم إلينا، ولا يُكلمَهم، فإن قومهم أعلىٰ بهم عَينًا، وأعلمُ بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قربا هداياهم إلىٰ النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك، إنه قد صبا إلىٰ بلدك منا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعَثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم، وأعمامهم وعشائرهم، لتردَّهم إليهم، فهمْ أعلىٰ بهم عينًا، وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلىٰ عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومُهم أعلىٰ بهم عَينًا،

وأعلمُ بما عابوا عليهم، فأسلِمْهم إليهما، فليردَّاهم إلىٰ بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هَيْمُ الله، إذًا لا أُسلِمُهُم إليهما، ولا أُكادُ قومًا جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني علىٰ من سواي حتىٰ أدعوَهم فأسألَهُم ماذا يقولُ هذانِ في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهم اليهما ورَدَدتُهم الىٰ قومهم، وإن كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلىٰ أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فدعاهم فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كائنٌ في ذلك ما هو كائنٌ. فلما جاءوه، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتُم فيه قومَكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلَّمَه جعفرُ بنُ أبي طالب، فقال له: أيُّها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتةَ ونأتي الفواحشَ، ونَقطعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوارَ؛ يأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، **فدعانا إلىٰ الله لنوحِّدَه، ونعبُدَه، ونخلعَ ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرحم، وحُسْنِ الجِوار، والكفِّ عن المحارمِ، والدماءِ، ونهانا عن الفواحشِ، وقولِ الزُّور، وأكلِ مال اليتيم، وقذفِ المحصَنة، وأمَرَنا أنْ نعبدَ الله وحده لا نشركُ به شيئًا، وأمَرَنا**

بالصلاة، والزكاة، والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدَّقناه وآمنا به واتَّبعناه علىٰ ما جاء به، فعبَدْنا الله وحده، فلم نشركْ به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلىٰ بلدك، واخترناك علىٰ من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك أيُّها الملكُ، قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدْرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم:١] قالت: فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ أَخْضَلَ لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أُسلمُهُم إليكم أبدًا، ولا أُكادُ، قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأُنبِّئَنَّهم غدًا عيبَهُم عندهم، ثم أَستأصلُ به خضراءَهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقىٰ الرجلين فينا -: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ ابن مريم عَبدٌ، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرْسِلْ اليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزِلْ بنا مثلُه، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسىٰ إذا

سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبيُّنا كائنًا في ذلك ما هو كائنٌ، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي يده إلىٰ الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسىٰ ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُومٌ بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبَّكم غُرِّمَ، ثم مَن سبكم غُرِّمَ، فما أحب أن لي دَبْرًا ذهبًا، وأني آذيت رجلًا منكم - والدبر بلسان الحبشة: الجبل - ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حين ردَّ عليَّ مُلكي، فآخذَ الرِّشوةَ فيه وما أطاعَ الناسَ فيَّ، فأُطيعَهُم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحَينِ مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار. قالت: فوالله إنا علىٰ ذلك إذ نزل به - يعني من ينازعه في ملكه - قال: فوالله ما علمنا حُزنًا قطُّ كان أشدَّ من حُزنٍ حَزِنَّاهُ عند ذلك، تَخوُّفًا أن يظهر ذلك علىٰ النجاشي، فيأتيَ رجلٌ لا يعرفُ مِن حقِّنا ما كان النجاشيُّ يعرفُ منه. قالت: وسار النجاشي وبينهما عُرْضُ النيل، قالت: فقال أصحابُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَجُلٌ يخرج حتىٰ يَحضُرَ وقعةَ القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سِنًّا، قالت: فنفَخُوا له قِرْبَةً، فجعلها في صدره ثم سَبَحَ عليها حتىٰ خرج إلىٰ ناحية النيل التي

بها مُلتقىٰ القوم، ثم انطلق حتىٰ حضَرَهم. قالت: ودعونا الله للنَّجاشي بالظُّهُور علىٰ عدُوِّه، والتمكينِ له في بلادِهِ، واستَوْسَقَ عليه أمرُ الحبشة، فكنا عنده في خيرِ مَنْزِلٍ، حتىٰ قدِمنا علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بمكة »[١].

٤- تأثير القرآن في سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وقصة إسلامهما:

روىٰ ابْنُ إسْحَاقَ: « أنَّ أسعد بنَ زُرارة خرج بمصعب بنِ عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَرٍ، وكان سعدُ بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظَفَرٍ، علىٰ بئر يقال لها: بئرُ مَرَقٍ، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممن أسلمَ، وسعدُ بنُ معاذ وأسيدُ بنُ حُضيرٍ يومئذ سيدا قومِهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركٌ علىٰ دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أَبَا لكَ، انطلقْ إلىٰ هذين الرجلين اللَّذَينِ قد أتيا دارينا ليُسفِّهَا ضعفاءَنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارَيْنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيثُ قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد ابن زرارة، قال لمصعب بن عمير: **هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه**، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما مُتَشتِّمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٤٠)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٦٥١).

اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَتجلسُ فتسمعَ، فإن رضيت أمرًا قبلتَه، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّلِهِ، ثم قال: ما أحسن هذا الكلامَ وأجملَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسلُ فتَطَّهَّرُ وتُطَهِّرُ ثوبيك، ثم تشْهَدُ شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال:

أحلفُ بالله لقد جاءكم أُسيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخفِروكَ.

قال: فقام سعد مُغضبًا مُبادرًا، تخوُّفًا للذي ذُكرَ له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيتَ شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرَفَ سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتَشتِّمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره- وقد قال أسعد ابن زرارة

لمصعب بن عمير: أي مصعب! جاءك والله سيِّدُ مَنْ وراءَه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان- قال: فقال له مصعب: أَوَتقعُدُ فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهتَه عزَلْنَا عنك ما تكره؟

قال سعدٌ: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسَهُّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطَّهَّرُ وتُطَهِّرُ ثوبيك، ثم تشْهَدُ شهادةَ الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلىٰ نادي قومه ومعه أسيدُ بنُ حُضَيرٍ.

قال: فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: **يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟** قالوا: **سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة**، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتىٰ تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فو الله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلىٰ منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلىٰ الإسلام، حتىٰ لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون »[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (ص/ ٤٣٦- ٤٣٨). باب: بدء إسلام الأنصار- أول جمعة أقيمت بالمدينة.

٥- تأثير القرآن على الطفيل الدوسي وقصة إسلامه:

قال ابْنُ إسْحَاقَ: « كان الطفيل بن عمرٍو الدَّوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، فمشىٰ إليه رجالُ قريشٍ، وكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل - وهو الذي بين أظهرنا - فرَّق جماعتنا وشتَّت أمرَنا، وإنما قوله كالسِّحر يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنَّا نخشىٰ عليك وعلىٰ قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه، قال: فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلِّمه حتىٰ **حَشَوتُ في أُذُنيَّ حين غدوت إلىٰ المسجد كُرْسُفًا فَرَقًا من أن يبلغني شيء من قوله.**

قال: فغدوتُ إلىٰ المسجد فإذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم يصلي عند الكعبة فقمت قريبًا منه، فأبىٰ الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، فسمعت كلامًا حسنًا فقلت في نفسي: واثُكْلَ أُمِّياه! والله إني لَرجل لبيب شاعر ما يخفىٰ عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان ما يقول حسنًا قبلت وإن كان قبيحًا تركت.

قال: فمكثت حتىٰ انصرف رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلىٰ بيته فتبعته، حتىٰ إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوِّفُوني أمرك حتىٰ سددتُ أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ إلا أن يُسمعنيه، فسمعت قولًا حسنًا، فاعرِضْ عليَّ أمرك، فعرض

عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلام وتلا عليَّ القرآن، فلا واللهِ ما سمعت قولًا قطُّ أحسنَ منه ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: **يا نبيَّ الله، إني امرؤ مُطاعٌ في قومي، وإني راجع إليهم فداعيهم إلىٰ الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آيةً تكون عونًا لي عليهم فيما أدعوهم إليه**، فقال: «**اللهم اجعل له آيةً**».

قال: فخرجتُ إلىٰ قومي حتىٰ إذا كنت بثنيَّةٍ تُطلعني علىٰ الحاضر، وقع نور بين عينيَّ مثلُ المصباح، قال: قلت: اللهم في غير وجهي؛ إني أخشىٰ أن يظنوا أنها مَثُلَةٌ وقعت في وجهي؛ لفراقي دينَهم، قال: فتحوَّل فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلَّق، وأنا أنهبط إليهم من الثنية حتىٰ جئتهم، وأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخًا كبيرًا - فقلت: إليك عني يا أَبَهْ، فلستَ مني ولستُ منك! قال: لم يا بُنيَّ؟ قلت: قد أسلمت، وتابعت دين محمد، قال: **يا بني فديني دينك**، قال: فقلت: **فاذهبْ فاغتسلْ، وطهِّرْ ثيابَك، ثم تعال حتىٰ أعلمك ما علمت**، قال: **فذهب فاغتسل، وطهَّر ثيابه، ثم جاء، فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم**.

ثم أتتني صاحبتي فقلتُ لها: إليكِ عني فلستُ منكِ ولستِ مني، قالت: لِمَ بأبي أنت وأمي؟ قلت: فرق الإسلام بيني وبينك، أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي فاغتسلي، ففعلت ثم جاءت، فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.

ثم دعوتُ دوسًا إلىٰ الإسلام فأبطؤوا عليَّ، فجئت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: يا نبيَّ الله، إنه قد غلبني علىٰ دوسٍ الزنا، فادعُ الله عليهم، فقال: «**اللهم اهدِ دوسًا**»، ثم قال: «**ارجع إلىٰ قومك فادعهم إلىٰ الله وارفُقْ بهم**»، فرجعتُ إليهم، فلم أزل بأرض دوسٍ أدعوهم إلىٰ الله، ثم قدمت علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، فنزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحِقْنا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين**».

قال ابن إسحاق: «فلما قُبِض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتدَّت العرب خرج الطفيل مع المسلمين حتىٰ فرغوا مِن طُلَيحة، ثم سار مع المسلمين إلىٰ اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعبُرُوها لي؛ **رأيت أن رأسي قد حُلق، وأنه قد خرج من فمي طائر، وأن امرأةً لقيتني فأدخلتني في فرجها، ورأيت أن ابني يطلبني طلبًا حثيثًا ثم رأيته حُبِس عني. قالوا: خيرًا رأيت. قال: أما والله إني قد أوَّلتُها. قالوا: وما أولتَها؟ قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلَتْني في فرجها فالأرض تُحفَر فأغيَّب فيها، وأما طلب ابني إياي وحبسه عني فإني أراه سيجهد لأن يصيبه من الشهادة ما أصابني**؛ فقُتِل الطفيل شهيدًا باليمامة، وجرح ابنه عمرو جراحًا شديدًا، ثم قتل عام اليرموك شهيدًا في زمن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»(١).

(١) النص منقول من زاد المعاد (٣/ ٥٠١- ٥٠٣). وقد أخرج القصة البيهقي عن ابن إسحاق في الدلائل (٥/ ٣٥٩- ٣٦٣). ويشهد للقصة حديث: «**اللهم اهد دوسًا وأتِ بهم**» في البخاري (٢٩٣٧) =

والقصص في هذا الباب كثيرة؛ كقصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمختلف الروايات التي تُكلِّم في أسانيدها، وقصة سماع الوليد بن المغيرة للقرآن ثم قال قولته الشهيرة: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، وما يُعلىٰ عليه. وكقصة قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القرآن عند المقام فضربوه وأدموا وجهه، وقصة اختلاف الأخنس بن شُريق وأبي جهل وأبي سفيان إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمعون قراءته دون أن يتواعدوا ثم يتلاومون علىٰ ذلك ويتعاهدون علىٰ أن لا يعودوا وتكرر هذا منهم ثلاث مرات...إلخ.

ولكن يُكتفىٰ بما ذُكر؛ تجنُّبًا للإطالة، ولأن أسانيد تلك القصص مُتَكَلَّمٌ فيها، وما ذُكر كافٍ في إثبات المعنىٰ المراد وتقريره في النفوس.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

= ومسلم (٢٥٢٤).

المبحث الثامن: الصعق والإغماء عند سماع القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الصعق والإغماء عند بعض السلف:

قال أبو بكر بن عيَّاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « صليت خلف فضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ المغربَ وابنُه عليٌّ إلىٰ جانبي فقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، فَلَمَّا قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦]، سقط عليٌّ علىٰ وجهه مغشيًّا عليه، فما أفاق إلىٰ ثُلُث الليل »(١).

وعن محمد بن ناجية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « صلَّيتُ خلف الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقرأ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١]، في الصبح، فلما بلغَ إلىٰ قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠]، غلبه البكاء فسقط ابنُه عليٌّ مغشيًّا عليه »(٢).

وقال علي بن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كنا عند يحيىٰ بن سعيد القطان، فقرأ رجل سورة الدخان، فصعق يحيىٰ، وغشي عليه، فقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو قَدرَ أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه، لدفعه يحيىٰ - يعني: ابن سعيد القطان - يعني: الصَّعق »(٣).

---

(١) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٧/ ٣٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٤).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١٣/ ٤٦٦).

وقال أحمد بن سعيد الهمذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « دخل عبد الله بن وهب الحمام، فسمع قارئًا يقرأ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] فغشي عليه »[١].

وعن إبراهيم بن بشار قال: « الآية التي مات فيها عليّ بن الفضيل في الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الوضع مات، وكنت فيمن صلىٰ عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ »[٢].

وعن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفىٰ التابعي الجليل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أمهم في صلاة الفجر فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩﴾ [المدثر: ٨-٩]، خرَّ ميتًا، قال بهز: « وكنت فيمن حمله »[٣].

وقال أبو جناب القصاب واسمه عون بن ذكوان: « صلىٰ بنا زرارة بن أوفىٰ صلاة الصبح فقرأ يا أيها المدثر حتىٰ بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨-٩]، خرَّ ميتًا وكنت فيمن حمله إلىٰ داره »[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٢٣).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٣٠٣).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٧٦).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢٥٨).

وكان أحمد بن أبي الحواري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو ريحانة الشام كما قال أبو القاسم الجنيد رَحِمَهُٱللَّهُ إذا قرئ عنده القرآن يصيح ويصعق[(١)].

المطلب الثاني: كراهية الصعق والإغماء عند بعض العلماء:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ **[الزمر: ٢٣]**، قال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ: « هذا نعتُ أولياء الله، **نعتهم الله** بأن تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان »[(٢)].

قد كره الصعقَ والإغماءَ جماعةٌ من العلماء وأنكروه، وقالوا: إن الخشوع والسكينة عند سماع القرآن خير من الصعق والإغماء! واستدلوا بأنه حالُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحال صحابتِه؛ وهم أكمل خشوعًا، ولم يُنقل عنهم ما نُقل عن بعض من يُصعق ويُغمىٰ عليه، وقد ورد التنبيه علىٰ هذا في بعض الآثار، فمن ذلك:

عن عبد الله بن عروة بن الزبير رَحِمَهُٱللَّهُ، عن جدته أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قال: « قلت لها: كيف كان أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يفعلون إذا قُرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٧٦).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٨٦) [الزمر: ٢٣].

جلودهم، قال: فإن ناسًا إذا قُرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشيًّا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »(١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يُصعَقُون، ويَسألون ولا يَصيحون، ويتحازنون ولا يَتموَّتُون؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣] »(٢).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب، ودمع العين، واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة.

أما الاضطراب الشديد والغشي والموت والصيحات، فهذا إن كان صاحبه مغلوبـًا عليه لم يُلم عليه، كما قد يكون في التابعين ومن بعدهم، فإن منشأه قوة

(١) الزهد والرقائق - ابن المبارك (ص/ ٣٥٩).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٥٨) [المائدة: ٨٣].

الوارد على القلب مع ضعف القلب والقوة »[1].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والصواب عدم الإنكار إلا على من اعترف أنه يفعله تصنعًا، والله أعلم »[2].

❖❖❖❖❖

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٢٢).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص/ ٧٧).

الفصل الرابع: البكاء من خشية الله جَلَّ جَلَالُهُ

ويحتوي على الفصل على تمهيد وعشرة مباحث:

المبحث الأول: أنواع البكاء.

المبحث الثاني: الحث علىٰ البكاء من خشية الله.

المبحث الثالث: ثمرات البكاء من خشية الله.

المبحث الرابع: نماذج من بكاء الصالحين.

المبحث الخامس: تأثير البكاء عليهم وجواب من عوتب منهم.

المبحث السادس: إخفاء البكاء.

المبحث السابع: أسباب البكاء من خشية الله.

المبحث الثامن: بكاء الموعوظين والوعاظ.

المبحث التاسع: بكاء الأمراء عند السماع والإلقاء.

المبحث العاشر: إباحة البكاء علىٰ فراق الأحبة، من غير نياحة ولا نُدبة.

تمهيد

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾ [النجم: ٤٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾ يقول تعالىٰ ذكره: وأنَّ ربك هو أضحك أهل الجنة في الجنة بدخولهم إياها، وأبكىٰ أهل النار في النار بِدُخُولِهِمُوهَا، وأضحك من شاء من أهل الدنيا، وأبكىٰ من أراد أن يبكيه منهم »(١).

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **فيه ثلاثة أوجه:**

أحدها: قضىٰ أسباب الضحك والبكاء.

الثاني: أنه أراد بالضحك السرور، وبالبكاء الحزن.

الثالث: أنه خلق قوتي الضحك والبكاء، فإن الله ميز الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، فليس في سائر الحيوان ما ضحك ويبكي غير الإنسان، وقيل: إن القرد وحده يضحك ولا يبكي، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك. ويحتمل وجهاً.

رابعـًا: أن يريد بالضحك والبكاء النعم والنقم »(٢).

---

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٢٢/ ٥٤٧) [النجم: ٤٣].

(٢) تفسير الماوردي - النكت والعيون (٥/ ٤٠٤) [النجم: ٤٣].

المبحث الأول: أنــواع البــكاء

إن البكاء غريزةٌ فُطِر الإنسان عليها، وهو أنواع مختلفة بحسب الدوافع إليه.

قال أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **أفضلُ البكاء بكاءُ العبد علىٰ ما فاته من أوقاته علىٰ غير الموافقة، أو بكاءٌ علىٰ ما سبق له من المخالفة** »(١).

وقال البدر الفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سؤال: إن قيل كم ينقسم البكاء؟ **قيل**: البكاء علىٰ ثلاثة أوجه: **من اللّه، وعلىٰ اللّه، وإلىٰ اللّه**، فالبكاء من اللّه: هو من توبيخه وتهديده. والبكاء إليه: من شوقه ومحبته. والبكاء عليه: من خوف الفراق. ويقال: البكاء علىٰ عشرة وجوه: بكاء الحياء لآدم، ثم بكاء الذنوب لداود، وبكاء الحزن ليحيىٰ، وبكاء الوحشة ليعقوب، وبكاء الشوق لشعيب؛ بكىٰ حتىٰ ذهب بصره مرتين. وبكاء الحزن للصحابة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ - لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢]، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]، وبكاء الخشية: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥٠٩) رقم (٨٧٠).

[الإسراء: ١٠٩]، وبكاء الإجلال قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨]، والبكاء على الأموات. قاله ابن العماد في كتابه كشف الأسرار»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والبكاء أنواع:**

أحدها: بكاء الرحمة والرِّقَّة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبَّة والشَّوق.

والرابع: بكاء الفرح والسُّرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والفرق بينه وبين بكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون علىٰ ما مضىٰ من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقَّع في المستقبل من ذلك، والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن: أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارَّة، والقلب حزين؛ ولهذا يقال لما يُفرَح به: هو قُرَّة عين، وأقرَّ الله عينه به؛ ولما يُحزِن: هو سُخْنَةُ عين، وأسخن الله عينه به.

---

(١) فتح القريب المجيب علىٰ الترغيب والترهيب للبدر الفيومي (١٠/ ٥٦٤).

والسابع: بكاء الخوَر والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسىٰ الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجَر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تبيع عبرتَها، وتبكي بشجو غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرىٰ الرجلُ الناسَ يبكون لأمرٍ ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأيِّ شيء يبكون، ولكن رآهم يبكون، فبكىٰ. وما كان من ذلك دمعًا بلا صوت فهو بُكًىٰ - مقصور - وما كان معه صوت فهو بكاء - ممدود - علىٰ بناء الأصوات. قال الشاعر:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقّ لَهَا بُكَاهَا ... وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلاَ الْعَوِيلُ

وما كان منه مُستدعًىٰ مُتكلَّفًا فهو التباكي »[١].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٢٦).

المبحث الثاني: الترغيب في البكاء من خشية الله وبيان فضائله

إن البكاء من خشية الله عبادة عظيمةُ القدر، كثيرةُ الثواب والأجر، ولا يُتوصَّلُ إليها إلا بتوفيقِ اللهِ أولًا، ثم بالأخذِ بالأسبابِ ثانيًا.

ومن الأسباب التي تعين العبد علىٰ تحقيقِ أيّ عمل: أن يتعرف علىٰ ما يترتب علىٰ ذلك العمل من الفوائد، وما يحصل بسببه من العوائد، وفي هذا المبحث ذِكرٌ لبعض ما يحث المسلم علىٰ أن يأخذ بأسباب البكاء من خشية الله، والحرص علىٰ أن يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله، وقد احتوىٰ هذا المبحث علىٰ أربعة مطالب:

المطلب الأول: الحث على البكاء من خشية الله:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم: ٥٩-٦١]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره لمشركي قريش: أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون، أنْ نزلَ علىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتضحكون منه استهزاءً به، ولا تبكون مما فيه من الوعيد لأهل معاصي الله، وأنتم من أهل معاصيه ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ يقول: وأنتم لاهون عما فيه من العِبر والذكر، معرضون عن آياته »(١).

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٢٢/ ٥٥٨) [النجم: ٦٠].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا**»(١).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قِبَلِ نفسه: « لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلىٰ الصعدات تبكون علىٰ أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها، ولا راجع إليها، إلا ما لا بد لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضَرَها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون »(٢).

وعن ابن أبي مليكة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: « جلسنا إلىٰ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في الحجر، فقال: ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلَّىٰ أحدُكم حتىٰ ينكسرَ ظهره ولبكىٰ حتىٰ ينقطعَ صوته »(٣).

وعن إسحاق بن خلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: « كان عمرو بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا نظر إلىٰ أهل السوق بكىٰ وقال: ما أغفل هؤلاء عما أعد لهم »(٤).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: « لكل شيء علَم، وعلَم الخِذلان: تركُ البكاء من خشية الله »(٥).

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣١).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص/ ٢١٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٢) رقم (٨٧٦٣)، وقال: هذا إسنادٌ صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يُخرجاه. وصححه موقوفًا الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٢٨).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٠٢)

(٥) البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٩).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومتىٰ أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالىٰ فاعلَمْ أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله: القلب القاسي »(١).

المطلب الثاني: فضائل البكاء من خشية الله:

إن البكاء من خشية الله ثمرة من ثمرات الخشوع وعلامة من علامات تحقيقه، وقد جاء في القرآن بيان فضائل البكاء من خشية الله بوجوه مختلفة؛ كالثناء علىٰ البكائين، والإشادة بالذين تفيض أعينهم من الدمع، والإخبار أنه من صفات الأنبياء والعلماء والمؤمنين، فمن ذلك:

١- بيان أنه من صفات الأنبياء وأتباعهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قد بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَه أن الأَنْبِيَاءَ كانوا إذَا سَمِعُوا بآيات الله عَزَّوَجَلَّ؛ سَجَدُوا وبَكَوْا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، و﴿وَبُكِيّٗا﴾ جمع باكٍ، مثل شاهد وشُهود وقَاعِد وقُعُود، و﴿سُجَّدٗا﴾ حال مُقَدَّرَة »(٢).

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: ﴿سُجَّدٗا﴾: جمع ساجد ﴿وَبُكِيّٗا﴾ جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكَوا »(٣).

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٤٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٣٥) [مريم: ٥٨].

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٢٣٩) [مريم: ٥٨].

٢- أنه من صفات العارفين بالحق؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا إنا نصارىٰ الذين وصفتُ لك يا محمدُ صفتَهم أنك تجدهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ما أنزل إليك من الكتاب يتلىٰ ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه ثم سيلانه منها كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه، وقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ يقول: فيض دموعهم لمعرفتهم بأن الذي يتلىٰ عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلىٰ رسول الله حق »(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يُصعَقُون، ويَسألون ولا يَصيحون، ويتحازنون ولا يَتموَّتُون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣] »(٢).

---

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (٨/ ٦٠١) [المائدة: ٨٣].

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٥٨) [المائدة: ٨٣].

٣- أنه من صفات أهل العلم؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: ويخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يُتْلَىٰ عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعًا، يعني خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له »(١).

عن مسعر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال: سمعت عبد الأعلىٰ التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: « من أوتيَ من العلم ما لا يُبكيه، لخليقٌ أنْ لا يكون أوتي علمًا ينفعه، لأن الله تعالىٰ نعت العلماء؛ ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] »(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هذه مبالغةٌ في صفتِهم ومدحٌ لهم. وحُقَّ لكل من توسَّم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلىٰ هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذِل »(٣).

(١) تفسير الطبري - جامع البيان (١٧/ ٥٧٩) [الإسراء: ١٠٩].

(٢) مسند الدارمي (١/ ١٤٦) رقم (٢٩٥).

(٣) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤١) [الإسراء: ١٠٩].

المطلب الثالث: من أقوال السلف في فضل البكاء من خشية الله:

عن عبد الله بن أبي سعيد السراج رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « **كنا عند الحسن يومًا وهو يعظ، فانتحب رجل من ناحية المجلس**، فقال الحسن: أيها الباكي اشدد، أو قال: احدد، فإنه بلغنا أن الباكي من خشية الله مرحوم يوم القيامة »(١).

وقال كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي علىٰ وجنتي أحب إليَّ من أن أتصدق بوزني ذهبًا »(٢).

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « البكاء علىٰ الخطيئة يحط الذنوبَ كما تحطُّ الريحُ الورقَ اليابسَ »(٣).

وعن جعفر بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « وعظ مالك بن دينار يومًا فتكلم، فبكىٰ حوشب، فضرب مالك بيده علىٰ منكبه وقال: ابكِ يا أبا بشر؛ فإنه بلغني أن العبد لا يزال يبكي حتىٰ يرحمه سيده؛ فيعتقه من النار »(٤).

وقال عمر بن ذر(٥): « ما رأيتُ باكيًا قطُّ إلا خُيِّل إليَّ أن الرحمة قد تنزَّلت عليه »(٦).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء رقم (١٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٣٦٦).

(٣) التوبة لابن أبي الدنيا (ص/ ١٤٠) رقم (١٩١).

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧).

(٥) هو الشيخ المحدث عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمداني المرهبي، أبو ذر الكوفي. روىٰ عنه أبو حنيفة، وهو من أقرانه، وابن عيينة، وابن المبارك، وأبو نعيم. قال النسائي والدارقطني: ثقة. وقال ابن حبان في الثقات: كان مرجئًا (ت ١٥٣ هـ) حلية الأولياء (٥/ ١٠٨) تهذيب التهذيب (٤/ ٢٧٩).

(٦) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٩).

وعن بكر بن مصاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال سمعت عبد الواحد بن زيد[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: « يا إخوتاه! ألا تبكون شوقًا إلىٰ الله؟ ألا إنه من بكىٰ شوقًا إلىٰ سيِّده لم يُحْرِمْهُ النَّظَرَ إليه. يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من النار؟ ألا إنه من بكىٰ خوفًا من النار أعاذه الله منها. يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من العطش يوم القيامة؟ ألا إنه من بكىٰ خوفًا من ذلك سُقي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة.

يا إخوتاه! ألا تبكون؟ بلىٰ فابكوا علىٰ الماء البارد أيام الدنيا؛ لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا. ثم جعل يبكي حتىٰ غُشي عليه »[٢].

وعن فرقد السبخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « قرأت في بعض الكتب أن العبد إذا بكىٰ من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كيوم ولَدتُه أُمُّه، ولو أن عبدًا جاء بجبال الأرض ذنوبًا وآثامًا لَوسِعته الرحمة إذا بكىٰ، **وإن الباكي علىٰ الجنة لتشفع له الجنة إلىٰ ربِّها فتقول**: يا رب أدخله الجنة كما بكىٰ عليَّ، **وإن النار لتستجير**

---

(١) كان عبد الواحد بن زيد شديد الخوف والخشية، كثير البكاء، بليغ الموعظة.. يقول الحارث بن عبيد: كان عبد الواحد بن زيد يجلس إلىٰ جنبي عند مالك بن دينار؛ فكنتُ لا أفهم كثيرًا من موعظة مالك، لكثرة بكاء عبد الواحد. ويقول حصين بن القاسم الوزان: لو قُسم بَثُّ عبد الواحد بن زيد علىٰ أهل البصرة لوسعهم (والبَثُّ: أشدُّ الحزن).. أسند عبد الواحد عن الحسن البصري وأسلم الكوفي. انظر أخباره في صفة الصفوة (٣/ ٣٢١).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ١٦١)، وصفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٣٢٢)، والرقة والبكاء رقم (٢٦).

له من ربِّها فتقول: يا رب أجره من النار كما استجارك مني وبكىٰ خوفًا من دخولي »(١).

وقال فرقد السبخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قرأتُ في بعض الكتب: « قل للبكَّائين من خشية الله: أبشروا فإنكم أول من تنزل عليه الرحمة إذا نزلت »(٢).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « البكاء من مفاتيح التوبة؛ ألا ترىٰ أنه يَرِقُّ فيندم؟ »(٣).

وعن المفضَّل بن مهلهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « **بلغني أن العبد إذا بكىٰ من خشية الله مُلئت جوارِحُه نورًا، واستبشرت ببكائه، وتداعت بعضها بعضًا: ما هذا النور؟** فيقال لها: هذا غشيَكم من نور البكاء »(٤).

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فأعلىٰ المقامات من كان بكَّاءً بالليل، بسَّامًا بالنهار »(٥).

---

(١) وأخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٤١) وبمعناه في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٢/ ٢٠٠).

(٢) الرق والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٣٧).

(٤) المصدر السابق (٣٥).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٤١).

المطلب الرابع: نماذج من تواصي السلف بالبكاء من خشية الله:

١- عن إبراهيم بن صبح البرَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « دخلنا علىٰ المغيرة أبي محمد، وكان إذا تكلم بكىٰ وأبكىٰ، فقال: **يا إخوتاه! ابكُو وبكُّوا هذه الأعين والقلوب، فإن الحزين غدًا مسرور، والباكي ضاحك، والخائف آمن، وطويل السَّغَب[١] في الدنيا طويل الشِّبَع في الآخرة، وطويل الظمأ طويل الرِّي عند الله. ألا فتخيَّروا واختاروا، واتقوا أن تُغْبَنوا فتهلكوا.** قال: ويبكي، ويبكي الناس »[٢].

٢- عن أبي ميمون البرَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أوصني. قال: **رطِّب لسانك بذكر الله، وندِّ جفونك بالدموع من خشية الله، فقلَّ من طلبتَ لديه خيراً فلم تدركه** »[٣].

٣- عن عبيد الله بن موسىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كنا عند حسن بن صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا، فذكرَ شيئًا، فرقَّ، فبكىٰ رجلٌ، فارتفع صوته، وعلا بكاؤه. فقال رجل من القوم: **نعم والله يا أخي! فابكِ هكذا علىٰ نفسك، فما خيرُ مَنْ لا يرحم نفسه؟** قال عبيد الله: فكنتُ أسمع الحسن بعد ذلك كثيرًا يردِّدُ هذه الكلمة: **ما خيرُ مَنْ لا يرحم نفسه؟**. قال: فظننتُ أنه أُعجبَ بها حين سمعها يومئذ »[٤].

---

(١) السغب: هو الجوع مع التعب.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٧٦).

(٣) المصدر السابق (١٩).

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٥).

٤- عن سعيد بن عبد الرحمن النصيبي - وكان جارًا لأبي سليمان دُوَيْد اللبَّان - قال: « كان أبو سليمان يبكي عامة دهره. قال: وسمعته يومًا يقول - وكان كثيرًا ما يردِّدُ هذا الكلام: بَكُّوا الذنوب قبل مَحْلِ بكائها، **وفرِّغوا القلوب إلا من شُغل حسابها، فبِحَرىً إن كنتم كذلك أن تُدركوا فوات ما قد فات لشؤم التفريط، بالإنابة والمراجعة والإخلاص للربِّ الكريم**. وكان يبكي ويقول: **وجدناه أكرم مولىً لشرِّ عبيدٍ** قال: ثم يبكي ويُبكي »(١).

٥- قال ابن أبي الدنيا: « حدثني محمد، قال: حدثني زيد الخُمُري، قال: حدثني بحر أبو يحيىٰ، قال: **سمعتُ عابدًا في بعض السواحل ذاتَ ليلةٍ يبكي، وإخوانُه عنده، فبكوا**، فقال: ابكوا بأبي أنتم بكاءَ من علِمَ أنه غير ناجٍ إلا بطول الحزن والبكاء. قال: ثم بكىٰ وقال:

مَــنْ فــيَّض الــدمعَ للــدنيا فإنَّــا نَسْــفَحُ الــدمعَ لاقــتراف الــذنوب

قال: فبكىٰ القوم والله بكاءً شديدًا »(٢).

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨٢).

(٢) المصدر السابق (١٨٥).

المبحث الثالث: ثمرات البكاء من خشية الله

١- الفوز بالظِّل يوم القيامة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سبعةٌ يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عبادةِ ربه، ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال إني أخافُ الله، ورجل تصدَّق، أخفىٰ حتىٰ لا تعلمَ شمالُه ما تنفقُ يمينُه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: « «ذكر الله»؛ أي: بقلبه من التذكُّر، أو بلسانه من الذكر، و «خاليًا»؛ أي: من الخلو لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء، أو المراد خاليًا من الالتفات إلىٰ غير الله ولو كان في ملأ، ويؤيده رواية البيهقي «ذكر الله بين يديه» ويؤيد الأول رواية ابن المبارك وحماد بن زيد «ذكر الله في خلاء»؛ أي: في موضع خال وهي أصح، قوله: «ففاضت عيناه» أي: فاضت الدموع من عينيه، وأسند الفيض إلىٰ العين مبالغة كأنها هي التي فاضت، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه »(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ١٤٧) حديث رقم (٦٦٠). وذكر أن النساء يشتركن مع الرجال في الأصناف المذكورة في الحديث.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ورجل ذكر الله تعالىٰ خاليًا ففاضت عيناه» فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالىٰ، وفضل طاعة السر لكمال الإخلاص فيها »[1].

٢- أنه من أحب الأعمال إلى الله:

عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «ليس شيءٌ أحبَّ إلىٰ الله من قَطرتين، وأثرين: قَطرةٌ من دموعٍ في خشية الله، وقَطرةُ دمٍ تُهراقُ في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله»[2].

قال الملا علي القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «قَطرةُ دموعٍ» بجرها علىٰ البدل ويجوز رفعها ونصبها؛ أي: قطرةِ بكاءٍ حاصلةٍ «من خشية الله»؛ أي: من شدة خوفه وعظمته المورثة لمحبته.... وقال: «وأما الأثران؛ فأثر في سبيل الله» كخُطوةٍ أو غبار أو جِراحةٍ في الجهاد، أو سوادِ حِبرٍ في طلب العلم. «وأثر في فريضة من فرائض الله» كإشقاقِ اليد والرِّجْلِ من أثر الوضوء في البرد، وبقاء بلل الوضوء في الحرِّ، واحتراقِ الجبهة من حرّ الرَّمضاء التي يسجد عليها، وخُلوفِ فمه في الصوم واغبرارِ قدمه في الحج »[3].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٧/ ١٢٣) حديث رقم (١٠٣١).

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٩) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٢٧).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٨٤) حديث رقم (٣٨٣٧).

٣- الوعد بالنجاة من النار:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يلجُ النارَ رجلٌ بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنمَ في مِنْخَرَيْ مُسلمٍ أبدًا»(١).

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله: «لا يلج» من الولوج؛ أي: لا يدخل «رجل بكىٰ من خشية الله» فإن الغالب من الخشية امتثال الطاعة واجتناب المعصية. «حتىٰ يعود اللبن في الضرع» هذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، «ولا يجتمع غبار في سبيل الله»؛ أي: في الجهاد. «ودخان جهنم» فكأنهما ضدان لا يجتمعان »(٢).

وقال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: « ولعلَّ الله تعالىٰ لا يوفق للبكاء من الخشية إلا من أرادَ له النجاة من النار ابْتِدَاءً »(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عينانِ لا تمسُّهما النارُ: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١١) والنسائي (٣١٠٧) وأحمد (١٠٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٧٨).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٥/ ٢١٥) حديث رقم (٢٣١١).

(٣) حاشية السندي علىٰ سنن النسائي (٦/ ١٢) حديث رقم (٣١٠٧).

(٤) رواه الترمذي (١٦٣٩) والبيهقي في الشعب (٧٩٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٣٩).

قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**عينان لا تمسهما النار**»؛ أي: **لا تمس صاحبهما**، فعبر بالجزء عن الجملة، وعبر بالمس إشارة إلىٰ امتناع ما فوقه بالأولىٰ، وفي رواية «**أبدًا**» وفي رواية «**لا تريان النار**»، وقوله: «**عين بكت من خشية الله**»، وهي مرتبة المجاهدين مع النفس التائبين عن المعصية سواء كان عالمًا أو غير عالم »(١).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «**عينٌ بكت من خشية الله**» كناية عن العالم العابد المجاهد مع نفسه، كقوله تعالي: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨]، حيثُ حصر الخشية فيهم غير متجاوزة عنهم، **فحصلت النسبة بين العينين**: عين مجاهدة مع النفس والشيطان، وعين مجاهدة مع الكفار، والخوف والخشية مترادفان: قال الشيخ أبو حامد في الإحياء: **الخوف سوط الله تعالي يسوق به عباده إلىٰ المواظبة علي العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالىٰ** »(٢).

٤- البشرى بالسلامة من العذاب يوم القيامة:

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن ذكَر اللهَ ففاضَتْ عيناه مِن خشيةِ اللهِ حتَّىٰ تُصيبَ الأرضَ دموعُه لَمْ يُعذِّبْه اللهُ يومَ القيامةِ**»(٣).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٥/ ٢٢١) حديث رقم (١٦٣٩).

(٢) شرح المشكاة للطيبي (٨/ ٢٦٤٧) حديث رقم (٣٨٢٩).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط رقم (١٦٤١) والحاكم (٧٦٦٨)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٨٦٥٥) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٩٠).

وعن غاضرة بن قرهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان فرقد السبخي قد بكىٰ حتىٰ أضرَّ به ذلك البكاء، وتناثرت أشفاره[١]، فقيل له في ذلك؟ فقال: بلغني أن كلَّ عين بكت من خشية الله لا يصيبها لفح النار القيامة، قال: فكان يبكي، ويُبكي أصحابه »[٢].

وعن أبي معشر[٣] قال: « رأيت عون بن عبد الله[٤] في مجلس أبي حازم يبكي ويمسح وجهه بالدموع ويقول: بلغني أن النار لا تمسُّ موضع الدموع »[٥].

٥- البشرى بـ طوبى:

عن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «طوبىٰ لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكىٰ علىٰ خطيئته»[٦].

---

(١) شفْر الجفن: حرفه الذي ينبت عليه الهُدب.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٤٢).

(٣) نَجيح بن عبد الرحمن السِّندي المدني أبو معشر ت ١٧٠هـ.

(٤) هو عون بن عبد الله بن عتبة الهذلي، أبو عبد الله؛ العابد الزاهد، ثقة. روىٰ له الجماعة سوىٰ البخاري. قال سفيان بن عيينة، عن أبي هارون موسىٰ بن أبي عيسىٰ: كان عون يحدثنا ولحيته تَرتَش بالدموع. ومن أقواله: إن مَنْ كان قبلنا كانوا يجعلون لدنياهم ما فَضَلَ عن آخرتهم، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فضَل عن دنياكم. صفة الصفوة (٣/ ١٠٠) تهذيب الكمال (٢٢/ ٤٥٣).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والكباء (٣٠)، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ١٥٧).

(٦) رواه الطبراني في "الأوسط" و"الصغير"، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٢).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قلت للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا رسول الله، ما النَّجَاةُ؟ قَالَ: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ»(١).

قال الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: « أي: تعرض لما هو سببٌ للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار. وضمن (بكىٰ) معنىٰ الندامة، وعداه بـ (علىٰ) أي: اندم علىٰ خطيئتك باكيًا »(٢).

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قال رجل لابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: « يا أبا عبد الرحمن أوصني، قال: ليسعك بيتك، وابك من ذكر خطيئتك، وكف لسانك »(٣).

حديث عظيم جامع:

إن البكاء من خشية سبب للنجاة من نار جهنم؛ كما سبق، وكما سيبينه الحديث الآتي، وقد أوردته بطوله لما فيه من الموعظة والفائدة، وقد بيَّن ابنُ القيم رَحِمَهُٱللَّهُ فضل هذا الحديث، وأهمية حفظه وقراءته؛ فقال:

« وقد جاء في هذا الحديث العظيم، الشريفِ القدر، الذي ينبغي لكل مسلم أن يحفظه، فنذكره بطوله لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه، وهو حديث سعيد

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن. وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب رقم (٣٢٣١).

(٢) شرح المشكاة للطيبي (١٠/ ٣١٢٤).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٠).

بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمُرة بن حبيب قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونحن في صُفَّةٍ بالمدينة، فقام علينا وقال: «إني رأيْتُ البارِحةَ عَجَبًا: رأيتُ رجلًا من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحَهُ فجاءه بِرُّهُ بوالِديه فردَّ ملك الموت عنه.

ورأيتُ رجلًا قد بُسِطَ عليه عذابُ القبر فجاءه وضوؤُه فاستنقذه من ذلك. ورأيتُ رجلًا من أمتي قد احتوشَتْه الشياطين فجاءه ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ فطرد الشيطان عنه. ورأيتُ رجلًا من أمتي قد احتوشَتْه ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم.

ورأيتُ رجلًا من أمتي يلتهب. وفي رواية: يلهث عَطشًا، كلَّما دنا من حوضٍ مُنِعَ وطُرد، فجاءه صيامه شهر رمضانَ فأسقاهُ وأرْواهُ. ورأيتُ رجلًا من أمتي، ورأيت النبيّين جُلوسًا حِلَقًا حِلَقًا، كلما دنا إلىٰ حَلْقَةٍ طُرِدَ، فجاءه غُسْلُه من الجنابة فأخذ بيده وأقعده إلىٰ جنبي. ورأيت رجلًا من أمتي بين يديه ظُلمة، ومن خلفه ظُلْمَة، وعن يمينه ظَّلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحيِّر فيها، فجاءه حجُّه وعُمرتُه فاستخرجاه من الظلمة، وأدخلاه في النور.

ورأيت رجلًا من أمتي يتَّقي بيده وَهَجَ النار وشَرَرها فجاءته صدقته فصارت سُتْرةً بينه وبين النار، وظَلَّلَتْ علىٰ رأسه.

ورأيتُ رجلًا من أمتي يُكَلِّمُ المؤمنين ولا يُكَلِّمونه، فجاءته صِلَتُه لِرَحِمِه فقالت: يا معشر المسلمين! إنه كان وصولًا لرحمه فكلِّموه، فكلَّمَه المؤمنون وصافحوه وصافحَهُم. ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته الزبانيَةُ، فجاءه أمره بالمعروف ونهْيُه عن المنكر فاستَنْقَذَهُ من أيديْهِمْ، وأدخله في ملائكة الرحمة.

ورأيت رجلًا من أمتي جاثيًا علىٰ ركبتيه وبينه وبين الله حجاب، فجاءه حُسْنُ خُلُقِهِ، فأخذ بيده فأدخله علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

ورأيتُ رجلًا من أمتي قد ذهبت صحيفتُه من قِبَل شماله، فجاءه خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه.

ورأيتُ رجلًا من أمتي خفَّ ميزانُه، فجاءه أفراطُه فثَقَّلُوا ميزانه.

ورأيتُ رجلًا من أمتي قائمًا علىٰ شفير جهنم، فجاءه رجاؤه من الله فاستنقذه من ذلك ومضىٰ.

ورأيتُ رجلًا من أمتي قد هوىٰ في النار، فجاءته دمعته التي بكىٰ من خشية الله عَزَّوَجَلَّ فاستنقذته من ذلك.

ورأيتُ رجلًا من أمتي قائمًا علىٰ الصراط يرعد كما ترعد السَّعَفَةُ في ريحٍ عاصف، فجاءه حُسْنُ ظنِّه بالله عَزَّوَجَلَّ فسكَّن رِعْدَتَه ومضىٰ.

ورأيتُ رجلًا من أمتي يَزْحَفُ علىٰ الصراط ويحبو أحيانًا، ويتعلق أحيانًا، فجاءته صلاته عليَّ فأقامته علىٰ قدميه وأنقذته.

ورأيتُ رجلًا من أمتي انتهىٰ إلىٰ أبواب الجنة فغُلِّقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة» »[1].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) رواه الحافظ أبو موسىٰ المديني في كتاب «الترغيب في الخصال المنجية والترهيب من الخلال المردية» وبنىٰ كتابه عليه، وجعله شرحًا له، وقال: « هذا حديث حسن جدًا، رواه عن سعيد بن المسيب: عمر بن ذر، وعلي بن زيد بن جدعان، وهلال أبو جبلة. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظِّم شأن هذا الحديث، وبلغني عنه أنه كان يقول: شواهد الصحة عليه ». الوابل الصيب (ص/ ١٩٩).

وقال شيخنا الإمام في كتابه: «أحوال المؤمنين الرضية في الحياة البرزخية، ص/ ٩٥»: « هذا الحديث قد اختُلف في صحته وعدمها، فقد صححه وعظَّم شأنه عدد من أهل العلم، قال الحافظ أبو موسىٰ: هذا حديث حسن جدًا. وقال أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (١/ ٥٩٥): هذا حديث عظيم...وضعفه بعضهم كالألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٠٨٦) ثم قال شيخنا حفظه الله: والذي يظهر لي أنه حسَنٌ بالشواهد ».

المبحث الرابع: نماذج من أحوال الصالحين مع البكاء

وهذا المبحث فيه من أخبار الصالحين العابدين، والعلماء الخاشعين، وبعض أحوالهم، وتأثير البكاء عليهم، وكيف كانت عنايتهم بالبكاء من خشية الله، بدءًا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الخلفاء الراشدين، ثم بعض الصالحين؛ ما ينفع القارئ ويفيد السامع إن شاء الله تعالىٰ، وتم ترتيب هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: نماذج عامة من بكاء الصالحين:

١- من بكاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرأ عليَّ القرآنَ». قال: فقلت: يا رسول الله! أَقرأُ عليك وعليك أُنزلَ؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعَه من غيري». قال: فقرأتُ النساءَ حتىٰ إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] رفعتُ رأسي، أو غمَزَني رجلٌ إلىٰ جنبي، فرفعتُ رأسي؛ فرأيتُ دموعَهُ تسيلُ(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وفي حديث ابن مسعود هذا فوائد منها: استحباب استماع القراءة، والإصغاء لها، والبكاء عندها، وتدبرها، واستحباب طلب

---

(١) رواه مسلم (٨٠٠) والبخاري (٤٥٨٢).

القراءة من غيره ليستمع له، وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم »[١].

وعن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « ما كان فينا فارس يوم بدر غيرُ المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تحت شجرة يصلي، ويبكي، حتىٰ أصبح »[٢].

وعن عبد الله بن الشخير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « رأَيْتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُصلِّي وفي صدرِه أزيزٌ كأزيزِ المِرجَلِ مِن البكاءِ »[٣].

قال السندي رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله «أزيز» بزاءين معجمتين ككريم، أي: حنين من الخشية. وهو صوت البكاء. قيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء. و«المِرجَل» بكسر الميم؛ إناء يغلىٰ فيه الماء »[٤].

وقال أبو حاتم رَحِمَهُٱللَّهُ: « في هذا الخبر بيان واضح أن التحزُّنَ الذي أذن الله جَلَّوَعَلَا فيه بالقرآن واستمع إليه هو التَّحزُّن بالصوت مع بدايته ونهايته، لأن بداءته هو العزم الصحيح علىٰ الانقلاع عن المزجورات، ونهايته وفور التشمير

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٨٨) [حديث: ٨٠٠].

(٢) رواه أحمد (١٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٤٥).

(٣) رواه أحمد (١٦٣١٢) وأبو داود (٩٠٤) والنسائي (١٢١٤) وابن حبان (٧٥٣) وصححه ابن رجب في فتح الباري (٤/ ٢٤٥).

(٤) حاشية السندي علىٰ النسائي (٣/ ١٣) [حديث: ١٢١٤].

في أنواع العبادات، فإذا اشتمل التحزُّن على البداية التي وصفتها، والنهاية التي ذكرتها، صار المُتَحزِّن بالقرآن كأنه قذف بنفسه في مِقْلاع القُربة إلى مولاه، ولم يتعلق بشيء دونه»[١].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة، فجلس على شَفير القبر، فبكى، حتى بلَّ الثَّرى، ثم قال: يا إخواني لمثل هذا فأعدوا»[٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شهدنا بنتًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ على القبر، قال: فرأيتُ عينيه تدمعان، قال: فقال: «هل منكم رجلٌ لم يُقارِف الليلةَ؟» فقال أبو طلحة: أنا، قال: «فانزل». قال: فنزل في قبرها»[٣].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب - وإنَّ عيني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتذْرِفان - ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له»[٤].

---

(١) صحيح ابن حبان (٣/ ٣١) عند حديث رقم (٧٥٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٥). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٣٨).

(٣) رواه البخاري (١٢٨٥).

(٤) رواه البخاري (١٢٤٦).

فائـدة: صفة بكائه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما بكاؤه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كان تدمع عيناه حتىٰ تهمُلا، ويُسمَع لصدره أزيز. وكان بكاؤه تارةً رحمةً للميت، وتارةً خوفًا علىٰ أمته وشفقةً، وتارةً من خشية الله، وتارةً عند سماع القرآن وهو بكاءُ اشتياقٍ ومحبَّةٍ وإجلالٍ مصاحبٍ للخوف والخشية.

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، وبكىٰ رحمةً له، وقال: «تدمَع العينُ ويحزَن القلبُ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا؛ وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون».

وبكىٰ لمَّا شاهد إحدىٰ بناته، ونفسُها تفيض. وبكىٰ لما قرأ عليه ابنُ مسعود سورة النساء، وانتهىٰ فيها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء:٤١] وبكىٰ لما مات عثمان بن مظعون. وبكىٰ لما كسَفت الشمسُ، فصلَّىٰ صلاة الكسوف؛ وجعل يبكي في صلاته وينفخ ويقول: «ربِّ ألم تعِدْني أنْ لا تعذِّبَهم وأنا فيهم وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرك»، وبكىٰ لما جلس علىٰ قبر إحدىٰ بناته. وكان يبكي أحيانًا في صلاة الليل »(١).

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٢٥).

٢- من بكاء أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: « لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفي النهار، بكرة وعشية، ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بفِناء داره، **فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشرافَ قريشٍ من المشركين** »(١).

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: « أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أقبل علىٰ فرس من مسكنه بالسُّنح، حتىٰ نزل فدخل المسجد، فلم يكلمِ الناس حتىٰ دخل علىٰ عائشة، فتيمَّمَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُغَشًّىً بثوبِ حِبَرَةٍ، **فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّلَه وبكىٰ**، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّهَا »(٢).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: (**فقبله**) فيه جواز تقبيل الميت تعظيمًا وتبرُّكًا؛ لأنه لم يُنقل أنه أنكرَ أحدٌ من الصحابة علىٰ أبي بكر فكان إجماعًا. قوله: (**حتىٰ رأيت الدموع**. . . إلخ) **فيه جواز البكاء علىٰ الميت** »(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥٣).

(٣) نيل الأوطار (٤/ ٣٢).

وعن أوسط بن إسماعيل البجلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه سمع أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حين قُبض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقامي هذا عامَ الأوَّلِ، **ثم بكىٰ أبو بكر**، ثم قال: «**عليكم بالصدق، فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذبَ، فإنه مع الفجور وهما في النار، وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤتَ أحدٌ بعد اليقين خيرًا من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بعد وفاة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: انطلق بنا إلىٰ أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزورها، **فلما انتهينا إليها بكَتْ**. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما أبكي أنْ لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. **فهيجتهما علىٰ البكاء. فجعلا يبكيان معها** »(٢).

٣- من بكاء عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والزُّبيرَ بن العوام وأبا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ، وكلُّنا فارسٌ، فقال: «**انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها امرأةً**

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) وأحمد في المسند (٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١١٨) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٤٥٤).

من المشركين معها صحيفةٌ من حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ إلىٰ المشركين»، قال: فأدركناها تسيرُ علىٰ جمَلٍ لها حيثُ قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: قلنا: أين الكتابُ الذي معك؟ قالت: ما معي كتاب. فأنَخْنَا بها فابتَغينا في رحلِها، فما وجدنا شيئًا، قال صاحباي: ما نرىٰ كتابًا، قال: قلت: لقد علمتُ ما كذب رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي يُحلفُ به لتُخرِجنَّ الكتابَ أو لأجردنَّكِ، قال: فلما رأتِ الجِدَّ مني أهوَتْ بيدِها إلىٰ حُجْزَتِها وهي محتجِزَةٌ بكِساءٍ، فأخرجتِ الكتاب، قال فانطلقنا به إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: **«ما حملك يا حاطب علىٰ ما صنعت؟»** قال: ما بي إلا أن أكون مؤمنًا بالله ورسوله، وما غيرتُ ولا بدَّلتُ، أردتُ أن تكون لي عند القوم يدٌ يَدفعُ الله بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك هناك إلا وله من يدفعُ الله به عن أهله وماله، قال: **«صدق، فلا تقولوا له إلا خيرًا»**، قال: فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فأضرب عنقه، قال: فقال: **«يا عمر، وما يدريك؟ لعل الله قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»**. قال: **فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم**[1].

والشاهد من الحديث؛ بكاءُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ما سمع ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل أهل بدر وإعذار حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٥٩).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ... فأخذت ثوبي فأخرُجُ حتىٰ جئتُ، فإذا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مَشْرُبَةٍ له، يرقىٰ عليها بعَجَلَةٍ، وغلامٌ لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أسودُ علىٰ رأسِ الدَّرَجة، فقلت له: قل هذا عمر بن الخطاب، فأذن لي، قال عمر: فقصصت علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسَّم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **وإنه لعلىٰ حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أَدَم حشْوُها لِيفٌ، وإن عند رجليه قَرَظًا مصبُوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ مُعلَّقة، فرأيت أثَّر الحصير في جنبه فبَكَيْتُ**، فقال: «**ما يبكيك**»، فقلت: يا رسول الله، **إن كسرىٰ وقيصر فيما هما فيه**، وأنت رسول الله، فقال: «**أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « دخلت علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو مضطجع علىٰ سرير مُرْمَلٌ بشريطٍ، وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ، حشوها لِيفٌ، فدخل عليه نفرٌ من أصحابه، ودخل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فانحرف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **انْحِرَافةً فلم يَرَ عمرُ بين جنبِه وبين الشَّريطِ ثوبًا، وقد أثَّر الشريطُ بجنب** النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فبكىٰ عمر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال له النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما يبكيك يا عمر؟**» قال: والله ما أبكي إلا أن أكون أعلم أنك أكرم علىٰ الله من كسرىٰ، وقيصر، وهما يعيشان في الدنيا فيما يعيشان فيه، وأنت يا رسول الله،

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٣).

بالمكان الذي أرى. فقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**» قال عمر: بلىٰ، قال: «**فإنه كذاك**»»[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صلَىٰ صلاةً جلَس، فمن كانت له حاجةٌ كلَّمه، ومن لم تكن له دخلَ، فصلىٰ ذات يوم فلم يجلس، قال: فجئت فقلت: يا يرفأُ، بأميرِ المؤمنين شكوىٰ؟ قال: لا والحمد لله، قال: فجاء عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجلس، فلم يلبثْ أن جاء يرفأُ فقال: قم يا ابنَ عفَّانَ، قم يا ابنَ عباسٍ، فدخلنا علىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعنده صَبْرةٌ من المال، علىٰ كل صَبرةٍ منها كَتْفٌ، فقال: إني نظرت في أهل المدينة فوجدتكما أكثرَ أهلِ المدينة عشيرةً، فخذا هذا المال فاقتسماه، فإن بقي شيء فردَّاه. فأما عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحَثا، وأما أنا فقلت: وإن نقَصَ شيء أتممتَه لنا؟ قال: شِنْشِنَةٌ من أَخْزَمَ، أما ترىٰ هذا كان عند الله، ومحمدٌ وأصحابُه يأكلون القَدَّ؟ قال: قلت: بلىٰ والله لقد كان هذا عند الله ومحمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يأكلون القد، ولو فُتِحَ هذا علىٰ محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَنعَ غير الذي تصنعُ، قال: فكأنه فزع منه، فقال: وما كان يصنع؟ قلت: لأكل وأطعمنا، قال: فنشج حتىٰ اختلفت أضلاعه، وقال: لوددت أني خرجت منها كَفافًا، لا عليَّ ولا لي»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤١٧) والبخاري في الأدب (١١٦٣) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٢٣) وابن حبان (٦٣٦٢) وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (١٢٤١٧).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٥٨٣) حديث رقم (١٣٠٣٨).

وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: « طلبني عمر، فأتيته، فإذا بين يديه نِطْعٌ - بساط من جلد - عليه الذهب منقور، فقال: اذهب فاقسم هذا بين قومك؛ واللهُ أعلم حين حبس هذا عن نبيِّه، وعن أبي بكرٍ، ألخيرٍ أعطاني أم لشرٍّ.

قال: ثم سمعتُ البكاء، فإذا صوتُ عمر يبكي، ويقول في بكائه: **كلا والذي نفسي بيده، ما حبس اللهُ هذا عن نبيِّه وعن أبي بكر لشرٍّ لهما، وأعطاه عمرَ إرادةَ الخيرِ به** »[1].

وعن عون بن أبي جُحيفة، عن أبيه قال: « جاء قوم إلىٰ عمر يشكون الجَهْد، فأرسل عينيه بأربعٍ[2]، ورفع يديه ثم قال: **اللهم لا تجعل هلَكَتَهم علىٰ يدي**. ثم أمر لهم بطعام »[3].

ورُوي أن رجلًا قدم من الشام إلىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: « ما أقدمك؟ قال: قدمت لأتعلم التشهد، فبكىٰ عمر حتىٰ ابتلت لحيته، ثم قال: والله إني لأرجو من الله أن لا يعذبك أبدًا »[4].

٤- من بكاء عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن هانئ مولىٰ عثمان، قال: « كان عثمانُ بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا وقف علىٰ قبرٍ يبكي حتىٰ يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تذكرُ الجنةَ والنارَ ولا تبكي، وتبكي من هذا؟

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٤١٩-٤٢٠). وحسنه ابن حجر في المطالب العالية (٣/ ٣٦٦).

(٢) أي: بدمع غزير، جرىٰ من نواحي عينيه الأربعة، لسان العرب (٨/ ٩٩).

(٣) أخرجه الدار قطني في كتاب الأفراد (ص/ ١٦٧) حديث رقم (٢٤).

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - لأبي بكر الكاساني الحنفي (١/ ٢).

قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «إن القبرَ أولُ منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينجُ منه، فما بعده أشدُّ منه» قال: وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما رأيتُ منظرًا قطُّ إلا والقبرُ أفظعُ منه» »(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: « مكث آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعة أيام ما طعموا شيئًا، حتىٰ تضاغَوا صبيانَهم(٢)، فدخل عليٌّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا عائشة، هل أصبتم بعدي شيئًا؟» فقلت: من أين إن لم يأتِنا اللهُ به علىٰ يدِكَ؟ فتوضأ وخرج مُستَحِثًّا، يصلي هاهنا مرة وهاهنا مرة يدعو! **قالت**: فأتانا عثمانُ من آخرِ النَّهار، فاستأذن، فهممتُ أنْ أَحجُبَه، ثم قلت: هو رجل من مَكاثيرِ المسلمين، لعلّ الله إنما ساقه إلينا؛ ليُجريَ لنا علىٰ يديه خيرًا، فأذنتُ له، فقال: يا أمتاه، أين رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقلتُ: يا بُنيّ، ما أُطعم آلُ محمدٍ من أربعةِ أيامٍ شيئًا، فدخل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَغيرًا ضامرَ البَطنِ، فأخبَرَتْهُ بما قال لها، وبما ردَّتْ عليه، **فبكىٰ عثمان** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم قال: **مَقتًا للدنيا**. ثم قال: يا أمَّ المؤمنين، ما كنت بحقيقةٍ أن ينزِل بكِ مثلُ هذا، ثم لا تذكُريه لي، ولِعبد الرحمنِ بنِ عوفٍ، ولِثابت بن قيسٍ، ونظائرِنا من مكاثيرِ المسلمين. **ثم خرج**،

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦٧) والترمذي (٢٣٠٨) وأحمد (٤٥٤) وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٢٨) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (٤٥٤).

(٢) تضاغىٰ: يقال: ضغا يضغو ضغوا وضغاء إذا صاح وضج، والتضاغي: الصياح والبكاء. النهاية (٣/ ٩٢).

فبعث إلينا بأحمالٍ من الدقيق، وأحمالٍ من الحِنطة، وأحمالٍ من التَّمر، وبِمَسْلُوخٍ، وبثلاثِمائةِ دِرهمٍ في صُرَّةٍ، ثم قال: هذا يُبطئُ عليكم. فأتىٰ بخُبز وشِواءٍ كثيرٍ، فقال: كلوا أنتم هذا، واصنعوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ يجيء، ثم أقسم عليَّ أنْ لا يكونَ مثل هذا إلا أعلمتُه إياه. قالت: ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا عائشة، هل أصبتم شيئًا بعدي؟» قالت: نعم، يا رسول الله، قد علمتُ أنك إنما خرجت تدعو الله، وقد علمتُ أن الله لم يَرُدَّكَ عن سؤالك. قال: «فما أصبتم؟» قلت: كذا وكذا حِمْلَ بعيرٍ دقيقًا، وكذا وكذا حِملَ بعير حِنْطةً، وكذا وكذا حمل بعير تمرًا، وثلاثُمائة درهم في صُرةٍ، وخُبزٌ، وشِواءٌ كثيرٌ. فقال: «ممن؟» فقلت: من عثمان بن عفان، دخل علي، فأخبرتُه؛ فبكىٰ، وذكر الدنيا بمَقْتٍ، وأقسم عليَّ أنْ لا يكون فينا مثلُ هذا إلا أَعلمتُهُ، قالت: فما جلسَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ خرج إلىٰ المسجد، ورفع يديه، وقال: «اللهم إني قد رضيت عن عثمان؛ فارض عنه»»(١).

٥- من بكاء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في حديث طويل وفيه: وخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس في غزوة تبوك، قال: فقال له علي: أَخْرُجُ معك؟، قال: فقال له نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا»، فبكىٰ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما

---

(١) أخرجه ابن شاهين شرح مذاهب أهل السنة (ص/ ١٣٦) رقم (٩٨) وأبو نعيم في فضائل الخلفاء الأربعة (٣٢) وابن عساكر (٣٩/ ٥٢- ٥٣) وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٢١٧).

ترضىٰ أن تكون منّي بمنزلة هرون من موسىٰ؟، إلا أنك لست بنبي، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي»(١).

٦- من بكاء عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

عن نافع رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « كان عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦] بكىٰ حتىٰ يغلبه البكاء »(٢).

وعن القاسم بن أبي بَزَّةَ، قال: « حدثني من سمع ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [المطففين: ١] فلما بلغ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٦] بكىٰ، حتىٰ خر وامتنع من قراءة ما بعده »(٣).

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: « التقىٰ عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، علىٰ المروة، فتحدَّثا، ثم مضىٰ عبد الله بن عمرو، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: - هذا يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠٦٢) والطبراني في الكبير (١٢٥٩٣) والحاكم في المستدرك (٤٦٥٢) وصححه العلامة أحمد محمد شاكر في تحقيق المسند (٣٠٦٢) وأصله في الصحيحين.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٨) حديث رقم (٣٤٦٤٧).

(٣) أخرجه وكيع في كتاب الزهد (ص/ ٢٥٢) حديث رقم (٢٧).

الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، أكبه الله علىٰ وجهه في النار» »(١).

وعن العوام بن حوشب رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « رُئيَ ابنُ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، في حلقة عبيد بن عمير – وكان من أبلغ الناس – يبكي، حتىٰ بلَّ الحصىٰ بدموعه »(٢).

٧- من بكاء عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

عن زيد بن وهب رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: « جاء رجلان إلىٰ عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قد اختلفا في آية، فقرأها أحدهما، فقال عبد الله: أحسنتَ، من أقرأك؟ قال: أقرأني أبو حكيم المُزَني، واستقرأ الآخرَ، فقال: أحسنت، من أقرأك؟ فقال: أقرأني عمر بن الخطاب، قال: فبكىٰ عبد الله حتىٰ خَضَبَ دُموعُه الحصىٰ، ثم قال: اقرأ كما أقرأك عمر، ثم دوَّر دارةً بيده، ثم قال: **إن عمر كان حصنًا حصينًا للإسلام، يدخل الناس فيه ولا يخرُجُون منه، فلما مات عمر انثلم الحصن، فالناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه** »(٣).

---

(١) رواه أحمد (٧٠١٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٠٥) وصححه شعيب الأرناؤوط في تخرج المسند (٧٠١٥) والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٠٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (١١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٣٣) رقم (٣٤١٧٦) وعبد الرزاق في المصنف (١٤١٢٩) واللفظ له.

وعن محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: « لما نفىٰ عثمان أبا ذر إلىٰ الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفِّناني، ثم ضعاني علىٰ قارعة الطريق، فأول ركب يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعينونا علىٰ دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه علىٰ قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في رهطٍ من أهل العراق عمّار، فلم يرعهم إلا بالجنازة علىٰ ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام. فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعينونا علىٰ دفنه، قال: **فاستهل عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يبكي ويقول**: صدق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك**»، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدَّثهم عبد الله بن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسيره إلىٰ تبوك »(١).

٨- من بكاء أُبيٍّ بن كعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله أمرني أن أُقرئك القرآن**»، قال: آللهُ سمَّاني لك؟ قال: «**نعم**»،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٤) وتاريخ الطبري (٣/ ١٠٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٢٢)، وقال ابن كثير: إسناده حسن. السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ١٥).

قال: وقد ذكرتُ عند رب العالمين؟ قال: «نعم»، فذرفَتْ عيناه[1]، وفي لفظ لمسلم: «فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أما بكاؤه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فبكاء سرور واستصغار لنفسه عن تأهيله لهذه النعمة، وإعطائه هذه المنزلة، والنعمة فيها من وجهين:

أحدهما: كونه منصوصًا عليه بعينه، ولهذا قال: (وسماني؟) معناه: نص عليَّ بعيني، أو قال: اقرأ علىٰ واحد من أصحابك، قال: (بل سماك)، فتزايدت النعمة.

والثاني: قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنها منقبة عظيمة له لم يشاركه فيها أحد من الناس، وقيل: إنما بكىٰ خوفًا من تقصيره في شكر هذه النعمة »[2].

٩- من بكاء عمر بن عبد العزيز:

عن عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلَّاه يدُهُ علىٰ خدِّهِ، سائلة دموعه، فقلت: يا أمير المؤمنين! ألِشيءٍ حَدَث؟

قال: يا فاطمةُ! إني تقلَّدتُ أمر أُمَّةِ محمد، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور والغريب المأسور،

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦١) ومسلم (٧٩٩)

(٢) شرح مسلم (١٦/ ٢١) حديث (٧٩٩).

والكبير، وذي العيال، في أقطار الأرض. **فعلمتُ أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصْمَهُم دونَهم محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فخشيت ألا تثبت لي حُجَّةٌ عند خصومته، فرَحِمْتُ نفسي فبكيتُ** »[1].

وعن عبد السلام، مولىٰ مسلمة بن عبد الملك قال: « **بكىٰ** عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا **فبكت فاطمة، فبكىٰ أهل الدار**، لا يدري هؤلاء ما أبكىٰ هؤلاء، فلما تجلىٰ عنهم العَبَرُ، قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيتَ؟ قال: **ذكرت يا فاطمة مُنْصَرَفَ القوم من بين يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير**، قال: **ثم صَرَخَ وغُشيَ عليه** »[2].

وعن سفيان قال: « كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا ساكتًا وأصحابه يتحدثون، فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: **كنت مفكرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكىٰ** »[3].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: « لما عُزِلَ عمرُ بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، عن المدينة يعني في سنةِ ثلاثٍ وتسعين **وخرَج منها التَفتَ إليها وبَكَىٰ**، وقال لمولاه: يا مُزاحمُ، **نخشىٰ أن نكونَ ممن نفَتِ المدينةُ**. يعني أن المدينةَ تنفي خَبَثَها كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد، وتَنصَعُ طِيبَها، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: خرج من

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ١٩٧) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٦٩).

(٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار- ابن رجب (٤/ ١٣٢).

المدينة فنزل بمكانٍ قريبٍ منها يقال له: السويداء حينًا، ثم قدَم دمشق علىٰ بني عمه »[1].

١٠- من بكاء عبد الله بن المبارك:

عن القاسم بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كنا نسافر مع ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي: بأيِّ شيءٍ فُضِّلَ هذا الرجل علينا حتىٰ اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إنْ كان يصلي إنَّا لنصلي، ولئن كان يصوم إنَّا لنصوم، وإنْ كان يغزو فإنَّا لنغزو، وإنْ كان يحج إنَّا لنحجّ.

قال: **فكنّا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشَّىٰ في بيتٍ إذ طَفِئَ السراجُ،** فقام بعضنا، فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة، ثم جاءَ بالسّراج، فنظرتُ إلىٰ وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلّت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، **ولعله حين فَقَدَ السراج فصار إلىٰ الظلمة ذكر النار.**

قال المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسمعت أبا عبد الله بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: **ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له »**[2].

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٣).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٣٠).

المطلب الثاني: من أقوال البكّائين وأحوالهم في البكاء:

١- ثابت بن أسلم البناني:

عن حماد بن سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أشبه عينيك بعيني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قال: فبكىٰ ثابت حتىٰ عَمَشَتْ عيناه»(١).

وعن حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «رأيت ثابتًا البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبكي حتىٰ تختلف أضلاعه»(٢).

وعن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «ما رأيت قط أصبر علىٰ طول المقام والسهر من ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صحبناه مرة إلىٰ مكة فكنا إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي، وإلا فمتىٰ شئت أن تراه أو تحس به مستيقظًا ونحن نسير إما باكيًا وإما تاليًا»(٣).

٢- الحسن البصري:

عن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «بينما الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في يوم من رجبٍ في المسجد وهو يمُصُّ ماءً ويَمُجُّه تنفَّس تنفُّسًا شديدًا، ثم بكىٰ حتىٰ رُعِدَتْ منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياةً، لو أن بالقلوب صلاحًا، لأبكيتكم من ليلةٍ

---

(١) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٢/ ٢٧٠).

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٣٦٢).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٥٥).

صبيحتُها يوم القيامة، إن ليلةً تمخَّضُ عن صبيحة يوم القيامة، ما سمع الخلائق بيوم قطُّ أكثرَ فيه عورةٌ باديةٌ، ولا عينٌ باكية من يوم القيامة »[١].

وعن منصور بن زاذان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان الحسن ربما بكىٰ حتىٰ نَرِقَّ له »[٢].

وعن عبيد الله بن العيزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « ما رأيت الحسن إلا صارًّا[٣] بين عينيه، عليه كآبة، كأنه رجلٌ أُصيب بمصيبة، فإن ذَكَر الآخرة، أو ذُكِرت بين يديه جاءت عيناه بأربع »[٤].

وعن يحيىٰ بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان الحسن إذا تكلم شفىٰ النفوس من إسبال الدموع. قال: وما قعدتُ إليه يومـًا قطُّ إلا بكيتُ حتىٰ اشتفيت »[٥].

وعن عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « لو رأيتَ الحسن إذا أقبل لبكيت لرؤيته من قبل أن يتكلم! ومن ذا الذي كان يرىٰ الحسن فلا يبكي؟ ومن كان يقدر يملك نفسه عن البكاء عند رؤيته؟ ثم بكىٰ عبد الواحد بكاءً شديدًا »[٦].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص/ ٢٠٩) رقم (١٤٤٥).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٣٣).

(٣) قبضه وزوىٰ ما بين عينيه.

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٣٤).

(٥) المصدر السابق (٢٣٩).

(٦) المصدر السابق (٢٤٠).

وعن الهيثم بن عبيد الصيد الصيرفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت أبي يقول: أتيتُ الحسن سنةً، فما أخطأني يومٌ آتيه إلا وأنا أرىٰ دموعه تجري علىٰ لحيته! »(١).

٣- مالك بن دينار:

عن سهيل بن عبد الله القطعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « صلىٰ بنا مالك بن دينار العصر، فلما سلَّم عضَّ علىٰ إصبعه، فلم تزل عيناه تدمعان حتىٰ غابت الشمس! »(٢).

وعن مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « لو ملكتُ البكاء لبكيتُ أيام الدنيا، **ولولا أن يقول الناس مجنون لوضعت التراب علىٰ رأسي، ثم نُحتُ علىٰ نفسي في الطرق والأحياء حتىٰ تأتيني منيتي،** ثم بكىٰ »(٣).

٤- عطاء السليمي:

عن سرَّار أبي عبيدة، قال: قالت لي امرأةُ عطاء السَّليمي(٤): « عاتِبْ عطاءً في كثرة البكاء. فعاتبته، فقال لي: **يا سرَّار كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ؟ إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه، تمثَّلت لي نفسي بهم، فكيف بنفس تُغَلُّ يدها إلىٰ عنقها، وتُسحب إلىٰ النار** ألَّا تصيح وتبكي؟ وكيف

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٤٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٦/ ٤١١).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٦٥).

(٤) عطاء السَّليمي؛ من صغار التابعين.

لنفس تُعَذَّب ألا تبكي؟ ويحك يا سرَّار! ما أقل غَناءَ[1] البكاء عن أهله إن لم يرحمهم الله! قال: فسكتُّ عنه »[2].

وعن صالح المُرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « قلت لعطاء السَّليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما تشتهي؟ فبكىٰ ثم قال: أشتهي والله يا أبا بشر، أن أكون رمادًا لا تجتمع منه سُفَّةٌ أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة. قال صالح: فأبكاني والله، وعلمت أنه إنما أراد النجاة من عَسَرِ يوم الحساب »[3].

وقيل لعطاء السليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما تشتهي؟ قال: أشتهي أن أبكي حتىٰ لا أقدر علىٰ أن أبكي! قال: فكان يبكي الليل والنهار، وكانت دموعه الدهرَ سائلةً علىٰ وجهه »[4].

وعن جعفر بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « دخل رجلان علىٰ عطاء السليمي، فوجداه يبكي. فقال أحدهما لصاحبه: أمَّا هذا فسيبكي ثلاثة أيام ولياليهن، قال: فخرجا وتركاه »[5].

---

(١) الغناء: النفع والكفاية.

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص/ ١٣١).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٩٥).

(٤) الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح لابن الجزري (ص/ ٢١).

(٥) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٢٣).

٥- ورَّاد العجلي:

عن حفص بن غياث رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كنا ذات يومٍ عند ابن ذر[١] وهو يتكلم، فذكر رواجف القيامة وزلازلها وأهوالها، وشدة الأمر يومئذ هناك، قال: واستبكىٰ ابنُ ذر، وبكىٰ الناسُ يومئذ بكاءً شديدًا، قال: فوثب رجل من بني عجل يقال: له: "ورَّاد" - ورَّاد العجلي- فجعل يبكي، ويصرخ، ويضطرب، حتىٰ هدأ، قال: ثم حُمل من بين القوم صريعًا، قال: فجعل ابن ذر يومئذ يبكي، ويقول: ليس كلُّنا قد أتاه الأمان من الله يا ورَّاد غيرك! ليس كلنا قد أيقن بالنجاة من النار غيرك، وتالله أيها الناس ما أخو بني عجل بأولىٰ بالخوف من الله منا ومنكم، وما منا أحدٌ إلا علىٰ مثل حاله بين خوفٍ ورجاء، وإنا فيما نَدَبنا الله إليه من طاعته لمشتركون جميعًا، فما الذي قَصر بنا وأسرع به؟ وكَلَم قلبه حتىٰ أبكاه، فأخرجه إلىٰ ما رأيتم من مخافة الله؟ وكلنا قد سمع الموعظة وفهم التذكرة، فلم يكن من أحدٍ منا سواه لذلك حرَّكه، ولم تَنبِض من أحد منا في ذلك خارجة.

والله إنْ هذا يا أخا بني عجل إلا من صفاء قلبك، وتراكم الذنوب علىٰ قلوبنا، وما أُرانا نؤتىٰ إلا من أنفسنا، قال: ثم بكىٰ ابنُ ذر، وقرأ الآية: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

---

(١) عمر بن ذر المرهبي؛ روىٰ عنه أبو حنيفة وابن عيينة وابن المبارك وأبو نعيم وكان مرجئًا توفي ١٥٣هجرية، كان يقول: ما رأيت باكيًا قطُّ إلا خُيِّل إليَّ أن الرحمة قد تنزَّلت عليه. الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٩).

قال عمر بن ذر: قال أبي: كنت أرىٰ ورَّادًا العجلي يأتي المسجد مقنَّع الرأس، فيعتزل ناحيةً، فلا يزال مصليًا، وداعيًا، وباكيًا كم شاء الله من النهار، ثم يخرج، ثم يعود فيصلي الظهر، فهو كذلك بين صلاة، ودعاء، وبكاء حتىٰ يصلي العشاء، ثم يخرج لا يكلم أحدًا، ولا يجلس إلىٰ أحد، فسألت عنه رجلًا من حيِّه، ووصفتُه له؛ قلت: شابٌّ من صفته، من هيئته.

قال: بخٍ يا أبا عمر! تدري عمَّن تسأل؟ ذاك ورَّاد العجلي، الذي عاهد الله أنْ لا يضحك حتىٰ ينظر إلىٰ وجه رب العالمين! قال أبي: فكنتُ إذا رأيتُه بعدُ هبتُه »(١).

وقال عمر بن حفص بن غياث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وحدثني سُكَيْن بنُ مسكين - رجل من بنىٰ عجل - قال كانت بيننا وبين ورَّاد قرابة؛ فسألت أختًا كانت له أصغر منه، فقلت: كيف كان ليله؟ قالت: يبكي عامَّة الليل ويصرخ، قلت: فما كان طُعمه؟ قالت: قرصٌ في أول الليل، وقرصٌ في آخره عند السَّحر!

قلت: فتحفظين من دعائه شيئًا؟ قالت: نعم، كان إذا كان السحر، أو قريبٌ من طلوع الفجر؛ سجد، ثم بكىٰ، ثم قال: **مولاي! عبدك يحبُّ الاتصال بطاعتك فأعنه عليها بتوفيقك، يا أيها المنَّان، مولاي! عبدك يحبُّ اجتناب سخطك فأعنه علىٰ ذلك بمنِّك أيها المنان، مولاي! عبدك عظيمُ الرجاء لخيرك،**

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٦٨-٢٦٨).

فلا تقطع رجاءه يوم يفرح بخيرك الفائزون، قالت: فلا يزال علىٰ هذا ونحوه حتىٰ يُصبح! قالت: وكان قد كَلَّ من الاجتهاد جدًّا وتغير لونه.

قال سُكين: **فلما مات ورَّاد فحُمل إلىٰ حفرته، نزلوا إليه ليدفنوه في حفرته، فإذا اللحد مفروش بالريحان، فأخذ بعض القوم الذين نزلوا إلىٰ القبر من ذلك الريحان شيئًا فمكث سبعين يومًا طريًّا لا يتغيَّر، يغدو الناس ويروحون ينظرون إليه**، قال: فكثر الناس في ذلك حتىٰ خاف الأمير أن يفتتن الناس، فأرسل إلىٰ الرجل، فأخذ ذلك الريحان، وفرَّق الناس، قال: وفقده الأمير من منزله، لا يدري كيف ذهب »[١].

٦- حسن بن صالح؛ أبو عبد الله الكوفي العابد:

عن الفضل بن دكين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان حسن بن صالح[٢] إذا نظر إلىٰ جنازة أرسل عينيه بأربع[٣] قال: ودخلنا معه مرةً نعود مريضًا، فنظرتُ إليه يبكي حتىٰ جرت دموعه علىٰ لحيته »[٤].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٩٣) والرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٧٠-٢٧١).

(٢) حسن بن صالح؛ أبو عبد الله الكوفي العابد، كان عليٌّ والحسن ابنا صالح وأمهما قد جزؤوا الليل ثلاثة أجزاء؛ كلٌّ يقوم ثلثا، فماتت أمهما فجزءآ الليل بينهما، فكانا يقومان به حتىٰ الصباح، ثم مات علي بن صالح فقام الحسن به كله. توفي الحسن سنة ١٦٩هجرية. تهذيب الكمال (٦/ ١٧٧-١٩١).

(٣) كناية عن غزارة الدموع.

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٩٣).

وعن عيسىٰ بن هارون بن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عم له كان يكثر مجالسة حسن بن صالح قال: « سمعت حسن بن صالح يقول بعد طلوع الفجر في بيته: **وا أهوالاه! فلو كان هولًا واحدًا لكفىٰ، ولكنها أهوال شتىٰ**، ثم زَفَرَ »[١].

وعن خلف بن تميم: « أن حسن بن صالح كان يصلىٰ إلىٰ السَّحَر، ثم يجلس فيبكىٰ في مصلاه، ويجلس عليٌّ أخوه، فيبكىٰ معه في حُجرته، قال: وكانت أمهما تبكي الليل والنهار، قال: فماتت، ثم مات عليٌّ، ثم مات حسن، قال: فرأيت حسَنًا في منامي، فقلت: ما فعلت الوالدة؟ قال: بُدِّلت بطول ذلك البكاء سرور الأبد، قلت: وعليٌّ؟ قال: **وعليٌّ علىٰ خير**، قلت: فأنت؟ فمضىٰ، وهو يقول: **وهل نتَّكل إلا علىٰ عفوه** »[٢].

٧- يزيد بن أبان الرقاشي:

عن عبد النور بن يزيد بن أبان الرقاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان أبي يبكي، ويقول لأصحابه: ابكوا اليوم قبل الداهية الكبرىٰ! ابكوا اليوم قبل أن تبكوا غدًا! ابكوا اليوم قبل يوم لا يُغني فيه البكاء! ابكوا علىٰ التفريط أيام الدنيا، قال: ثم يبكي حتىٰ يُرفَعَ صريعًا من مجلسه »[٣].

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٩٤).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٥٥).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٥/ ٨٧).

وعن هشام بن حسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بكىٰ يزيد الرقَّاشي أربعين عامًا حتىٰ تساقطت أشفاره[1]، وأظلمت عيناه، وتغيَّرت مجاري دموعه »[2].

وعن عبد الله بن رجاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بكىٰ يزيد الرقاشي أربعين عامًا لا يكاد تَرْقَأ له دمعة! فكان إذا قيل له ذلك قال: إنما الأسف علىٰ أنْ لا أكون تقدمتُ في البكاء! »[3].

وعن فضالة الشحام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت يزيد الرقاشي، يقول في كلامه: أَمِنَ أهلُ الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وأمِنوا من الأسقام فهنيئًا لهم في جوار الله طول المُقام، قال: ثم يبكي حتىٰ يبل لحيته بالدموع »[4].

٨- الربيع بن خثيم:

عن نُسَيْر بن ذُعلوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان الربيع بن خثيم يبكي حتىٰ تبتلّ لحيته من دموعه، ويقول: أدركنا قومًا كنّا في جنوبهم لصوصًا »[5].

وقوله: (كنا في جنوبهم لصوصًا)، هذا من باب الاعتراف بالتقصير والتواضع منه، وليس معناه أن أولئك كانوا يحكمون عليه بهذا الحكم.

---

(١) جمع شفر، وهو شعر الجفن.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٣٠٣).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٦٢).

(٤) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزي (٣٢/ ٧٣).

(٥) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد (٨/ ٣٠٩).

وعن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بلَغنا أنَّ أمَّ الربيع بن خثيم، كانت تنادي ابنها الربيع فتقول: يا بني يا ربيع، ألا تنام فيقول: يا أمه! **من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أنْ لا ينام**، قال: فلما بلغ ورأت ما يلقىٰ من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا والده قد قتلت قتيلًا، قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتىٰ يتحمل علىٰ أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقىٰ من البكاء والسهر بعد لقد رحموك، فيقول: يا والده، هي نفسي »[1].

٩- محمد بن واسع:

عن سعيد بن الفضيل القرشي - مولىٰ بني زُهرة -، قال: « كان محمد بن واسع نازلًا في العُلو، وكان قومٌ يسكنون في داره في السُّفل، قال: فحدثني بعضهم قال: كان يبكي عامة الليل، لا يكاد يَفْتُر، قال: **ثم يُصبح، فإنما يَكْثِر في وجوه أصحابه** »[2]؛ يعني: يبتسم في وجوههم، ويخفي آثار البكاء.

وعن نَسيبٍ لهشام القُرْدوسي قال: « قال رجل: دخلنا علىٰ محمد بن واسع، فقالت عِلْجة[3] في داره؛ فذكرت كلمات بالأعجمية معناها: هذا رجل إذا جاء الليل لو كان قتل أهلَ الدنيا ما زاد »[4].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١١٤).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٢٦).

(٣) العِلج: الرجل من كفار العجم.

(٤) صفة الصفوة (٢/ ١٥٨).

وقال مطر الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « **ما اشتهيت أن أبكي قط حتىٰ أشتفي إلا نظرتُ إلىٰ وجه محمد بن واسع** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكنت إذا نظرت إلىٰ وجهه كأنه قد ثَكِلَ عشرةً من الحزن »(١).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٧/ ٢٠٤).

المبحث الخامس: من أخبار الذين أثَّرَ فيهم البكاء وجواب من عُوتِبَ منهم

مما ورد عن السلف أن بعضهم فقَد بصرَه بسبب كثرة البكاء، وبعضهم أصابه العمش، وبعضهم تساقط شفر عينه، ومع ذلك كانوا يرون أن هذا غير كثير، بل يجيبون علىٰ من ينتقدهم بما يدل علىٰ تعظيمهم لعبادة البكاء من خشية الله سبحانه، ولأننا مقصرون في هذا الجانب فقد يسمع بعضنا شيئًا من أخبارهم فيظنه ضربًا من الخيال، ولكنه الواقع، ومن قرأ عرَف، وفيما يأتي بعض أخبارهم في هذا الشأن، كما يأتي ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: بعض مَنْ أفسد البكاءُ عينيه!

١- **سعيد بن جبير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن القاسم الأعرج رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبكي بالليل حتىٰ عمش »[١].

٢- **بُديل بن ميسرة العُقيلي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد، قال: حدثنا سعيد بن عامر، قال: حُدِّثتُ أن بديلًا العقيلي بكىٰ حتىٰ ذهب بصره »[٢].

وعن بشر بن منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بكىٰ بُديل العُقيلي[٣] حتىٰ قَرِحت

---

(١) الثقات لابن حبان (٤/ ٢٧٦) وحلية الأولياء (٤/ ٢٧٢) والزهد لأحمد بن حنبل (ص/ ٣٠٠).

(٢) الرقة والبكاء (١٩٨).

(٣) وفي مصادر أخرىٰ: بُديْد. وهو ابن ميسرة العقيلي البصري. روىٰ عن أنس بن مالك وآخرين. وثَّقه بن معين والنسائي. روىٰ له الجماعة سوىٰ البخاري. ت ١٢٥هـ وقيل: ١٣٠ هـ. تهذيب الكمال (٤/ ٣١- ٣٣).

مآقيه، فكان يُعاتَبُ في ذلك، فيقول: إنما أبكي خوفًا من طول العطش يوم القيامة »(١).

٣- **منصور بن المعتمر السلمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن زائدة بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان منصور بن المعتمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا رأيتَه قلتَ: رجل قد أصيب بمصيبة منكس الطرف، منخفض الصوت، رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه يومـًا: ما هذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تكاد تسكت، لعلك يا بني أصبت نفسـًا لعلك قتلت قتيلاً، قال: فيقول: يا أماه أنا أعلم ما صنعت بنفسي »(٢).

وعن سلام أبي الأحوص، قال: « كانت عين منصور - بن المعتمر - قد تقبَّضت من كثرة البكاء »(٣).

وعن عطاء بن جبلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سألوا أم منصور بن المعتمر عن عمله؟ فقالت: كان ثلث الليل يقرأ، وثلثه يبكي، وثلثه يدعو »(٤).

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٥٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٦).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٠٠).

(٤) صفة الصفوة (٢/ ٦٦).

٤- **هشام الدَّسْتُوائي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن شاذ[١] بن فيَّاض اليشكري، قال: « بكىٰ هشام الدَّسْتُوائي حتىٰ فسدت عينُه، فكانت مفتوحة، وهو لا يكاد يُبصر بها »[٢].

وعن سعيد بن عامر، قال: « كان هشام بن أبي عبد الله -الدستوائي- قد أظلم عليه بصره من طول البكاء، فكنت تراه ينظر إليك فلا يعرفك إلا أن تكلمه! »[٣].

٥- **مالك بن مغول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن قبيصة بن عقبة السُّوائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كانت عينا مالك بن مغول[٤] رطبةً جدًّا، وكان يقال في ذلك الزمان: إنه طويل البكاء، قال: وربما رأيتُه يُحدِّث والدموعُ علىٰ لحيته جارية »[٥].

٦- **زياد بن مطر العدوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن قتادة، قال: « كان زياد بن مطر العدوي قد بكىٰ حتىٰ عَمِيَ، وبكىٰ ابنُه العلاء بن زياد بعده حتىٰ عَشِيَ بصرُه، قال: وكان إذا أراد أن يتكلم أو يقرأ، جهش بالبكاء »[٦].

---

(١) شاذ؛ لقب غلب عليه، واسمه: هلال بن فيَّاض اليشكري البصري، أبو عبيدة. قال أبو حاتم: صدوق ثقة. روىٰ له النسائي. ت ٢٢٥ هـ. تهذيب الكمال (١٢/ ٣٣٩- ٣٤١).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٩٥).

(٣) المصدر السابق (١٩٩).

(٤) مالك بن مغول بن عاصم البجلي الكوفي، أبو عبد الله - كان من سادة العلماء وثَّقه ابن معين والإمام أحمد، وقال العجلي: مبرِّز في الفضل. وروىٰ سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق الله! فوضع خدَّه بالأرض! توفي ١٥٩ هـ. سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٤- ١٧٦).

(٥) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٩٢).

(٦) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨٧).

٧- **أُسيد الضبِّي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن عمر بن ذر، قال: « قلتُ لأُسيد الضبِّي: قد أفسد البكاء عينيك. قال: فَمَهْ؟ قلت: لو قصَّرتَ قليلًا، قال: إنْ أتاني أمانٌ من الله من دخول النار؟ قال: ثم غُشي عليه »[(١)].

٨- **العلاء بن عبد الكريم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي نعيم، قال: « كان العلاء بن عبد الكريم قد بكىٰ حتىٰ فسدت عينُه من كثرة ما يبكي »[(٢)].

٩- **بَهيم أبو بكر العِجلي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن شهاب بن عبَّاد، قال: « رأيتُ بهيمًا أبا بكرٍ العِجليِّ، وكان قد بكىٰ حتىٰ سقطت أشفاره[(٣)]، وكان رطب العينين جدًا. فقلت لابن أخٍ له: ما شأنه يَمَسُّ عينيه كثيرًا؟ قال: قد فسدت من كثرة ما يبكي، فهي تحكُّه وتَضربُ عليه »[(٤)].

١٠- **عبيدة بنت أبي كلاب** رَحِمَهَا ٱللَّهُ: عن سُلامة العابدة، قالت: « بكت عبيدة بنت أبي كلاب[(٥)] أربعين سنة، حتَّىٰ ذهب بصرُها! فقيل لها: ما تشتهين؟ قالت:

---

(١) الكنىٰ والأسماء للدولابي (٣/ ١٠٥٠).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨٩).

(٣) مفردها: شفر، وهو أصل منبت الجفن، ويطلق علىٰ شعر الجفن أيضًا.

(٤) صفة الصفوة (٣/ ١٧٩).

(٥) عابدة من عابدات البصرة، كانت تقوم الليل كله. قال عبد الله بن رشيد السعدي: رأيتُ الشيوخ والشباب والرجال والنساء من المتعبدين، فما رأيت امرأة ولا رجلًا أفضل ولا أحسن عقلًا من عبيدة بنت أبي كلاب. وقال دواد بن المحبَّر: سمعتُ البراء الغَنوي يقول يوم ماتت عبيدة: ما خلَّفت بالبصرة أفضل منها. صفة الصفوة (٤/ ٣٤- ٣٥)، أعلام النساء لكحالة (٣/ ٢٤٤).

الموت، قيل: ولم ذاك؟ قالت إنّي أخشىٰ كل يوم أصبح أن أجني علىٰ نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة »[١].

١١- **ناشرة بن سعيد الحنفي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن مسمع بن عاصم قال: « انطلقت أنا وعبد العزيز بن سلمان إلىٰ ناشرة بن سعيد الحنفي - وكان قد بكىٰ حتىٰ أظلمت عيناه -، فاستأذنا عليه، فأذن لنا فدخلنا؛ فسلم عليه عبد العزيز، فقال له ناشرة: أبو محمد؟ قال: نعم. قال: ما جاء بك؟ قال: نبكىٰ معك علىٰ ما تقدَّم من سالف الذنوب، قال: فشهق شهقة خر مغشيًّا عليه، وجلس عبد العزيز يبكي عند رأسه، قال: وتنادىٰ أهلُه، فجعلوا يبكون حوله وهو صريع بينهم، فلما رأيتُ البكاءَ قد كثُر انسللتُ فخرجتُ »[٢].

١٢- **فرقد السبخي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن غاضرة بن قرهد، قال: « كان فرقد السبخي قد بكىٰ حتىٰ أضرَّ ذلك البكاء بعينيه، وتناثرت أشفاره »[٣].

١٣- **الشاب المقدسي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن كِلاب بن جُرَي قال: « رأيتُ شابًا ببيت المقدس قد عَمِش من طولِ البكاء، فقلت له: يا فتىٰ! كم تكون العينُ سليمةً علىٰ هذا البكاء؟ قال: فبكىٰ، ثم قال: كما شاء ربي فلتكن، وإذا شاء سيدي

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٨).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٣٨٢) وأوله في الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٠٤).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٠٥) والشفر: هو أصل منبت الجفن، ويطلق علىٰ شعر الجفن أيضًا.

فلتذهبْ، فليست بأكرمَ عليَّ من بدني! إنما أبكي رجاء السُّرور والفرح في الآخرة؛ وإن تكنِ الأخرىٰ فهو والله شقاءُ الدهر وحُزْنُ الأبدِ، والأمرُ الذي كنتُ أخافُه وأحذَرُه علىٰ نفسي، وإني احتسبتُ علىٰ الله عزوجل غفلتي في نفسي وتقصيري في حظي، ثم غُشي عليه»[١].

١٤- الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بشر بن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « رأيت الأوزاعي كأنه أعمىٰ من الخشوع! »[٢].

وعن عفير بن عفان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حدَّثتني أمي قالت: دخلتُ علىٰ امرأةِ الأوزاعيِّ؛ فرأيتُ الحصير الذي يصلي عليه مبلولًا، فقلت: يا أختي أخاف أن يكون الصبي بال علىٰ الحصير! فبكت، وقالت: ذلك دموع الشيخ »[٣].

المطلب الثاني: مَنْ بكى حتى أثَّرتِ الدموع في وجهه!

١- الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عن عبد الله بن عيسىٰ، قال: « كان في وجه عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خطَّان أسودانِ من البكاء »[٤].

٢- ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: عن أبي رجاء العطاردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان هذا الموضع من ابن عباس- أي مجرىٰ الدموع، كأنه الشراك البالي من الدمع »[٥].

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص/ ١٢٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٩).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥/ ١٩٦).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥١).

(٥) حلية الأولياء (٢/ ٣٠٧)، والزهد للإمام أحمد (٢٧١).

٣- **عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن عبد الرحمن بن أسلم، عن أبيه، قال: « كان عمر بن عبد العزيز قد بكىٰ حتىٰ أثَّرت الدموع بوجهه »(١).

٤- **مالك بن دينار** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن جعفر -بن سليمان الضَّبَعي-، قال: « سمعتُ مالك بن دينار، يقول: يا إخوتاه! والله لو ملكتُ البكاء لبكيتُ أيام الدنيا، قال: وكان قد بكىٰ حتىٰ اسودَّ طريق الدموع في خدِّه »(٢).

٥- **يزيد الرقاشي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن زهير السلولي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان يزيد الرقّاشي قد بكىٰ حتىٰ أحرقتِ الدموعُ مجاريها من وجهه »(٣).

٦- **عُتبة الغلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن موسىٰ بن صالح القريعي - من أهل البصرة - قال: « رأيت مجاري الدموع في خدِّ عُتبة الغلام منسلخة، ورأيت عليه إزارًا وكمًّا »(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال: صوتـًا حسنـًا، ودمعـًا غزيراً، وطعامـًا من غير تكلف، فكان إذا قرأ بكىٰ، وأبكىٰ ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلىٰ منزله، فيصيب فيه قوته، ولا يدري من أين يأتيه »(٥).

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢١٤).

(٢) المصدر السابق (٢١٧).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٩٠).

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢١٥).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٨٢).

٧- **الفضل بن عيسى الرقَّاشي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن عُقيبة بن فضالة، قال: « كانت الدموع قد أثَّرت بخدِّي الفضل بن عيسىٰ الرقَّاشي أثراً بيِّنًا، فكان كالشيء المخدوش، نديًّا دهرَه! »(١).

المطلب الثالث: جواب مَنْ عُوتب على كثرة البكاء:

١- **جواب ثابت البناني:** عن جعفر بن سليمان، قال: « اشتكىٰ ثابت البُناني عينه، فقال له الطبيب: اضمن لي خَصلةً تبرأُ عينك، قال: وما هي؟ قال: لا تبك، قال: وما خيرٌ في عين لا تبكي؟! »(٢).

٢- **جواب يزيد بن مَرْثَد:** عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: « قلت ليزيد بن مرثد: ما لي أرىٰ عينيك لا تجف؟ قال: وما مسألتُك عنه؟ قلت: عسىٰ الله أن ينفعني به، قال: يا أخي، إنَّ الله قد توعدني إنْ أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًّا أنْ لا تجف لي عين، قال: فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسىٰ الله أن ينفعني به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلىٰ أهلي، فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي، فيعرض لي فيحول بيني وبين أكله، حتىٰ تبكي امرأتي ويبكي صبياننا، ما يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتي

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢١٦).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢١٠) وصفة الصفوة (٣/ ٢٦٢).

فتقول: يا ويحها! ما خُصِصْتُ به من طول الحُزْنِ معكَ في الحياة الدنيا، ما تَقَرُّ لي معك عينٌ »(١).

٣- **جواب يزيد بن أبان الرقاشي:** عن سلمة بن سعيد، قال: « قالوا ليزيد بن أبان الرقاشي: ما تسأم من كثرة البكاء؟ فبكىٰ، ثم قال: وهل يَشبَعُ المُرْضَعُ من الغذاء؟ والله لوددتُ أني أبكي بعد الدموع الدماء، وبعد الدماء الصديدَ أيام الدنيا، فإنه بلغنا أن أهل النار يبكون الدماء إذا نَفِدَتِ الدموع، حتىٰ لو أرسلت فيها السُّفُنُ لجرت! فما حقُّ امرئٍ لا يبكي علىٰ نفسه في الدنيا وينوح عليها؟ قال: وكان يقول: ابكِ يا يزيدُ علىٰ نفسك قبل حِينَ البكاءِ، إنما سُمِّي نوحًا ﷺ؛ لأنه كان ينوح علىٰ نفسه، يا يزيدُ، من يُصلي لك بعدك؟ ومن يصومُ يا يزيدُ؟ ومن يضرعُ لك إلىٰ ربِّك بعدَك؟ ومن يدعو؟ فكان يعدِّد علىٰ هذا ونحوه، ويبكي ويقول: يا إخوتاه! ابكوا أو بكُّوا أنفسكم، فإن لم تجدوا بكاءً فارحموا كلَّ بكَّاء »(٢).

٤- **جواب ميسرةَ القيسي:** عن نُعيم بن مورِّع التميمي، قال: « حُدِّثتُ عن ميسرةَ القيسي، أنه كان يبكي حتىٰ يُغمىٰ عليه، فيقال له: لو رفقتَ بنفسك؟ فيقول: إنما أُتيتُ من الرفق بها، والله لا أرفق بها أبدًا والقيامة أمامها، حتىٰ أعلم ما لها عند ربها من خير وشر، قال: وكان قد عَمِشَ من طول البكاء! »(٣).

---

(١) الحلية لأبي نعيم (٥/ ١٦٤)، وصفة الصفوة (٤/ ٤٢٤)، وشعب الإيمان (١/ ٥١٨).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٤٧).

(٣) المصدر السابق (٢٦٠).

٥- **جواب أسيد الضبّي :** عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول، قال: « بكىٰ أسيد الضبِّي حتىٰ عمي، وكان إذا عوتب علىٰ البكاء، بكىٰ، وقال: الآن حين لا أهدأ؟ وكيف أهدأ وأنا أموت غدًا؟ والله لأبكينَّ، ثم لأبكينَّ، ثم لأبكينَّ، فإن أدركتُ بالبكاء خيرًا فبمنٍّ الله عليَّ وفضله، وإن تكن الأخرىٰ، فما بكائي في جنب ما ألقىٰ؟ قال: وكان ربما بكىٰ حتىٰ يتأذىٰ به جيرانه من كثرة بكائه »(١).

٦- **جواب الفتى الأزدي:** قال ابن أبي الدنيا: « حدثني محمد، قال: حدثني صدقة بن بكر، قال: سمعت معاذ بن زياد التميمي، يذكر أن فتىً، من الأزد بكىٰ حتىٰ أطلعَ بصره! فعوتب في ذلك فقال:

ألم يرث البكاءَ أُناسُ صدقٍ … فقادهمُ البكا خير المعاد؟
ألم يقلِ الإلهُ: إليَّ عبدي … فكلُّ الخيرِ عندي في المعاد؟

والله لأبكين دائم الدنيا، فإذا جاءت الآخرة؛ فعند الله أحتسبُ مصيبتي في تقصيري »(٢).

٧- **جواب فتى بني مُرَّة:** عن بهيم العجلي(٣) قال: « ركب معنا البحر فتىً من بني مُرَّة من أهل البدو، فجعل يبكي الليل والنهار، فعاتبه أهلُ المركب علىٰ

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (١٩٤).

(٣) يكنىٰ أبا بكر، روىٰ عن أبي إسحاق الفزاري. قال معاوية بن عمرو: كان بهيم رجلاً طوالًا شديد الأدمة، إذا رأيته رأيت رجلًا حزينًا.. وكان يزفر الزفرة فتسمع زفيره.. وبكىٰ حتىٰ سقطت أشفار عينيه. صفة الصفوة (٣/ ١٧٩-١٨٢).

ذلك وقالوا: ارفق بنفسك قليلًا، فقال: إن أقلَّ ما ينبغي أن يكون لنفسي عندي أن أُبكيها، فأبكي عليها أيام الدنيا، لعلمي بما يمرُّ عليها في ذلك اليوم غدًا، قال: فما بقي في المركب أحدٌ إلا بكىٰ. قال عثمان: وكان بهيم رجلًا حزينًا، فكان إذا ذكر هذا البدوي بكىٰ، وقال: **هذا يبكي علىٰ نفسه ويرحمها مما يمرُّ عليها في الموقف، فكيف بما بعد الموقف**. قال: ويبكي بكاء شديدًا إذا ذكره »[1].

٨- جواب الرجل التميمي: عن زُهير السَّلولي، قال: « كان رجل من بلعنبر - من قبائل بني تميم - قد لهج بالبكاء، فكان لا تراه إلا باكيًا، قال: فعاتبه رجل من إخوانه يومًا فقال: لم تبكي رحمك الله هذا البكاء الطويل؟ فبكىٰ ثم قال:

بكيتُ على الذنوب لِعُظْمِ جُرْمي ... وحُقَّ لكل من يَعصي البكاءُ

فلو كان البكاء يردُّ همِّي ... لأَسعَدَتِ الدموعَ معًا دماءُ

ثم بكىٰ حتىٰ غُشي عليه، فقام الرجل عنه وتركه »[2].

٩- جواب عطاء السليمي: كان عطاء السليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يبكي حتىٰ خُشي علىٰ عينه، فأتي طبيب يداوي عينه، قال الطبيب: أداوي بشرط أنْ لا تبكي ثلاثة أيام! قال: فاستكثر ذلك، وقال: لا حاجة لنا فيك »[3].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨٣).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٧).

(٣) شعب الإيمان (١/ ٤٩٦).

المبحث السادس: إخفـــاء البُـــكاء

إنَّ إخفاء الصالحات عون علىٰ الإخلاص، وسبب من أسباب الخَلاص، لا سيما والنفس تحب الظهور، وحب الظهور يقصم الظهور، ولما كان البكاء من أجلِّ العبادات، وأحسن القربات، تعمّد كثيرٌ من السلف إخفاءه، وتجنبوا إظهارَه وإبداءه، فاشتُهر هذا عنهم، واستمر ذلك منهم، وهاك بعضَ أخبارِهم في إخفاء البكاء، وحثّهم علىٰ تجنب التباهي والرياء، وقد تم تقسيم هذا المبحث في مطالب مرتبة، وفقرات مبوّبة.

المطلب الأول: الحث على إخفاء البكاء:

عن عصام الرملي: «أن الحسن، حدَّث يومًا، أو وعظ، فنحب رجلٌ في مجلسه، فقال الحسن: إن كان لله فقد شهرتَ نفسكَ، وإن كان لغير الله هلكتَ! »[1].

وعن الربيع يعني ابن صبيح قال: « وعظ الحسن يومًا، فنحب رجل، فقال الحسن: ليسألنك الله يوم القيامة ما أردت بهذا »[2].

وعن مَعْمَر - بن راشد الأزدي -، قال: « بكىٰ رجل إلىٰ جنب الحسن، فقال: قد كان أحدهم يبكي إلىٰ جنب صاحبه فما يَعْلَمُ به »[3].

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٥٧) والإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص/ ٦٤) رقم (٤٤).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٥٦).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٦٦).

وعن محمد بن واسع، قال: « إنْ كان الرجل ليبكي عشرين سنة، ومعه امرأتُه، ما تعلم به! »(١).

وعن محمد بن واسع، قال: « لقد أدركتُ رجالًا، كان أحدهم يقوم في الصفِّ فتسيل دموعه علىٰ خدَّيه، لا يَشْعُر به الذي إلىٰ جنبه! »(٢).

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما صدق عبد إلَّا سرَّه أنْ لا يُشْعَر بمكانه »(٣).

وعن حماد بن زيد، قال: « جاء ثابت - بن أسلم البناني - إلىٰ محمد بن واسع يعوده، فسلم يحيىٰ البكَّاء علىٰ ثابت فقال: من أنت؟ فقال رجل: هذا أبو مسلم، هذا يحيىٰ، قال: من أبو مسلم؟ قالوا: يحيىٰ البكاء. قال: إنَّ شرَّ أيامِكم يوم عُرفتم بالبُكاء، ونُسبتم إليه »(٤).

المطلب الثاني: من أخبار الذين عُرفوا بإخفاء البكاء:

١- **حذيفة بن اليمان** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: عن الأعمش، قال: « بكىٰ حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، في صلاته، فلما فرغ، التفت، فإذا رجلٌ خلفه - فقال: لا تُعْلِمَنَّ بهذا أحدًا »(٥).

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٦٥).

(٣) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١/ ٤٣٥).

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢/ ٣٤٧).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٦١٤).

٢- **محمد بن كعب القُرظي:** عن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت، قال: « رأيت محمد بن كعب القُرظي يقصُّ، فبكىٰ رجل، فقطع قصصه، وقال: من الباكي؟ قالوا: مولىٰ بني فلان، قال: فكأنه كَرِهَ ذلك »(١).

وعن أبي معشر، قال: « كان محمد بن كعب القرظي يقصُّ ودموعه تجري علىٰ خدَّيه، فإن سمع باكيًا زجره، وقال: ما هذا؟ »(٢).

٣- **أيوب بن أبي تميمة السختياني:** عن حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، غلب أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، البكاء يوْمًا، فقال: « إنَّ الشيخ إذا كَبِرَ مَجَّ، وغَلَبَهُ فوه، فوضع يده علىٰ فيه، وقال: الزكمة ربما عرضت »(٣).

وعن حماد بن زيد، قال: « ذكر أيوب السختياني يومًا شيئًا، فرقَّ، فالتفت كأنه يتمخط، ثم أقبل علينا، فقال: إن الزكام شديد علىٰ الشيخ »(٤).

وعن عبد الرحمن بن مسلم، مولىٰ لآل أبي بكرة قال: « بكىٰ أيوب - السختياني - مرة، فلم يملك عبرته، فقام »(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (١٥١).

(٢) المصدر السابق (١٥٢).

(٣) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١/ ٤٣٥).

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٢٩٥).

(٥) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٦٠).

وعن بسطام بن حُرَيْث، قال: « كان أيوب يَرِقُّ، فيستدمع، فيحبُّ أن يُخفي ذلك علىٰ أصحابه، فيمسك علىٰ أنفه كأنه رجل مزكوم، فإذا خشي أن تَظِبه عَبْرته، قام »(١).

٤- **منصور بن المعتمر السلمي:** عن هُرَيم بن سفيان، قال: « كان منصور - بن المعتمر السلمي- يحدثنا، فيمسحُ الدموعَ مرارًا قبل أن يقومَ »(٢).

٥- **عبد الله بن المبارك:** عن الحسن بن الربيع، قال: « كان ابن المبارك إذا رَقَّ، فخاف أن يَظهَر ذلك منه، قام، وربما أَخذ في حديث آخر! »(٣).

٦- **حسان بن أبي سنان:** عن عبد الله بن عيسىٰ، قال: « أخبرني أبي قال: كان حسان بن أبي سنان يحضر مسجد مالك بن دينار، فإذا تكلم مالك بكىٰ حسان حتىٰ يَبُلَّ ما بين يديه، لا يُسْمَعُ له صوت »(٤).

المطلب الثالث: التباكي المحمود والمذموم:

قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا »(٥).

---

(١) المصدر السابق (١٦١).

(٢) المصدر السابق (١٥٩).

(٣) المصدر السابق (١٦٤).

(٤) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص/ ٦٦) رقم (٤٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد (ص/ ٩٠) رقم (٥٥٩) وأبو داود في كتاب الزهد (ص/ ٥٨) رقم (٣٦).

وعن قَسامة بن زُهير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنّ أبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، خطب الناس بالبصرة فقال: « أيّها الناس ابْكُوا، فإنْ لم تَبْكوا فتبَاكَوْا، فإنّ أهل النّار يبكون الدّموع حتىٰ تنقطع، ثمّ يبكون الدماء حتىٰ لو أُجْرِيَ فيها السفنُ لَسارتْ »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو يتحدَث عن أنواع البكاء -: « وما كان منه مستدعًىٰ متكلَّفًا فهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم.

فالمحمود: أن يُستجلَب لرقَّة القلب ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم: أن يُجتلَب لأجل الخلق.

وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارىٰ بدر: أخبرني ما يُبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإلَّا تباكيتُ، ولم ينكر عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وقال بعض السلف: ابكُوا من خشية الله، فإن لم تبكُوا فتباكَوا »(٣).

---

(١) الطبقات الكبير (٤/ ١٠٣) والزهد للإمام أحمد (ص/ ١٦٣) رقم (١١٠٣). وقد رُوي مرفوعًا ولا يصح.

(٢) جزء من حديث طويل في شأن أسارىٰ بدر. أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) زاد المعاد (١/ ١٢٧).

المبحث السابع: أسباب البكاء من خشية الله

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفيض العين بحسب حال الذاكر، وبحسب ما يُكشفُ له، **ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء** من خشية الله، **وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء** من الشوق إليه »[١].

إن للبكاء أسبابًا متعددة، ودوافعَ متجددة، وليس كل بكاء يُحمد، ولا كلُّ من تَباكىٰ يبلغُ المقصد، فقد يكون البكاء مما يُذمُّ عليه صاحبُه، وقد يكون بكاءً مباحًا أو مما يقاربه، إذ تقتضيه الطبيعة أحيانًا وتصاحبه، وقد يكون بكاءً محمودًا، وعملًا صالحًا سديدًا، إذا كان الدافع إليه الخوف والتعظيم، أو الباعث عليه اليقين وكمال التسليم، أو الرجاء في الثواب والتكريم، أو الندم علىٰ ما سلف من الأوزار، أو الرهبة من عواقب التسويف والإصرار، أو الشكر لله علىٰ نِـعَمِه الكِثار، وفضله المدرار، فهذه الأسباب وغيرها تجعل البكاء مقصودًا، وفاعله مُثابًا ومحمودًا، ولأجل العلم بتلك الأسباب، والظفر بأجورها والثواب، هاك بعضَ أسباب البكاء الذي ينفع، ونعوذ بالله من عين لا تدمع، ومن قلبٍ لا يخشع:

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ١٤٧) حديث رقم (٦٦٠).

١- الخوف من الذنوب وعقوباتها:

إن الذنوبَ سببٌ للهلاك، والعذاب في الدنيا والآخرة؛ فبسبب الذنوب أُهلك قوم نوح بالغرق، وأُهلك قوم صالح بالصيحة، والرجفة حتىٰ أصحبوا في ديارهم جاثمين، وأُهلكت عاد بالريح الصرصر العاتية؛ التي جعلتهم كأعجاز نخل خاوية، وأُهلك قوم لوط بأن اقتلع جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قُراهم - بأمر الله - ثم قلب عاليها سافلها، وأُتبعوا بحجارة من سجيل منضود، وأُهلك فرعون وقومه بالغرق، وأُهلك قارون بالخسف.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جملة من أضرار الذنوب والمعاصي، ومن تلك الأضرار: « حرمان العلم، ووحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، ووحشة بينه وبين الناس، وتعسير أموره عليه، وظلمة يجدها في قلبه حقيقة، ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، ومنها: حرمان الطاعة، وأن المعاصي تقصِّر العمر، وتمحق بركته، وأنَّ المعاصي تزرع أمثالها، ويولِّد بعضها بعضًا، وأنَّ المعاصي سبب لهوان العبد علىٰ ربه وسقوطه من عين الله جَلَّ جَلَالُهُ، ومنها: أن المعاصي تورث الذلَّ، وتفسد العقل، وإذا كثرت المعاصي طُبعَ علىٰ قلب صاحبها، وتُدخل العبد تحت لعنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ورد عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اللعنُ علىٰ معاصٍ، وغيرُها أكبرُ منها، فهي أولىٰ بدخول فاعلها تحت اللعنة، ومن أضرار المعاصي: الحرمان من دعاء الملائكة واستغفارهم، وتُسبب الفساد في الأرض؛ في المياه، والزروع، والثمار، والمساكن، وتُطفئ من

القلب نار الغيرة، وبسبب المعاصي يذهب الحياء، ويَضعف في القلب تعظيم الرب سبحانه، ومنها: أن المعاصي تستدعي نسيان الله لعبده، وتُخرج العبد من دائرة الإحسان، ومن آثار الذنوب أنها تُزيل النِّعم وتُحِلُّ النِّقم، وتُعمي بصيرة القلب وتُطفئ نوره، وتجعل العاصي أسير شيطانه، وتَمحق بركة العمر، والرزق، والعلم، والعمل، والطاعة، ومن أضرار المعاصي: أنها سبب لسوء الخاتمة، وتُنسي العبد نفسه؛ فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها، ومن عواقبها: أنها تستجلب موادّ هلاك العبد في الدنيا والآخرة.. إلىٰ آخر ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أضرار وآثار وعقوبات الذنوب والمعاصي موضِّحًا كل ضرر بالأدلة والأمثلة والتوضيح الذي يستفيد منه المسلم، فأنصح بقراءة هذا الكتاب وكثرة النظر فيه »(١).

ولذلك فقد كان السلف يبكون خوفًا من عواقب الذنوب، وهذا البكاء محمود مطلوب، وقد ورد الحث عليه، وفيما يأتي ذِكْرٌ لبعض النصوص في البكاء فرَقًا من الذنوب وخوفًا من آثارها:

عن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قلت للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا رسول الله، ما النَّجاةُ؟ قَالَ: «**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ**»(٢).

---

(١) نقلت هذه الأضرار باختصار من كتاب الداء والدواء لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من (ص / ١٣٢) وما بعدها. عند فصل/ أضرار المعاصي للعبد في دينه ودنياه وآخرته.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن. وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب رقم (٣٢٣١).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: تعرَّض لما هو سببٌ للزوم البيت من الاشتغال بالله، والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار، وضمن (بكىٰ) معنىٰ الندامة، وعداه بـ (علىٰ) أي: اندم علىٰ خطيئتك باكيًا »(١).

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: « قال رجل لابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا أبا عبد الرحمن، أوصني، قال: ليسعك بيتك، وابك من ذكر خطيئتك، وكف لسانك »(٢).

وعن زيد الخُمري، قال: « كنا عند أبي عبد الرحمن المغازلي، فتكلم، فبكىٰ بعضُ من عنده، فقال أبو عبد الرحمن: دعوه، فإنما معوَّل المذنبين البكاء والتوبة »(٣).

وعن سلمة بن سعيد، عن بعض رجاله، أن زيادًا ضحك ذات يوم حتىٰ علا صوتُه، ثم قال: « أستغفر الله، وبكىٰ بكاءً شديدًا، فقال له جلساؤه بعد ذلك المجلس: ما رأينا - أصلح الله الأمير - بكاء في إثر ضَحِك أسرع من بكائك بالأمس! قال إني والله ذكرتُ ذنبًا أذنبتُه، كنتُ به حينئذ مسرورًا، فذكرتُه، فبكيتُ خوفًا من عاقبته، ثم بكىٰ أيضًا »(٤).

---

(١) شرح المشكاة للطيبي (١٠/ ٣١٢٤).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٠).

(٣) المصدر السابق (٢٨٠).

(٤) المصدر السابق (١٧٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد، قال: حدثني الصلت بن حكيم، قال: بتنا ذات ليلةٍ عند صاحبٍ لنا، ومعنا أبو عبد الرحمن، فجعل بعض قرَّائنا تلك الليلة يقول:

وما لي لا أبكي على الذنب إنني ... أرى الذنبَ داءً في الجوانح والقلب[(١)]

وعن محمد بن الحارث بن عبد ربه القيسي - وكان ذا قرابة لرياح القيسي - قال: « كنتُ أدخل عليه المسجد وهو يبكي، وأدخل عليه بيته وهو يبكي، وآتية في الجبَّان[(٢)] وهو يبكي، فقلت له يومًا: أنت دهرَكَ في مأتم؟ قال: فبكىٰ، ثم قال: يحقُّ لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا »[(٣)].

وعن موسىٰ بن عيسىٰ، قال: « نظر حذيفة المرعشي[(٤)] إلىٰ رجل وهو يبكي فقال: ما يبكيك يا فتىٰ؟ قال: ذكرتُ ذنوبًا سلفتْ فبكيتُ، قال: فبكىٰ حذيفة، ثم قال: نعم يا أخي فلمثل الذنوب فليُبْك، ثم أخذ بيده، فتنحيًّا، فجعلا يبكيان! »[(٥)].

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٢٣).

(٢) هي المقبرة، وتطلق علىٰ الصحراء أيضًا.

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٣) وصفة الصفوة (٢/ ٢١٨).

(٤) حذيفة بن قتادة المرعشي، صاحب سفيان الثوري. قال فيه الذهبي: هو أحد الأولياء. صحب سفيان الثوري وروىٰ عنه. ومن أقواله: أعظم المصائب؛ قساوة القلب. وجماع الخير في حرفين: حِلُّ الكِسرة، وإخلاص العمل لله. السير (٩/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٥) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٧٤).

وعن طلحة -يعني ابن مُصَرِّف- قال: « كان رجلٌ له ذنوب، فكان له عند كل ذنب منها بَكِيَّةٌ، قال: فقال له غلامه: إن كان هذا دأبك فإني سأقودك أعمىٰ! »(١).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد، قال: سمعت أبا جعفر القارئ، في جوف الليل وهو يبكي ويقول:

ابكِ لذنبك طولَ الدهر مجتهدًا … إن البكاءَ معوَّلُ الأحزانِ
لا تنسَ ذنبكَ في النهار وطوله … إن الذنوب تحيط بالإنسانِ

ويبكي بكاءً شديدًا، ويردِّدُ ذلك (٢).

٢- ذكر النار وأهوال يوم القيامة:

عن محمد بن قيس المدني - قاص عمر بن عبد العزيز -، قال: « سلَّم عمرُ بن عبد العزيز يومًا في الظهر، ثم قال: يا أبا إبراهيم؛ ذكِّرنا بالجنة والنار، قال: فذكَّرت، فما رأيت أحداً من خلق الله أكثر بكاءً منه »(٣).

وعن الفيض بن الفضل البجلي، قال: حدثني جار لمسعر(٤) قال: « بكىٰ مسعر، فبكت أمُّه، فقال لها مسعر: ما أبكاك يا أُمَّه؟ قالت: يا بني رأيتك تبكي

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٨٠).

(٢) المصدر السابق (١٨٤).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص/ ١٥٨). والرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ١٠٨) رقم (١١٥).

(٤) مسعر بن كدام بن ظهير. قال فيه الثوري: لم يكن في زماننا مثله. توفي بالكوفة عام ١٥٢هـ. صفة الصفوة (٣/ ١٢٩).

فبكيت. قال: يا أمَّه لمثل ما نهجُم عليه غدًا فليطلِّ البكاء. قالت: وما ذاك يا بني؟ قال: القيامة وما فيها! قال: ثم غلبه البكاء، فقام. قال: وكان مسعر يقول: لولا أمي ما فارقت المسجد إلا لما لا بد منه، قال: وكان إن دخل بكىٰ، وإن خرج بكىٰ، وإن صلىٰ بكىٰ، وإن جلس بكىٰ »(١).

وعن أبي عبد الرحمن المغازلي، قال: « قال رجل ببعض بلاد الشام في بعض السواحل: لو بكىٰ العابدون علىٰ الشفقة حتىٰ لم يبق في أجسادهم جارحة إلا أدَّت ما فيها من الدَّم والوَدَك - هو الدَّسم - دموعًا جاريةً، وبقيت الأبدان يُبّسًا خالية، تردَّدُ فيها الأرواح؛ إشفاقًا ووجلًا من يوم تذهل فيه كل مرضعةٍ عمَّا أرضعت، لكانوا محقوقين بذلك، ثم غُشي عليه »(٢).

وعن محمد بن فروخ، من ولد أبي نضرة قال: « زارني رياح القيسي، فبكىٰ صبيٌّ لنا من الليل، فبكىٰ رياح لبكائه حتىٰ أصبح، فذاكرتُه يومًا ذلك، فقال: ذكرتُ ببكائه بكاء أهل النار في النار، ليس لهم نصير. ثم بكىٰ »(٣).

وعن محمد بن أبي عثمان، قال: « كان علي يعني ابن الفضيل عند سفيان بن عيينة، فحدث سفيان بحديث فيه ذكر النار، وفي يد علي قرطاس في شيء مربوط، فشهق شهقة ووقع ورمىٰ بالقرطاس أو وقع من يده، فالتفت إليه

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٥١) وصفة الصفوة (٢/ ٧٥).

(٢) صفة الصفوة (٤/ ٣٧٢) والرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص٦٢) رقم (٤٩).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٥٣).

سفيان، وقال: لو علمت أنك ههنا ما حدثت به، فما أفاق إلا بعد ما شاء الله! »[١].

وبكىٰ الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقيل: ما يبكيك؟ قال: « أخاف أن يطرحني غدًا في النّار ولا يبالي »[٢].

وعن أَبِي مُوسَىٰ التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « لما ماتت النوار امْرَأَة الفرزدق شهد جنازتها الحسن بن أبي الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والناس معه، فلما أدخلت قبرها قال الْحَسَن للفرزدق: يا أَبَا فراس: ما أعددت لهذا المضجع؟ قال: شهادة أَن لا إله إلا الله مُذ ثمانون سنة، وأنشأ يقول:

أخاف وراء القبر إن لم تُعافِني ... أشد من القبر التهابًا وأضيقا

إذا جاء فِي يوم القيامة قائد ... عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول المقلد أزرقا

فبكىٰ الْحَسَن وبكىٰ الفرزدق والناس »[٣].

٣- الاحتضار ومعاينة الموت:

عن ابن شماسة المهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « حضرنا عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو في سياقة الموت. فبكىٰ طويلًا وحوله وجهه إلىٰ الجدار. فجعل ابنه يقول:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٩٨).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٣٨) والتخويف من النار لابن رجب (٢٣).

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري (١٢/ ٧٧).

يا أبتاه أما بشرك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بكذا؟ أما بشرك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بكذا؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. إني قد كنت علىٰ أطباقٍ ثلاث. لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدَّ بغضًا لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مني. ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته. فلو مُتُّ علىٰ تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقلت: ابسط يمينك فلأُبايِعْك. فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «**مالك يا عمرو؟**» قال قلت: أردت أن أشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يغفر لي، قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**»، وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له. ولو سُئلتُ أن أصفَه ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأُ عيني منه، ولو مُتُّ علىٰ تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم وَلِينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت، فلا تصبحني نائحةٌ ولا نار، فإذا دفنتموني فشُنُّوا عليَّ التراب شَنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحرُ جَزورٌ، ويُقسَمُ لحمها، حتىٰ أستأنسَ بكم، وأنظرَ ماذا أُراجعُ به رسلَ ربي »[(١)].

---

(١) رواه مسلم (١٢١).

وقال أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « دخلت علىٰ الإِمَام أَبِي بَكْر بْن فورك عائدًا فلما رآني دمعت عيناه! فقلتُ له: إِن شاء الله تَعَالَىٰ يعافيك ويشفيك فقال: لَنْ تراني أخاف من الْمَوْت إِنَّمَا أخاف مِمَّا وراء الْمَوْت »[١].

وعن إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم رحهم الله، قال: سمعت أبي يقول: دخلت علىٰ الحسين بن الفضل وقد احتُضِرَ واغرورقتْ عيناه فقال لي: اكتب يا مضارب:

أيا من لا يخيبُ إليه راجي ... ولم يراه الحاج المناجي
ويا ثقتي على سرَفي وجُرمي ... وإيثار التمادي في اللجاج
أقلني عثرتي واغفر ذنوبي ... وهب لي منك عفوًا واقضِ حاجي
فما لي غير إقراري بجرمي ... وعفوك حجة يوم احتجاجي[٢]

٤- رؤية الجنائز وحضور المقابر:

عن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا معَ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في جَنازَةٍ، فجلسَ علىٰ شفيرِ القَبْرِ، فبَكىٰ حتَّىٰ بَلَّ الثَّرىٰ، ثُمَّ قال: «يا إِخْواني! لِمثْلِ هذا فأَعِدُّوا»[٣].

قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «علىٰ شفير القبر» أي: طرفه «الثرىٰ»؛ أي: التراب «فأعدوا»؛ أي: صالح الأعمال الذي يدخل القبر مع المؤمن »[٤].

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٥٤).

(٢) شعب الإيمان (٥/ ٤٦٦) رقم (٧٣٠٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٥). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٨).

(٤) حاشية السند علىٰ ابن ماجه (٢/ ٥٤٨) حديث رقم (٤١٩٥).

وكان يقال: مشاهدة القبور مواعظ الأمم السالفة(١).

وعن عمر بن سُليم الباهلي، عن أبي الوليد أنه قال: «كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، إذا أراد أنْ يتعاهد قلبه؛ يأتي الخَرِبة فيقفُ علىٰ بابها، فيُنادي بصوت حزين فيقول: أين أهلُك؟ ثم يرجع إلىٰ نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: ٨٨]»(٢).

وعن مفضل بن يونس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «كان الربيع بن أبي راشد يخرج إلىٰ الجبان، فيقيم سائر نهاره، ثم يرجع مكتئبًا، فيقول له أخوه وأهله: أين كنت؟ فيقول: كنت في المقابر، نظرت إلىٰ قوم قد مُنعوا ما نحن فيه، ثم يبكي»(٣).

وعن أبي سهل محمد بن عمرو الأنصاري قال: «كنا مع محمد بن واسع في جنازة، فجعلتُ أنظر إلىٰ دموعه علىٰ لحيته، وهو جالس لا يتكلم بشيء، فذكرت ذلك ليحيىٰ بن مسلم البكاء، فبكىٰ، وقال: إن في دون ما كنتم فيه لما يُبكي؛ القبور»(٤).

وعن محمد بن صالح التمار قال: «كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي، فاتبعته ذات يوم، وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع! قال: فقنَّع رأسه

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠) رقم (٩٣١٠).

(٢) ذم قسوة القلب لابن رجب (ص/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٩) رقم (٩٣٠٧).

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٢٢٥).

وجلس إلىٰ قبر منها، فلم يزل يبكي حتىٰ رحمته، قال: ظننتُ أنه قبر بعض أهله!

قال: فمرَّ بي مرة أخرىٰ، فاتبعته فقعد إلىٰ جنب قبرٍ غيره، ففعل مثل ذلك، فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر وقلت: إنّما ظننتُ أنه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلهم أهله وإخوانه! إنَّما هو رجل يُحَّرك قلبه بذكر الأموات كلَّما عرضت له قسوة، قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بعد يمّر بي فيأتي البقيع، فسلَّمتُ عليه ذات يوم، فقال: ما نفعتك موعظة صفوان؟ قال: فظننت أنه انتفع بما ألقيتُ إليه منها »(١).

وعن أبي بكر الهذلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كانت عجوز في عبد القيس متَعبِّدة، فكان إذا جاء الليل تحرَّمت ثم قامت إلىٰ المحراب، وكانت تقول: المحب لا يسأمُ من خدمة حبيبه، فإذا جاء النهار خرجت إلىٰ القبور، فبلغني أنها عُوتبت في كثرة إتيانها المقابر، فقالت: إن القلب القاسي إذا جفا لم يُلَيِّنه إلا رسومُ البِلىٰ، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلىٰ تلك الوجوه المتعفِّرة، وإلىٰ تلك الأجسام المتغيرة، وإلىٰ تلك الأكفان الدسمة، فيا له من منظر كريه لو أشربه العباد قلوبهم! ما أثكلَ مرارته للأنفس! وأشدَّ إتلافه للأبدان »(٢).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/ ١٣٢) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٧).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٥٠٣) وكتاب «ذم قسوة القلب» للحافظ بن رجب (ص/ ٢٦٧) بنحوه.

وعن محمد بن قدامة قال: « كان الرَّبيع بن خُثَيم إذا وَجَد مِن قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات؛ في الليل فيُنادي: يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان. ثم يقول: ليت شِعري!! ما فعلتَ وما فُعل بك؟ ثم يبكي حتىٰ تسيل دموعه، فُيعرف ذلك فيه إلىٰ مثلها »(١).

٥- المُرور بقبور الظالمين وبآثار مصارعهم:

بوب النووي في كتاب الأذكار: بابُ البكاء والخوف عند المُرور بقبور الظالمين وبمصارعهم، وإظهار الافتقار إلىٰ الله تعالىٰ، والتحذير من الغفلة عن ذلك(٢)، وأورد حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لأصحابه؛ يعني لما وصلوا الحجر ديارَ ثمود: «لا تَدْخُلُوا علَىٰ هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فإنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عليهم، لا يُصِيبُكُمْ ما أَصَابَهُمْ»(٣).

وقيل لبعض حكماء العرب: « ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلىٰ محلة الأموات »(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠) رقم (٩٣٠٨).

(٢) كتاب الأذكار للنووي (ص/ ٢٨٨).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٩) رقم (٩٣٠٦).

٦- الوجَل من رد الأعمال وعدم قبولها:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]: « كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ »(١).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذُكر له فعلُ عمرَ عند موته وخشيتُه من ربه، فقال: « هكذا المؤمنُ جمع إحسانًا وشفقة، والمنافقُ جمع إساءةً وغِرَّةً، والله ما وجدتُ فيما مضىٰ ولا فيما بقي عبدًا ازداد إحسانًا إلا ازداد مخافة وشفقة منه، ولا وجدت فيما مضىٰ، ولا فيما بقي عبدًا ازداد إساءةً إلا ازداد غِرَّةً »(٢).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، زوج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قالت: « سألتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنتَ الصديق، ولكنهم الذين يَصومون ويُصلون ويتصدقون، وهم يخافون أنْ لا تُقبلَ منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١]» »(٣).

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص/ ٢٣٠) رقم (١٦٣٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ١٨٣) رقم (٥٧٩).

(٣) رواه الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣١٧٥).

ويروىٰ عن الحسن قال: « لقد أدركت أقوامًا كانوا من حسناتهم أن تُردَّ عليهم أشفقَ منكم علىٰ سيئاتِكم أن تُعذَّبوا عليها »(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما المخلِّطُ فينبغي له أن يكون تحت خوفٍ من أن يَنفُذَ عليه الوعيدُ بتخليطِه.

وقال أصحابُ الخواطر: وَجَلُ العارفُ من طاعتِهِ أكثرُ وجَلًا من وَجَلهِ من مخالفتِه، لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الغرض ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم، أو من أجل ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] »(٢).

وعن قيس بن سُلَيم العنبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « كان الضحاكُ بن مُزاحِمٍ إذا أمسىٰ بكىٰ، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: لا أدري ما صَعَدَ اليومَ من عَمَلي! »(٣).

٧- الخوف من سوء الخاتمة:

ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلةً إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تِبنَةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف الخاتمة. قال ابن القيم بعد أن أورد هذا الأثر: « **وهذا من أعظم الفقه؛ أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة بالحسنىٰ** »(٤).

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٣١)، ط١ دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ.

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٣٣) [المؤمنون: ٦٠].

(٣) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٧/ ٩٨) رقم (٢٩٨٦).

(٤) الداء والدواء (ص/ ٣٩٠).

٨- الشوق لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن عمر بن محمد، عن أبيه قال: « ما سمعت ابن عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يذكر النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطُّ إلا بكىٰ »(١).

وعن الأحنف بن قيس، قال: « دخلتُ بيتَ المقدِس، فوجدت فيه رجلًا يكثرُ السُّجودَ، فوجدتُ في نفسي من ذلك، فلما انصرف قلتُ: أتدري علىٰ شَفْعٍ انصرفتَ أم علىٰ وِتْرٍ؟ قال: إنْ أكُ لا أدري، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدري، ثم قال: أخبرني حِبِّي أبو القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم بكىٰ، ثم قال: أخبرني حبي أبو القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم بكىٰ، ثم قال: أخبرني حبي أبو القاسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه: «ما من عبد يَسْجُدُ لله سجدةً، إلا رفعه الله بها درجةً، وحَطَّ عنه بها خطيئةً، وكتبَ له بها حسنةً». قال: قلت: أخبِرني من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا أبو ذر، صاحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: فتقاصرت إليَّ نفسي »(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنه قال: « يومُ الخميس وما يومُ الخميس، ثم بكىٰ حتىٰ خضبَ دمعُه الحَصباءَ، فقال: اشتدَّ برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَعُهُ يومَ الخميس، فقال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا» »(٣).

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٢٢٢) رقم (٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٤٥٢) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢٧١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٣) ومسلم (١٦٣٧).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ فاطمةَ بكَتْ علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مات، فقالت: « يا أبتاهُ مِنْ رَبِّهِ ما أدناهُ، يا أبتاهُ إلىٰ جبريلَ ننعاهُ، يا أبتاهُ جنةُ الفِردوس مأواه »[(١)].

وعن عاصمِ بن حُميدٍ السَّكُوني، أن معاذًا لمَّا بعثَه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج معه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِيهِ، ومعاذٌ راكبٌ، ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي تحت راحلِتِه، فلمَّا فرَغَ قال: «يا معاذُ! إنك عسىٰ أنْ لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلَّك أن تمرَّ بمسجدي وقبري». فبكىٰ معاذُ بنُ جَبلٍ جَشَعًا لِفراقِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَبْكِ يا معاذُ، لَلْبُكاءُ، أو إنَّ البكاءَ، من الشيطانِ»[(٢)].

٩- الخوف من تغيّر الأحوال وفتنة الدنيا:

عن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: « دخلت علىٰ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت »[(٣)].

وعن سَعْد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عَنْ أَبِيهِ إبراهيم، قال: « أُتِي عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا بطعامه فقال: قُتل مصعب بن عمير، وكان

---

(١) رواه النسائي (١٨٤٤) والبخاري بنحوه (٤٤٦٢).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠٥٤) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٥٣٠).

خيرًا مني، فلم يوجد له ما يُكفَّنُ فيه إلا بُرْدةٌ، وقُتل حمزةُ أو رجلٌ آخر خيرٌ مني، فلم يُوجدْ له ما يُكفَّنُ فيه إلا بُرْدَةٌ، لقد خَشِيتُ أن يكونَ قد عُجِّلتْ لنا طيباتُنا في حياتِنا الدنيا، ثم جعل يبكي »[(١)].

وعن أَنَسٍ بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: « اشتكىٰ سلمانُ فعاده سعدٌ، فرآه يبكي، فقال له سعدٌ: ما يُبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبتَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أليس؟ أليس؟ قال سلمانُ: ما أبكي واحدةً من اثنتين، ما أبكي حُبًّا للدنيا، ولا كراهيةً للآخِرة، ولكن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَهِد إليَّ عهدًا، فما أُراني إلا قد تعدَّيتُ، قال: وما عهِدَ إليك؟ قال: عهد إلي: «أنه يكفي أحدَكُم مثلُ زاد الرَّاكب»، ولا أُراني إلا قد تعديتُ، وأمَّا أنت يا سعدُ فاتَّق الله عند حُكمِك إذا حكمتَ، وعند قَسْمِكَ إذا قَسَمْتَ، وعند همك إذا هَمَمت، قال ثابت: فبلغني أنه ما ترك إلا بضعةً وعشرين درهمًا، من نُفيقةٍ كانت عنده »[(٢)].

وعن عبد الرحمن بن حفص القُرَشي، قال: « بعث بعضُ الأمراء إلىٰ عمرَ بنِ المنكدر بمالٍ، فجاء به الرسولُ، فوضعه بين يديه، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، ثم جاء أبو بكر، فلما رأىٰ عمرَ يبكي، جلس يبكي لبكائه، ثم جاء محمد، فجلس يبكي لبكائهما، فاشتد بكاؤهم جميعًا، فبكىٰ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (١٢٧٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٢) وصحيح الترغيب (٣٢٢٥).

أيضًا لبكائهم، ثم أرسل إلىٰ صاحبِه، فأخبره بذلك، فأرسل ربيعةَ بنَ أبي عبد الرحمن يستعلمُ عِلمَ ذلك البكاءِ، فجاء ربيعةُ، فذكر ذلك لمحمد، فقال محمد: سَلْهُ، فهو أعلمُ ببكائه مني، فاستأذن عليه ربيعةُ، فقال: **يا أخي ما الذي أبكاك من صِلة الأميرِ لك؟**

قال: **إني والله خشيت أن تَغلِبَ الدنيا علىٰ قلبي، فلا يكونَ للآخرة فيه نصيبٌ، فذاك الذي أبكاني**، قال: فأمر بالمال، فتُصُدِّقَ به علىٰ فقراءِ أهلِ المدينة، فجاء ربيعةُ، فأخبر الأميرَ بذلك، فبكىٰ وقال: **هكذا والله يكون الخير** »[١].

❖❖❖❖❖

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ٧٠) رقم (٦٣) وصفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣٨٠).

المبحث الثامن: بكاء الموعوظين والوعاظ

كان الوعظ عند السابقين ذا شأن كبير، وله في قلوبهم وقع وتأثير، وفي نفوس الصالحين إجلال وتقدير، فكان يُعنىٰ بالمواعظ صغيرهم والكبير، وعامتُهم والأمير، وقد ورد في الأخبار، ما يدل علىٰ سبقهم في هذا المضمار، فترىٰ المتكلم وبعض السامعين، لهم بكاءٌ وخنين، فربما بكىٰ الواعظ والسامعون، وسكب الجميعُ الدمعَ الهتون، وهذا سرد لبعض أخبارهم، ونُبَذٌ من أحوالهم وأطوارهم، عند السماع والإلقاء، وكيف كان خشوعهم والبكاء، وقد رتبته في مطالب متتالية، وعناوين متوالية:

المطلب الأول: البكاء عند سماع المواعظ:

عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بلَغَ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أصحابه شيءٌ، فخطب فقال: «عرضت عليَّ الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»؛ قال: فما أتىٰ علىٰ أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومٌ أشد منه، قال: «غَطَّوا رؤوسهم ولهم خَنينٌ»(١).

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « ومعنىٰ الحديث: لم أر خيرًا أكثر مما رأيته اليوم في الجنة، ولا شرًّا أكثر مما رأيته اليوم في النار، ولو رأيتم ما رأيت، وعلمتم ما علمت مما رأيته اليوم، وقبل اليوم لأشفقتم إشفاقًا بليغًا، ولَقَلَّ ضحككم،

(١) رواه مسلم (٢٣٥٩).

وكثر بكاؤكم، وفيه دليل علىٰ أنه لا كراهة في استعمال لفظة "لو" في مثل هذا، والله أعلم.

قوله: «غطوا رءوسهم ولهم خنين» قال الخليل: هو صوت فيه غنة، وقال الأصمعي: إذا تردد بكاؤه، فصار في كونه غنة فهو خنين، وقال أبو زيد: الخنين مثل الحنين، وهو شديد البكاء »(١).

وقال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله «الجنة والنار» فالجنة تكثر البكاء شوقًا وخوفًا من الحرمان، والنار خوفًا »(٢).

وعن الْعِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قام فينا رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، فوعظَنا موعظةً بليغةً، وجِلَتْ منها القلوبُ، وذرَفت منها العُيونُ، فقيل يا رسول الله: وعظتنا موعظةَ مُودِّعٍ، فاعهَدْ إلينا بعهدٍ، فقال: «عليكم بتقوىٰ الله، والسمعِ والطاعةِ، وإنْ عبدًا حبشيًا، وسترون من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسُنَّتي، وسنةِ الخلفاء الراشِدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإياكم والأُمورَ المُحدَثاتِ، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»(٣).

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ١١٢) حديث رقم (٢٣٥٩).

(٢) حاشية السندي علىٰ النسائي (٣/ ٨٣) حديث رقم (١٣٦٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠).

قال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « «وجِلَتْ» كسمِعَتْ، أي: خافت، قوله: «وذَرَفت»؛ أي: سالت؛ وفي إسناده إلىٰ العيون مع أن السائل دموعها مبالغة، والمقصود إنها أثَّرتْ فيهم ظاهرًا وباطنًا »[١].

وعن قتادة، قال: « دخل علىٰ عمر بن عبد العزيز رجلٌ يقال له ابن الأهتم، فلم يزل يَعِظُه وعمرُ يبكي، حتىٰ سقَطَ مغشيًا عليه »[٢].

وعن أبي عبد الرحمن الطائي، قال: « حدثنا خالد بن صفوان، قال: قال له عمر بن عبد العزيز: ابنَ الأهتم[٣]! بيانك حجةٌ عليك، فأقصر من خطبتك، وأعدَّ الجواب عند الله بحجتك، قال: فبكىٰ ابن الأهتم، وبكىٰ عمر، وارتجت الدار بالبكاء، فما رُئي باكٍ في زمن عمر أكثر من ذلك اليوم »[٤].

وعن أبي جعفر الضرير، قال: « قال لي صالح بن عبد الكريم:

بكىٰ الباكون للرحمن ليلاً ... وباتوا دمعُهم ما يسأمونا
بقاعُ الأرض من شوقٍ إليهم ... تحنُّ متىٰ عليها يسجدونا

قال: فجعلتُ أردِّدُها عليه، فبكىٰ، حتىٰ قلت: الآن تخرج نفسُه »[٥].

---

(١) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه (١/ ١٩) حديث رقم (٤٢).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ١٠٩) رقم (١١٦) وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١٥٤).

(٣) هو المنقري، وكان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وكان من فصحاء العرب المشهورين.

(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١١٧).

(٥) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٢٢).

وقال أبو عمرو بنُ مطر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « حضرتُ مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فخرج، وقعد علىٰ موضعه الذي كان يقعد؛ للتذكير، فسكت حتىٰ طال سكوته فناداه رجل كان يُعرف بأبي العباس: ترىٰ أن تقول في سكوتك شيئًا فأنشأ يقول:

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتُّقى طبيبٌ يُداويْ، والطبيبُ مريضُ

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج »(١).

وعن ابن السماك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « وعظ عمرُ بنُ ذر فجعل فتىً من بني تميمٍ يصرُخُ ويتغيّرُ لونُه، ولا أرىٰ له دمعةً تسيلُ، ثم سقط مغشِيًّا عليه، ثم رأيتُه في مجلسِ ابنِ ذرٍّ يبكي حتىٰ أقولَ: الآن تخرُجُ نفْسُه، فذكرت ذلك لعمر بن ذر فقال: ابن أخي! إنَّ العقلَ إذا طاش فُقِدتِ الحُرقةُ، وقَلُصَتِ الدَّمعةُ، وإذا ثَبَتَ العقلُ فهِمَ صاحبُهُ الموعظةَ فأحرَقَتْه واللهِ، وحزِنَ وبكىٰ »(٢).

المطلب الثاني: البكاء عند إلقاء المواعظ:

عن بكر بن عبد الله المزني: « أن أبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، خطب الناس بالبصرة، فذكر في خطبته النار، فبكىٰ حتىٰ سقطت دموعه علىٰ المنبر، قال: وبكىٰ الناس يومئذ بكاءً شديداً »(٣).

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٤٦٥) رقم (٧٣٠٣).

(٢) الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص/ ٧٢) رقم (١٠٢) وحلية الأولياء (٥/ ١١٢).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء رقم (١٠٣).

وعن أبي قَبِيل حُيي بن هانئ المَعَافري، عن عبد الله بن عمرو، قال: « لو أن رجلًا، من أهل النار أخرج إلىٰ الدنيا، لمات أهل الدنيا من وحشة منظره، ومن ريحه، قال: ثم بكىٰ عبد الله بكاءً شديداً »(١).

وعن عبد الله بن رجاء الغُدَّاني، قال: « حدثني أبو زيد، شيخ بمكة قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يبكي علىٰ المنبر، ما يستطيع أن يتكلم من شدة البكاء »(٢).

(١) المصدر السابق (١٠٤).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (صـ ١٥٨).

المبحث التاسع: بكاء الأمراء عند السماع والإلقاء

إنَّ البكاءَ والخشوعَ من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومن صحابته الكرام، من المسلَّماتِ عند ذوي الأفهام، فهم أهل الخشية والخشوع، والتذلل والخضوع، وكذلك مَن بعدَهم من العلماء، والصالحين الحنفاء، لكنَّه يقِلُّ عند أهل الولاية والإمارة، والسياسة والتجارة، فالغفلة فيهم تكثُر، والخشوع منهم يقلُّ ويَنْدُر، بسبب فتنةِ المناصبِ وكثرةِ الأعمال، والاعتدادِ بالمالِ وصلاحِ الحال. فإنْ وُجِد الخشوع عند بعضهم؛ فإنه يستحق أن يُذكر، وأن يُعنىٰ به ويُشهر، وفي ذُكْـرِ ذلك موعظة ومُعتبَر، وقد جمعت من أخبارهم في هذا الباب، ما فيه ذكرىٰ لأولي الألباب، ورتبته في مطالب نافعة، وعناوين متتابعة:

المطلب الأول: بكاء الأمراء عند سماعهم الوعظ:

١- الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ:

عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « خرج عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ من المسجد ومعه الجارودُ العبديُّ، فإذا بامرأةٍ بَرْزَةٍ علىٰ ظهر الطريق، فسلَّم عليها عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فردَّتْ عليه، أو سلَّمت عليه، فردَّ عليها، ثم قالت: هِيهْ يا عمرُ، عهِدتُك وأنت تُسمَّىٰ عُميرًا في سوق عُكَاظٍ تُصارع الصبيانَ، فلم تذهبِ الأيامُ والليالي حتىٰ سُميتَ عمرَ، ثم لم تذهب الأيام حتىٰ سميت أميرَ المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خافَ الوعيدَ قرُبَ منه البعيدُ، ومن خاف الموتَ خشي الفَوتَ، فبكىٰ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ».

فقال الجارود: « هِيهْ، فقد أكثرتِ وأبكيتِ أميرَ المؤمنين. فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنها: أَوَما تعرفُ هذه؟ هذه خولةُ بنتُ حكيم امرأةُ عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، التي سمع الله قولها من سمائه، فعُمرُ واللهِ أجدرُ أن يَسمعَ لها »[(١)].

٢- معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشأن الثلاثة الذين تُسعَّر بهم النار، وفيه: ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ رُكْبَتِي فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقال الوليد أبو عثمان: « فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفيًّا، هو الذي دخل علىٰ معاوية فأخبره بهذا. قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيّافًا لمعاوية فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاءً شديدًا حتىٰ ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦] »[(٢)].

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٣٩٤) ومختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٢) وصححه الألباني في صحيح الموارد (٢١١٩) وأصله في مسلم (١٩٠٥).

٣- عمر بن عبد العزيز:

عن رياح بن عبيدة الباهلي، قال: « كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز، فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين، جاءت بي الحاجة، وانتهيتُ الغايةَ، واللهُ سائلك عني يوم القيامة، قال: ويحك! أَعِدْ عليَّ، فأعاد عليه، فنكَّس عمر رأسه، وأرسل دموعه، حتىٰ ابتلَّت الأرض! ثم رفع رأسه فقال: ويحك! كم أنتم؟ قال: أنا وثلاث بنات لي، ففرض له علىٰ ثلاثمائة، وفرض لبناته علىٰ مائة، وأعطاه مائة درهم، وقال له: هذه المائة أعطيتك من مالي، ليس من أموال المسلمين، اذهب فاستنفقها حتىٰ تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم »(١).

وعن عبيدةَ بنِ حسان السِّنجاري، أن رجلًا من أهل أَذْرِبيجان أتىٰ عمرَ بن عبد العزيز، فقام بين يديه فقال: « يا أمير المؤمنين! اذكر بمقامي هذا مقامًا لا يَشْغَلُ اللهَ عنك فيه كثرةُ من يُخاصمُ من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقةٍ من العمل، ولا براءةٍ من الذنب.

فبكىٰ عمر بكاءً شديدًا، ثم قال: ويحك! اردُدْ عليَّ كلامك هذا، فجعل يردِّدُه، وعمر يبكي وينتحب، ثم قال: حاجتك؟ قال: إنَّ عامل أذربيجان عدا علي، فأخذ مني اثني عشر ألفَ درهمٍ، فجعلها في بيت مال المسلمين، فقال عمر: اكتبوا له الساعة إلىٰ عاملها حتىٰ يَرُدَّ عليه »(٢).

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ١١٢) رقم (١٢٤).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٢٥) والمجالسة وجواهر العلم (٨/ ٣١٤) باختصار.

٤- هارون الرشيد، يبكي من التخويف بيوم الوعيد:

عن زيد بن العباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « لما حَجَّ هارونُ الرشيدُ قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شَيْبَانُ العام، قال: اطلبوه لي، فطلبوه فأتوه به، فقال له: يا شيبانُ عِظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجلٌ أَلْكَنُ لا أُفصحُ بالعربيةِ، فجِئْني بمن يفهمُ كلامي حتىٰ أُكلِّمَهُ.

فأُتي برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية[1]: قل له: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي يُخوِّفُك قبل أن تبلغَ المأمن، أنصح لك من الذي يُؤَمِّنك قبل أن تبلغ الخوف.

فقال: قل له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: **يا هذا، اتقِّ الله عزوجل فإنك رجل من هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها وأنت مسئولٌ عنها، فاعدِلْ في الرعيَّةِ، واقسم بالسويّة، وانفر في السَّرِيَّةِ، واتقِّ الله في نفسك؛ هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمنَ أمنت، هو أنصح لك ممن يقول: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم، وأنتم قرابة نبيّكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمِّنك حتىٰ إذا بلغت الخوف عطبت**، قال: فبكىٰ هارون حتىٰ رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبُك! ثم خرج »[2].

---

(١) اللغة القديمة في العراق.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٩١) ومختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٧٩).

٥- أَبُو جَعْفَرٍ المنصور، يبكي من نصائح الأوزاعي الوقور:

عن الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « بعث إليَّ أبو جعفر أميرُ المؤمنين وأنا بالساحل، فأتيته فلما وصلتُ إليه، وسلمت عليه بالخلافة، رد عليَّ واستجلسني، ثم، قال: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم، والاقتباس منكم، قلت: **يا أمير المؤمنين!** انظر، ولا تجهل شيئًا مما أقول لك، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وقد وجهت فيه إليك وأقدمتك له؟

قلت: أن تسمعه ولا تعمل به، قال: فصاح بي الربيع، وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا عقوبة، فطابت نفسي، وانبسطتُ في الكلام. يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّمَا وَالٍ بَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»(١).

يا أمير المؤمنين، قد كنتَ في شغل شاغلٍ من خاصَّة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم، فكل له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا اتبعك منهم (٢) وراءهم فئام ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بليةً أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه؟

(١) أخرجه الطبراني، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٠٧).

(٢) فئام: هم الجماعة الكثيرة من الناس.

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد بن جارية، عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا إلىٰ القصاص من نفسه في خدشةٍ خدَش أعرابيًا لم يتعمَّدْها، فأتاه جبريل، قال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جبَّارًا ولا مستكبرًا، فدعا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأعرابيَّ فقال: اقتص مني فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي ما كنتُ لأفعل ذلك أبدًا ولو أتت علىٰ نفسي، فدعا له بخير.

يا أمير المؤمنين، رضِّ نفسك لنفسك، وخذْ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض، التي يقول فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١).

يا أمير المؤمنين، إن المُلك لو بقي لِمَن قبلك لم يصِلْ إليك، وكذلك لا يبقىٰ لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين، تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي وحدَّثته الألسُن.

يا أمير المؤمنين، بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال: لو ماتت سخلة علىٰ شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أُسألَ عنها، فكيف بمن حُرم عدلَك وهو علىٰ بساطك؟

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٦) ومسلم (١٨٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، قال: يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوىٰ فلا تُمَنِّيَنَّ في نفسك أن يكون له الحق فيَفلَجُ علىٰ صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، يا داود إنما جعلت رسلي إلىٰ عبادي رِعاءً كِرعاءِ الإبل؛ لِعلمِهم بالرِّعاية ورفقِهم بالسياسة؛ لِيجْبُرُوا الكسير ويَدُلُّوا الهزيلَ علىٰ الكلأِ والماءِ.

يا أميرَ المؤمنين، إنك قد بُليتَ بأمرٍ عظيمٍ لو عُرِض علىٰ السماوات والأرض والجبالِ لأبينَ أن يَحمِلْنَه وأشفقْنَ منه.

يا أمير المؤمنين، حدثني يزيد بن مزيد، عن جابر، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب استعمل من الأنصار رجلًا علىٰ الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلىٰ عملك؟ أما علمتَ أنَّ لك مثلَ أجرِ المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا، قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِنْ وَالٍ يَلِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنْ نَارٍ، فَيَنْتَفِضُ بِهِ الْجِسْرُ انْتِفَاضًا يُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يُعَادُ فَيحَاسَبُ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجا بِإِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ، فَهَوَىٰ بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»(١)، فقال له

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣٨٣) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٢٦٩).

عمر: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي ذر وسلمان، فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها، فقال أبو ذر: من سَلَتَ الله أنفه، وألصق خده بالأرض.

فأخذ أبو جعفر المنديل، فوضعه علىٰ وجهه، فبكىٰ، وانتحب حتىٰ أبكاني!

فقلت: **يا أمير المؤمنين**، قد سأل جدك العباس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمارة علىٰ مكة والطائف فقال له: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ النَّبِيِّ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا**»، هي نصيحةٌ منه لعمه، وشفقةٌ منه عليه؛ لأنه لا يغني عنه من الله شيئًا، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: «**يَا عَبَّاسُ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ النَّبِيِّ، إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، إِلَّا لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**».

وقد قال عمر رضي الله تعالىٰ عنه: لا يقيم أمر الناس إلا حصيفُ العقل أريبُ العُقدةِ، لا يُطَّلعُ منه علىٰ عَورةٍ، ولا يحنو علىٰ حَويَّةٍ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم.

يا أمير المؤمنين، إنَّ أشدَّ الشدةِ القيامُ لله بحقه، وإن أكرمَ الكرمِ عند الله التقوىٰ، إنه من طلب العزَّ بطاعة الله رفعه الله، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، هذه نصيحتي، والسلام عليك.

ثم نهضت، فقال لي: إلىٰ أين؟ فقلت: إلىٰ البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين - إن شاء الله -، فقال: قد أذنتُ، وشكرتُ لك نصيحتك، وقبلتها بقبولٍ، والله الموفِّقُ للخير والمُعينُ عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تُخَلِّني من مُطالعتِك إياي بمثلِها، فإنك المقبولُ غيرُ المُتَّهمِ في النصيحة.

قلت: أفعل - إن شاء الله -، قال محمد بن مصعب فأَمَرَ له بمال يستعينُ به علىٰ خروجه فلم يَقبلْه، وقال: أنا في غنىٰ عنه، وما كنت لأَبيعَ نصيحتي بِعَرّضٍ من الدنيا كلِّها، وعرف المنصورُ مذهبَه؛ فلم يجِدْ عليه في ردِّه »(١).

٦- هشام بن عبد الملك يغلبه البكاء؛ عند سماع موعظة عطاء:

دخل عطاءُ بنُ أبىٰ رباح علىٰ هشام، فرحَّب به وقال: « ما حاجتُك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشرافُ الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكَّره عطاءُ بأرزاق أهل الحرمين وعطيَّاتهم، فقال: نعم، يا غلام، اكتب لأهل المدينةِ وأهلِ مكةَ بعطاء أرزاقهم.

ثم قال: يا أبا محمد، هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم، فذكَّره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثّغور، ففعل مثل ذلك، حتىٰ ذكره بأهل الذمَّة أن لا يُكلَّفوا مالا يطيقون، فأجابه إلىٰ ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٣٦) ومختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٧٦) مع اختصار يسير لبعض الجُمل.

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، **اتّق الله في نفسك، فإنك خُلقتَ وحدك، وتموتُ وحدك، وتُحشرُ وحدك، وتحاسبُ وحدك، لا واللهِ، ما معك ممن ترىٰ أحدٌ.**

قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاءُ، فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندرىٰ ما فيه، أدراهمُ أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **[الشعراء: ١٠٩]**، ثم خرج، ولا والله، ما شرب عندهم حسوةَ ماءٍ فما فوقها »[(١)].

٧- سليمانُ بْنُ عبدِ المَلِكِ أميرُ المؤمنين، تُبكيه نصيحة أبي حازم بقية التابعين:

عن الضحاك بن موسىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « مرَّ سليمانُ بنُ عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أيامًا، فقال: هل بالمدينة أحدٌ أدرك أحدًا من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ فقالوا له: أبو حازم[(٢)]، فأرسَلَ إليه، فلمَّا دخل عليه، قال له: يا أبا حازمٍ ما هذا الجفاءُ؟ قال أبو حازمٍ: يا أمير المؤمنين، وأي جفاء رأيت مني؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني.

قال: يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن تقول ما لم يكُنْ، ما عرفتني قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك، قال: فالتفت سليمان إلىٰ محمد بن شهاب الزهري، فقال: أصاب الشيخ وأخطأتُ، قال سليمان: يا أبا حازم! ما لنا نكره الموت؟ قال:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٧٤) وأخرجه بنحوه الخطيب في المتفق والمفترق (٢/ ١٠٦٢) رقم (٦٥٤).

(٢) هو سلمة بن دينار، توفي سنة ١٤٠هـ ، وترجمته في التهذيب (٤/ ١٤٣).

لأنكم أخربتم الآخرة، وعمَّرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلىٰ الخراب. قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدومُ غدًا علىٰ الله؟ قال: أما المحسنُ، فكالغائب يَقْدَم علىٰ أهله، وأما المسيءُ، فكالآبق يَقْدَمُ علىٰ مولاه، فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: اعرِضْ عمَلَك علىٰ كتاب الله. قال: وأيُّ مكانٍ أَجِدُهُ؟ قال: في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، قال سليمان: فأين رحمةُ الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازمٍ: رحمةُ الله قريبٌ من المحسنين. قال له سليمان: يا أبا حازم، فأيُّ عباد الله أكرم؟ قال: أُولو المروءة والنُّهىٰ.

قال له سليمان: يا أبا حازم! فأيُّ الأعمال أفضل؟ قال أبو حازم: أداءُ الفرائض مع اجتناب المحارم، قال سليمان: فأيُّ الدعاءِ أسمعُ؟ قال أبو حازم: دعاءُ المُحسَنِ إليه للمُحسِن. قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: للسائل البائس، وجُهْدُ المُقِلِّ ليس فيها مَنٌّ ولا أذىً.

قال: فأي القول أعدل؟ قال: قولُ الحق عند من تخافُهُ أو ترجوه، قال: فأي المؤمنين أَكْيَسُ؟ قال: رجلٌ عمِلَ بطاعة الله ودلَّ الناس عليها، قال: فأيُّ المؤمنين أحمقُ؟ قال: رجلٌ انْحَطَّ في هوىٰ أخيه وهو ظالمٌ، فباعَ آخرتَه بدنيا غيره.

قال له سليمان: أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين، أو تعفيني؟ قال له سليمان: لا، ولكن نصيحة تلقيها إلي، قال: يا أمير المؤمنين، إن

آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا المُلك عُنوة علىٰ غير مشورةٍ من المسلمين، ولا رضًا لهم حتىٰ قتلوا منهم مَقتلةً عظيمة، فقد ارتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه، وما قيل لهم؟ فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، قال له سليمان: فكيف لنا أن نصلح؟ قال: تدعون الصَّلَف، وتَمَسَّكون بالمُروءة، وتَقسِمون بالسَّويَّة، قال له سليمان: كيف لنا بالمأخذ به؟ قال أبو حازم: تأخذه من حِلِّهِ، وتضعه في أهله، قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبَنا، فتُصيبَ منا ونُصيبَ منك؟ قال: أعوذ بالله، قال له سليمان: ولم ذاك؟ قال: أخشىٰ أن أركن إليكم شيئًا قليلًا، فيُذيقَني اللهُ ضِعفَ الحياة، وضِعفَ الممات.

قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك؟ قال: تُنْجِيني من النار، وتُدخِلَني الجنة، قال سليمان: ليس ذاك إليَّ. قال أبو حازم: فما لي إليك حاجةٌ غيرها، قال: فادعُ لي. قال أبو حازم: اللهم إن كان سليمانُ وليَّك، فيَسِّرْهُ لخيرِ الدنيا والآخرة، وإن كان عدُوَّك، فخُذْ بناصيته إلىٰ ما تحبُّ وترضىٰ. قال له سليمان: قطُّ. قال أبو حازم: قد أوجزتُ وأكثرتُ إن كنتَ من أهله، وإن لم تكنْ من أهله فما ينفعُني أن أرمي عن قوسٍ ليس لها وتَرٌ؟

قال له سليمان: أوصني، قال: **سأوصيك وأوجز: عَظِّمْ ربَّك ونَزِّهْهُ، أنْ يراك حيثُ نهاك، أو يَفقِدَك حيثُ أمرك.**

فلما خرج من عنده، بعث إليه بمائة دينار، وكتب إليه: أنْ أنفِقْها ولك عندي مثلُها كثيرٌ، قال: فردَّها عليه، وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، أُعيذك بالله أن يكون سؤالُك إيايَ هَزْلًا، أو ردي عليك بَذْلًا، وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟ »(١).

٨- عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ، يبكي من نصيحةِ الحسنِ الشهيرة:

عن علقمة بن مَرْثَد، قال: « لما وليَ عمرُ بنُ هُبيرةَ العراقَ أرسل إلىٰ الحسنِ وإلىٰ الشعبيِّ، فأمر لهما ببيت، وكانا فيه شهرًا أو نحوه، ثم إنَّ الخصيَّ غدا عليهما ذاتَ يومٍ فقال: إنَّ الأمير داخلٌ عليكما، فجاء عمرُ يتوكأُ علىٰ عصًا له، فسلَّم ثم جلس معظِّمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيدَ بنَ عبد الملك يَنْفُذُ كُتُبًا أعرفُ أنَّ في إنفاذِها الهَلَكةَ، فإن أطعتُه عصيتُ الله، وإن عصيتُه أطعتُ الله عَزَّوَجَلَّ، فهل تَرَيَا لي في متابعتي إياه فَرَجًا؟ فقال الحسنُ: يا أبا عمروٍ! أجِبِ الأميرَ، فتكلم الشعبيُّ فانحطَّ في حبلِ ابنِ هُبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيُّها الأمير، قد قال الشعبيُّ ما قد سمعت، قال: ما تقوله أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول: **يا عمر بن هبيرة! يُوشِكُ أن ينزِل بك ملَكٌ من ملائكةِ الله تعالىٰ فظٌّ غليظٌ لا يعصي اللهَ ما أمره، فيُخرِجُك من سَعَةِ قصرِك إلىٰ ضيق قبرِك، يا عمرُ بنَ هبيرةَ، إن تتَّقِ الله يَعصِمْك مِن يزيدَ بنِ عبد الملك، ولا يَعصِمُك يزيدُ بنُ عبد**

(١) سنن الدارمي (١/ ٤٩٩) رقم (٦٧٣) واللفظ له. والمجالسة للدينوري (٨/ ١٤٩) رقم (٣٤٥٦)، وحلية الأولياء (٣/ ٢٣٤).

الملك من الله عَزَّوَجَلَّ، يا عمرُ بنَ هبيرةَ، لا تأمَنْ أنْ ينظرَ اللهُ إليكَ علىٰ أقبحِ ما تعملُ في طاعة يزيدَ بنِ عبدِ الملك نظْرةَ مَقْتٍ فيغلقَ فيها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركتُ ناسًا من صدْرِ هذه الأمةِ كانوا والله علىٰ الدنيا وهي مُقبلةٌ أشدَّ إدبارًا من إقبالِكم عليها وهي مدبرةٌ، يا عمرُ بنَ هبيرةَ، إني أُخَوِّفُك مقامًا خوَّفكَهُ الله تعالىٰ فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم: ١٤]، يا عمرُ بنَ هبيرةَ، إنْ تكُ مع الله تعالىٰ في طاعته كفاك بائقةَ يزيدَ بنِ عبدِ الملك، وإنْ تكُ مع يزيدَ بنِ عبدِ الملك علىٰ معاصي اللهِ وكَلَكَ الله إليه.

قال: فبكىٰ عمرُ وقام بعَبْرتِه، فلما كان من الغدِ أرسلَ إليهما بإذنِهما وجوائِزهِما وكَثَّرَ منه ما لِلحسَنِ، وكان في جائزته للشعبيّ بعضُ الإقتار، فخرج الشعبيُّ إلىٰ المسجدِ، فقال: يا أيها الناسُ! من استطاع منكم أن يُؤثِرَ الله تعالىٰ علىٰ خلقِه فليفعلْ، فوالذي نفسي بيده ما علِم الحسنُ منه شيئًا فجهلتُه، ولكنْ أردتُ وجهَ ابنِ هُبيرةَ فأقصاني الله منه »(١).

٩- صاحب شرطة البصرة، يُذَكَّر فتأخذه العبرة:

عن عُقَيبة بنِ فضالة، قال: « دخلت علىٰ سعيد بن دَعْلَجٍ(٢)، وبين يديه رجل يُضربُ، فقلت: أصلح الله الأمير! أُكلِّمكَ بشيءٍ، ثم شأنُكَ وما تُريدُ.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٤٩)، والتذكرة الحمدونية (١/ ١٦٢)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٦/ ١١٣).

(٢) استعمله أبو جعفر المنصور علىٰ شُرط البصرة، وأحداثها سنة ١٥٦ هجرية.

قال: فأَمر به، فأَمْسَك عنه، فقال: هاتِ كلامك، قال: فهبتُه، والله، ورهبتُ منه رهبةً شديدة. ثم قلت: **إنه بلغني -أصلح الله الأمير- أنَّ العبادَ يومَ القيامة تُرْعَدُ فرائصهم في الموقف خوفًا من شرِّ ما يأتي به المنادي للحساب، وإن المتكبِّرين يومئذ لتحتَ أقدامِ الخلائق**، قال: فبكىٰ، فاشتدَّ بكاؤه، **فأمر بالرجل، فأُطلق**، قال: فكنتُ إذا دخلتُ عليه بعد ذلك قرَّبني، وأكرمني، قال: وقال لي يومًا وقد دخلتُ عليه: ويحك يا عُقيبة! ما ذكرتُ حديثك إلا أبكاني! قال: ثم بكىٰ »(١).

المطلب الثاني: بكاء بعض الأمراء أثناء إلقاء الموعظة:

١- عمر بن عبد العزيز:

عن شعيب بن صفوان، عن رجل مِن آل سعيد بن العاص قال: « كان آخِر خطبة خطَب بها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ حمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: **أما بعد، فإنكم لم تُخلَقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدًىٰ، وإن لكم معادًا ينزِلُ الله للحكم فيكم والفصلِ بينكم، فخابَ وخسِرَ مَن خرَج مِن رحمة الله وحُرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمنُ غدًا إلا مَن حَذِرَ اليوم وخاف، وباع نافدًا بباقٍ، وقليلاً بكثيرٍ، وخوفًا بأمان، ألا ترون أنكم في أَسْلابِ الهالكين، وسنكونُ مِن بعدكم للباقين كذلك، حتىٰ نُردَّ إلىٰ خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تُشيِّعون غاديًا ورائحًا إلىٰ الله قد قضىٰ نحبه حتىٰ تُغيِّبوه في صدع**

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ١١٠) رقم (١٢٠)، والأهوال لابن أبي الدنيا (ص٩٨) رقم (١٣٢).

مِن الأرض في بطن صدع غير موسَّد ولا ممهَّد، قد فارق الأحباب، وباشرَ التراب، وواجه الحساب؛ فهو مُرتَهَنٌ بعمَلِه، غنيٌّ عما ترك، فقيرٌ إلىٰ ما قدَّم، فاتقوا الله قبلَ انقضاءِ مواقيتِه، ونزولِ الموتِ بكم، أما إني أقولُ هذا وما أعلمُ أنَّ عند أحدٍ من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه. ثم رَفَع طرف ردائه علىٰ وجهِه فبكىٰ، وأبكىٰ مَن حوله »[1].

٢- عدي بن أرطاة الفزاري:

عن عباد بن منصور، قال: سمعت عدي بن أرطاة[2] يخطبنا علىٰ منبر المدائن، فجعل يعظنا حتىٰ بكىٰ وأبكىٰ، فقال: « كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه: يا بني! أوصيك أنْ لا تصليَ صلاةً إلا ظننتَ أنك لا تصلي بعدها غيرها حتىٰ تموت، وتعالَ بُنيَّ حتىٰ نعملَ عملَ رجلين كأنهما قد أُوقِفا علىٰ النار ثم سألا الكَرَّة »[3].

٣- الحجاج بن يوسف الثقفي:

عن أبي بكر الهذلي، قال: « رأيت الحجَّاجَ يخطب علىٰ المنبر، فسمعته يقول: يا أيها الناس! إنكم غداً موقوفون بين يدي الله، ومسئولون، فليتَّقِ الله

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٢٦٨)، والمجالسة وجواهر العلم (٣/ ٣٤٣).

(٢) عدي بن أرطاة الفزاري، من أهل دمشق، استعمله عمر بن عبد العزيز علىٰ البصرة، ذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وروىٰ له البخاري في (الأدب). ت ١٠٢هـ. تهذيب الكمال (١٩/ ٥٢٠- ٥٢٢).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ٩٨) رقم (١٠٥).

امرؤٌ، ولينظر ما يَعُدُّ لذلك الموقف؛ فإنه موقف يخسر فيه المبطلون، وتَذْهَلُ فيه العقول، ويرجعُ الأمرُ فيه إلىٰ الله؛ لتُجْزىٰ كلُّ نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب، بادروا آجالكم بأعمالكم، قبل أن تُخترموا دون آمالكم، ثم نَحَبَ وهو علىٰ المنبر، فرأيت دموعه تنحدر علىٰ لحيته »[1].

وعن أبي سعد البقال العبسي الكوفي، قال: « سمعتُ الحجاج يخطبُ يومًا وهو علىٰ المنبر، يقول: يا ابن آدم، بينما أنت في دارك وقرارك، إذ تَسَوَّرَ عليك عبدٌ يُدعىٰ ملَكَ الموت، فوضع يده من جسدك موضعًا، فذَلَّ له، فاختلس روحك، فأخذه، فذهب به، ثم قام إليك أهلُكَ، فغسلوك وكفنوك، ثم حملوك إلىٰ قبرك فدفنوك، ثم رجعوا، فاختصم فيك حبيباكَ: حبيبك من أهلك، وحبيبك من مالك! فاتق الله؛ فإنك اليوم تأكُلُ، وغداً تُؤْكَلُ.

قال أبو سعد: ثم نعر نعرةً - أي: صاح وصوَّتَ بخيشومه -، فظننتُ أنه الموتُ به، ثم نظرتُ إلىٰ عينيه تسكبان، حتىٰ نظرتُ إليه يتلقىٰ دموعه بعمامته، ثم ينزل، فيَفتُل، قال: وصعد المنبر، فاستسقىٰ، وقد استسقىٰ قبلُ، قال: فلما كان في ذلك اليوم استسقىٰ، فلا والله، ما نزل عن المنبر حتىٰ مُطر، فاستقبل القِبلة وصلىٰ، وسقط رداؤه، قال: وبكىٰ لمَّا أُجيب، ثم أقبل بوجهه فقال: أيها الناس، إن العبد يسأل ربَّه الحاجة، وطلبُها إليه، ومِنْ أَمْرِ ربِّه أن يُجيبَه فيها، فيُطَوِّلُ الله

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٠٩).

عليه؛ ليكون إذا أعطاها إيَّاهُ أشدَّ لِشُكْرِه، وإني أقسمتُ عليكم بالله لَمَا صُمتم شكراً ثلاثـاً، ثم خَرَج»[(١)][(٢)].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص/ ١٠٣) رقم (١١١).

(٢) أوردت هذه الآثار لجودة الكلمات، وتأثيرها في النفوس، وليس محبة لقائلها، ولا اغتراراً بما كان عليه من الظلم، ولا إقرارًا له عليه.

المبحث العاشر: إباحة البكاء على فراق الأحبة، من غير نياحة ولا نُدبة

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخلنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي سيفٍ القَين[١] وكان ظِئرًا لإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأخذ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبراهيم فقبَّلَه وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجودُ بنفسه، **فجعلت عينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذرفان**، فقال له عبدُ الرحمن بنُ عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابنَ عوفٍ، إنها رحمةٌ، ثم أتبعها بأخرىٰ، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ العينَ تدمعُ، والقلبَ يحزنُ، ولا نقولُ إلا ما يَرضَىٰ ربُّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون**»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: « فدمعت عينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ آخره، فيه جواز البكاء علىٰ المريض والحزن، وأن ذلك لا يخالف الرضا بالقدر، بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما المذموم الندب والنياحة، والويل والثبور، ونحو ذلك من القول الباطل، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**» »[٣].

---

(١) القين: بفتح القاف، هو الحدَّاد. والظِّئر: هو زوج المرضعة.

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٧٥) حديث رقم (٢٣١٥).

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أرسلت ابنةُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ فَأْتِنَا، فأرسل يُقرئُ السلامَ، ويقولُ: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكلٌّ عنده بأجل مُسمًّىٰ، فلتصبر ولتحتسب**»، فأرسلتْ إليه تُقسِمُ عليه ليأتينَّها، فقام ومعه سعدُ بنُ عبادة، ومعاذُ بنُ جبل، وأُبيُّ بنُ كعب، وزيدُ بنُ ثابت، ورجالٌ، **فرُفعَ إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبيُّ ونفْسُه تَتَقعقَعُ**، قال: حسبته أنه قال: **كأنها شَنٌّ**، **ففاضت عيناه**، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمةٌ جعلَها الله في قلوب عباده، وإنما يرحمُ اللهُ من عباده الرحماءَ**»[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله : ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، معناه: أن سعدًا ظنَّ أن جميع أنواع البكاء حرام، وأن دمع العين حرام، وظن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسي، فذكَّره، **فأعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مجرد البكاء ودمع بعين ليس بحرام ولا مكروه، بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما**، كما سيأتي في الأحاديث: «**إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا أو يرحم**»، وأشار إلىٰ لسانه، وفي الحديث الآخر: «**العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول ما يسخط الله**»، وفي الحديث الآخر: «**ما لم يكن لقع أو لقلقة**» »[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٢٢٥) حديث رقم (٩٢٣).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: « حضَرَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأبو بَكرٍ وعُمَرُ سَعدَ بنَ مُعاذٍ، وهو في القُبَّةِ التي ضرَبَها عليه رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المسجِدِ، قالتْ: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرفُ بكاءَ عمرَ من بكاءِ أبي بكر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩] »(١).

وعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قالَ: « لمَّا قُتِلَ زيدُ بنُ حارثةَ أبطأَ أسامةُ عنِ النَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ، فلم يأتِهِ، ثمَّ جاءهُ بعدَ ذلكَ، فقامَ بينَ يديِ النَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِه وسلَّمَ، فدمَعتْ عيناهُ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِه وسلَّمَ، فلمَّا نُزِفت عبرتُهُ، قالَ النَّبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ: «لِمَ أبطأْتَ عنَّا ثمَّ جئتَ تُحزِنُنا؟».

قالَ: فلمَّا كانَ الغدُ جاءهُ فلمَّا رآهُ النَّبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِه وسلَّمَ مقبِلًا قالَ: «إنِّي للاقٍ منكَ اليومَ ما لقيتُ منكَ أمسِ» فلمَّا دنا دمعت عينُهُ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِه وسلَّمَ »(٢).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: « رأيتُ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُقَبِّلُ عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ وهو مَيِّتٌ، حتىٰ رأيتُ الدُّموعَ تَسيلُ »(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢٥٠٩٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٢١٢٩) وحسنه الألباني في الصحيحة (١/ ١٤٥).

(٢) رواه عبد الرزق في المصنف (٣/ ٥٦٣) رقم (٦٩٠٤) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٣٢).

(٣) رواه أبو داود (٣١٦٣) والترمذي (٩٨٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٦٣).

قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « عثمانُ بنُ مظعون؛ هو أخ رضاعي لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال صاحب المشكاة: هاجر الهجرتين وشهد بدرًا وكان حرَّم الخمر في الجاهلية، وهو أوَّل من مات من المهاجرين بالمدينة في شعبان علىٰ رأس ثلاثين شهرًا من الهجرة، ولما دفن قال: نعم السلف هو لنا. ودُفن بالبقيع، وكان عابدًا مجتهدًا من فضلاء الصحابة. والحديث يدُلُّ علىٰ أن تقبيل المسلم بعد الموت والبكاء عليه جائز »(١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: « اشتكىٰ سعدُ بن عُبادةَ شكوَىٰ له، فأتاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعودُهُ مع عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، وسعدِ بنِ أبي وقاصٍ، وعبدِ الله بنِ مسعودٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلما دخل عليه، فوجده في غاشيةِ أهله، فقال: **«قد قضىٰ؟»** قالوا: لا يا رسول الله، **فبكىٰ النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فلما رأىٰ القومُ بُكاءَ النبيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بَكَوا**، فقال: **«ألا تسمعون، إن الله لا يُعذِّبُ بدمع العين، ولا بِحُزْنِ القلب، ولكن يُعذِّبُ بهذا وأشار إلىٰ لسانه أو يَرحمُ، وإنَّ الميت يُعذَّبُ ببكاء أهلِه عليه»**، وكان عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَضرِبُ فيه بالعصا، ويرمي بالحجارةِ، ويحثي بالتراب »(٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: **«وجده في غشية»**، فيه قولان: **أحدهما**: مَنْ يَغْشَاهُ مِنْ أهلهِ. **والثاني**: ما يَغشاهُ من كَرْبِ الموت »(٣).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٤/ ٥٥) حديث رقم (٩٨٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٢٢٦) حديث رقم (٩٢٤).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « أُصيبَ أَبي يومَ أُحُدٍ، فجعلتُ أكشفُ الثوبَ عن وجهه وأَبكي، وجعلوا ينهونني، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينهاني، قال: وجعلت فاطمةُ بنتُ عمرٍو تَبْكِيهِ، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَبْكِيهِ، أَوْ لا تَبْكِيهِ، ما زالت الملائكةُ تُظِلُّه بأجنحتِها، حتىٰ رفعتموه»[(١)].

❖❖❖❖❖

(١) رواه البخاري (١٢٤٤) ومسلم (٢٤٧١) واللفظ له.

الفصل الخامس: العناية بمحل الخشوع -القلوب-

هذا فصل مهم جدًّا، إذ أنَّ القلوب هي محل الخشوع، وقد تم ترتيب ما يُحتاج إليه حول صلاحية القلوب لتحقيق الخشوع في تمهيد وسبعة مباحث:

المبحث الأول: الترغيب في العناية بالقلوب.

المبحث الثاني: أسباب صلاح القلوب.

المبحث الثالث: أسباب قسوة القلوب ومظاهرها.

المبحث الرابع: مظاهر قسوة القلوب.

المبحث الخامس: أنواع القلوب وكيفية تحصينها.

المبحث السادس: مرض القلوب وموتها وأنواع علاجها.

المبحث السابع: حياة القلب وسلامته.

تمهيد

إن القلوب هي المحل الأصلي للخشوع، وإذا كان المحل صالحًا رُجيَ صلاح النبات والزرع، وإذا فسد المحل فأنىٰ يأتي منه المُراد، أو يتحقق فيه الشيء المُستفاد!

عن أبي عنبة الخولاني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنّ لله تَعَالَىٰ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وأَحَبُّها إِلَيْهِ ألينها وأرقها»(١).

وفي مختصر منهاج القاصدين: « اعلم أنَّ أشرفَ ما في الإنسان قلبُه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباع وخدّام له يستخدمها القلب استخدامَ الملوك للعبيد، ومَنْ عرف قلبه عرف ربَّه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصلُ الدين، وأساسُ طريق السالكين »(٢).

وقال ابن القيم: « وسببُ الخِذلان عدمُ صلاحيةِ المحلّ وأهليته وقبوله للنعمة »(٣).

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٩) رقم (٨٤٠) وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/ ١٦٩١): وإسناده جيد. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٣).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٩٣).

(٣) الفوائد (ص/ ٢٩٨).

المبحث الأول: الترغيب في العناية بالقلوب

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: بيان أنَّ العبرة بصلاح القلوب:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يَبِعْ بعضُكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يَظلِمُه، ولا يخذُلُه، ولا يحقِرُه، التقوىٰ هاهنا،** - ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات -، **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علىٰ المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « معناه: أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوىٰ، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالىٰ وخشيته ومراقبته »(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم، وأعمالكم**»(٣).

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قوله: «**ولكن إنما ينظر**» أي: فأصلحوا أعمالكم وقلوبكم، ولا تجعلوا همتكم متعلقة بالبدن والمال، ولعل المراد بالنظر وعدمه: أنه لا يَقْبَلُ المرء ولا يُقَرِّبُه بِحُسْنِ الصورة وكثرةِ المال، ولا يَرُدُّه بضدِّ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٦/ ١٢١) حديث رقم (٢٥٦٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

ذلك، وإنما يُقبله بِحسنِ العمل وخلوصِ القلب، ويرده بضد ذلك، وإلا فما شيءٌ لا يغيب من نظره تعالىٰ، والله أعلم »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والأعضاء تابعة للقلب؛ تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائمًا بعبوديته، فالأعضاء أولىٰ أنْ لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنىٰ تصح عبودية رعيته وجنده؟ ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟ »(٢).

المطلب الثاني: الزجر عن إهمال تفقد القلوب:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد: ١٦].

عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه قال: « بعث أبو موسىٰ الأشعري إلىٰ قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن فقال: أنتم خيارُ أهلِ البصرة، وقُراؤُهم فاتلوه، ولا يطولنَّ عليكم الأمدُ، فتقسُوَ قلوبُكم كما قست قلوبُ من كان قبلكم »(٣).

---

(١) حاشية السندي علىٰ ابن ماجه (٢/ ٥٣٦) حديث رقم (٤١٤٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٢).

(٣) رواه مسلم (١٠٥٠).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقوله: **ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم**؛ يعني به: لا تستطيبوا مدة البقاء في الدنيا، فإن ذلك مفسد للقلوب بما يجرُّه إليها من الحرص والقسوة، حتىٰ لا تلين لذكر الله، ولا تنتفع بموعظة ولا زجر [(١)].

وتفقد القلوب يكون بأمور كثيرة، منها: قراءة القرآن الكريم، وتدبره، وسماع تلاوته، فآية واحدة قد يجعل الله بسببها صلاحَ القلب وهدايةَ صاحبه، كما روي في سبب توبة الفضيل بن عياض.

وكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلًا، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] الآية، فرجع القَهْقرىٰ وهو يقول: بلىٰ والله، قد آنَ، فآواهُ الليلُ إلىٰ خَرِبةٍ وفيها جماعةٌ من السَّابِلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فُضيلًا يقطعُ الطريق، فقال الفضيل: أوَّاهُ! أراني بالليل أسعىٰ في معاصي الله، قومٌ من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبتُ إليك، وجعلت توبتي إليك جِوارَ بيتِك الحرامِ »[(٢)].

المطلب الثالث: مواطنُ تَجَوُّلِ القلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « للقلب ستة مواطنَ يجولُ فيها لا سابعَ لها؛ ثلاثةٌ سافلة، وثلاثةٌ عاليةٌ: فالسافلةُ: دنيا تتزيَّنُ له، ونفسٌ تحدِّثُه، وعدوٌّ يوسوسُ له، فهذه مواطنُ الأرواح السافلة التي لا تزالُ تجولُ فيها.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٩٣).

(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٥١) [الحديد: ١٦].

والثلاثة العاليةُ: علمٌ يتبيَّنُ له، وعقلٌ يرشدُه، وإلهٌ يعبدُه، والقلوب جوَّالةٌ في هذه المواطن »(١).

فالعاقل اللبيب يحرص علىٰ أن يجول بقلبه في المواطن العالية، ولا يرضىٰ بأن يُسلم قلبه للمواطن السافلة، حتىٰ وإن مال إليها أحيانًا فإنه ينتبه ويعود.

المطلب الرابع: الترهيب من قساوة القلوب:

ورد في القرآن الكريم آياتٌ كثيرة فيها الترهيب والتحذير من قساوة القلوب، فمن ذلك:

- **الوعيد بالويل لأصحاب القلوب القاسية**؛ في قول الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ **[الزمر: ٢٢]**.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ما ضُربَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قَسوةِ قلبٍ، وما غَضبَ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ قومٍ إلا نزع منهم الرحمةَ »(٢).

- **التنفير من القلوب القاسية**، وتشبيهها بالحجارة؛ في قول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ **[البقرة: ٧٤]**.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص/ ١٤٤).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٨٥) [الزمر: ٢٢].

قال المفسر البيضاوي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **القساوة**: عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر، وقساوة القلب مثل في نبوِّه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة مِنْ بَعْدِ ذلِكَ يعني إحياء القتيل، أو جميع ما عدد من الآيات فإنها مما توجب لين القلب، فَهِيَ كَالْحِجارَةِ في قسوتها أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً منها، والمعنىٰ: أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفًا علىٰ الحجارة، وإنما لم يقل أقسىٰ لما في أشد من المبالغة، والدلالة علىٰ اشتداد القسوتين واشتمال المفضل علىٰ زيادة و﴿أَوْ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنىٰ: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسىٰ منها.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ تعليل للتفضيل، والمعنىٰ: أن الحجارة تتأثر وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردىٰ من أعلىٰ الجبل انقياداً لما أراد الله تعالىٰ به، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالىٰ، والتفجّر: التفتّح بسعة وكثرة، والخشية: مجاز عن الانقياد »[1].

---

(١) تفسير البيضاوي - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٨٨) [سورة البقرة: ٧٤].

وكذلك ورد الترهيب والوعيد في حق الذين يتعاملون مع الخلق بغلظة وقساوة؛ فعن حارثة بن وهب الخزاعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف مُتَضعِّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، ألا أخبركم بأهل النار: كلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ، مُسْتكبِرٍ**»[1].

قال ابن الملقِّن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « "العتل": الغليظ والعنيف، وقال الفرَّاء: الجافي عن الوعظ، **وقيل**: الشديد من كل شيء، **وقيل**: الكافر، وقال الداودي: هو السمين العظيم العنق والبطن، وقال الهروي: هو الجموع المنوع، قال: ويقال: القصير البطين. وقيل: الأكول الشروب الظلوم »[2].

وأورد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ آثارًا، بعضها مأخوذ من أحاديث، وبعضها من كلام السلف، وهي:

- مَا ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوة الْقلب والبعدِ عَن الله.
- خُلِقت النَّارُ لإذابة الْقُلُوب القاسية.
- أبعدُ الْقُلُوب من الله الْقلبُ القاسي.
- إِذا قسا الْقلبُ قَحَطَتِ الْعينُ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٣/ ٤٤٣).

(٣) كتاب الفوائد لابن القيم (ص/ ١٤٢).

المبحث الثاني: أسباب صلاح القلوب

١- الدعـــاء:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدِكُمْ كَما يَخلَقُ الثّوبُ الخَلِقُ، فاسْألُوا اللهَ تعالَىٰ أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكمْ»[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «اللهم ثبت قلبي علىٰ دينك»، فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا وقد آمنا بك، وصدقناك بما جئت به؟ فقال: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عَزَّوَجَلَّ يقلبها»[٢].

قال المباركفوري رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله «ثبت قلبي علىٰ دينك» أي: اجعله ثابتًا علىٰ دينك، غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم، «فقلت: يا نبي الله آمنا بك»، أي: بنبوتك ورسالتك «وبما جئت به» من الكتاب والسنة «فهل تخاف علينا»؛ يعني: أن قولك هذا ليس لنفسك؛ لأنك في عصمة من الخطأ والزلة، خصوصًا من تقلب القلب عن الدين والملة، وإنما المراد تعليم الأمة،

---

(١) أخرجه الحاكم (٥)، والطبراني في الكبير (١٤٦٦٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٣٤) والترمذي (٢١٤٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٠٧).

فهل تخاف علينا من زوال نعمة الإيمان أو الانتقال من الكمال إلىٰ النقصان؟

قال: «**نعم**»؛ يعني أخاف عليكم »(١).

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم! إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم! إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « اعلم أنَّ في كلٍّ من القرائن ما يشعر بأن وجوده مبني علىٰ غايته، وأن الغرض منه تلك الغاية، وذلك أن تحصيل العلم إنما هو للانتفاع بها، فإذا لم ينتفع لا يخلص منه كفافًا، بل يكون وبالاً، ولذلك استعاذ منه، وأنَّ القلب إنما خُلق لأن يتخشَّع لبارئه وينشرح لذلك الصدر، ويقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قاسيًا فيجب أن يُستعاذ منه، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وأنَّ النَّفْسَ إنما يُعتَدُّ بها إذا تجافت عن دار الغرور وأنابت إلىٰ دار الخلود، والنفس إذا كانت منهومة لا تشبع حريصة علىٰ الدنيا كانت أعدىٰ عدو المرء، فأولىٰ

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٦/ ٢٩١) حديث رقم (٢١٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) وأحمد (١٩٣٠٨).

الشيء الذي يستعاذ منه هي، وعدم استجابة الدعاء دليل على أن الداعي لم ينتفع بعلمه، ولم يخشع قلبه ولم تشبع نفسه »[1].

٢- كثرة ذكر الله:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة؟ قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب تَوجَلُ إذا ذكرت عدلَ الله وشِدَّةَ حسابه، وتطمئنُّ إذا ذكرتْ فضلَ الله وكرمَه »[2].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: تسكن قلوبهم بذكر الله، وقيل: تستأنس قلوبهم بذكر الله، والسكون باليقين، والاضطراب بالشك، وقوله:

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٩١٥).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٢٠) [الرعد: ٢٨].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ معناه: ألا بذكر الله تسكن القلوب، وطمأنينة القلب: بزوال الشك منه، واستقرار اليقين فيه »[١].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: « أي: تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم، كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمىٰ سبحانه القرآن ذكرًا فقالَ سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩] »[٢].

وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»: - ومنهم: - «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[٣]، أفاد الحديث أنَّ ذِكرَ الله سبَّبَ للذاكر رِقَّةً وخشوعًا فبكىٰ.

وعن المُعَلَّىٰ بن زياد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، « أن رجلًا قال للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْهُ بالذِّكر »[٤].

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٩٢) [الرعد: ٢٨].

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٩٧) [الرعد: ٢٨].

(٣) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء [٤٨].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إن في القلب قسوةً لا يُذِيبها إلا ذكر الله تعالىٰ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالىٰ، وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر اللهَ تعالىٰ ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أُذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ »[١].

فائدة: أنفع أنواع الذكر (وكله نافع):

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من الذاكرين من يبتدئُ بذكر اللسان، وإن كان علىٰ غفلة، ثم لا يزَال فِيهِ حَتَّىٰ يحضر قلبه، فيتواطئا علىٰ الذّكر. وَمِنْهُم من لَا يرىٰ ذَلِك، وَلَا يبتدئُ علىٰ غَفلَة، بل يسكن حَتَّىٰ يحضر قلبه، فيشرع فِي الذّكر بِقَلْبِه؛ فَإِذا قوي استتبع لِسَانه، فتواطئا جَمِيعًا.

فالأول: ينْتَقل الذّكر من لِسَانه إِلَىٰ قلبه. والثاني: ينْتَقل من قلبه إِلَىٰ لِسَانه، من غير أَن يَخْلُو قلبه مِنْهُ، بل يسكن أَولًا حَتَّىٰ يحس بِظُهُور النَّاطِق فِيهِ، فَإِذا أحس بذلك نطق قلبه، ثمَّ انْتقل النُّطْق القلبي إِلَىٰ الذّكر اللساني، ثمَّ يسْتَغْرق فِي ذَلِك حَتَّىٰ يجد كل شَيْء مِنْهُ ذَاكِرًا. وَأفضل الذّكر وأنفعه مَا واطأ فِيهِ الْقلب اللِّسَان، وَكَانَ من الْأَذْكَار النَّبَوِيَّة، وَشهد الذاكر مَعَانِيه ومقاصده »[٢].

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ١٧١). السادسة والأربعون من فوائد الذكر.

(٢) الفوائد (ص/ ٢٧٨).

٣- كثرة ذكر الموت:

عن صفية: أنَّ امرأة أتت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تشكو إليها القسوة؟ فقالت: « أكثري ذكر الموت؛ يرقّ قلبك، وتقدرين علىٰ حاجتكِ، قالت: ففَعَلَتْ، فآنستْ من قلبها رشداً، فجاءت تشكر لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا »(١).

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: « شيئان قطعا عني لذَّةَ الدنيا: ذكرُ الموت، وذكرُ الموقف بين يدي الله تعالىٰ »(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: « لَو فَارق ذكر الْمَوْت قلبِي ساعة لفسد »(٣).

وقد ورد هذا الأثر عن غير واحد من السلف، فقد أخرجه ابن المبارك عن مالك بن مغول قال: « قيل للربيع بن أبي راشد: ألا تجلس فتحدث، قال: إنَّ ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة فسد عليَّ قلبي. قال مالك: ولم أر رجلًا أظهر حزنًا منه »(٤).

وعن سعيد بن جبير قال: « لو فارق ذكرُ الموت قلبي خشيتُ أن يفسُدَ عليَّ قلبي »(٥).

---

(١) كتاب ذم القسوة للحافظ ابن رجب (ص/ ٢٦٥).

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة للقرطبي (ص/ ١٢٥).

(٣) العاقبة في ذكر الموت (ص/ ٣٩).

(٤) الزهد والرقائق - ابن المبارك (ص/ ٩٠) رقم (٢٦٦).

(٥) الزهد لأحمد بن حنبل (ص/ ٣٠٠) رقم (٢١٦٨).

٤- التعلُّق الصادق بالله والاستعانة به في تحقيق كل خير:

إنَّ صلاح القلوب أمرٌ في غاية الأهمية، ولذلك يحتاج المسلم إلىٰ الاستعانة الصادقةِ الدائمةِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أنْ يُصلِحَ له قلبَه، وأن يرزُقَه الخشوعَ والإخباتَ والثباتَ، وقد كان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يدعو الله أن يصلح قلبه ويثبته ويهديه؛ كما في الأحاديث الصحيحة.

والعاقل اللبيب لا يُهملُ الاستعانة بالله في كل أموره؛ ففي حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١).

قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « «**إذا سألت**»؛ أي: أردت السؤال «**فاسأل الله**»؛ أي: وحدَهُ؛ لأنَّ غيرَه غيرُ قادرٍ علىٰ الإعطاء، والمنع، ودفع الضرر، وجلب النفع، «**وإذا استعنت**»؛ أي: أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة؛ «**فاستعن بالله**» فإنه المستعان وعليه التكلان »(٢).

وقد بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنىٰ بيانًا شافيًا كافيًا، وسأورده بتمامه لأهميته وفائدته وترابط معانيه؛ فقال:

« أساسُ كل خيرٍ أنْ تعلم أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يَشَأْ لم يكن؛ فتتيقَّن حِينَئِذٍ أَن الْحَسَنَاتِ من نِعَمِهِ، فتشكره عَلَيْهَا، وتتضرّع إِلَيْهِ أَن لَا يقطعهَا عَنْك،

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٧٦٣) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٨٥).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٨٥) حديث رقم (٢٥١٦).

وَأَنَّ السَّيِّئَات من خِذلانه وعقوبته، فتبتهل إِلَيْهِ أَن يحولَ بَيْنك وَبَينهَا، وَلَا يَكِلَكَ فِي فعل الْحَسَنَاتِ وَترك السَّيِّئَاتِ إِلَىٰ نَفسك.

وَقد أجمع العارفون علىٰ أَنَّ كلَّ خيرٍ فأصله بِتَوْفِيق الله للْعَبد، وكل شَرٍّ فأصله خِذلانه لعَبْدِهِ، وَأَجْمعُوا أَن التَّوْفِيق أَن لَا يَكِلَكَ الله إِلَىٰ نَفسك، وأنَّ الخِذلان هو أَنْ يُخليَ بَيْنك وَبَين نَفسك.

فَإِذا كَانَ كل خيرٍ فأصله التَّوْفِيق، وَهُوَ بيد الله لَا بيد العَبْد، فمفتاحه: الدُّعَاء والافتقارُ وَصدقُ اللَّجأ وَالرَّغْبَة والرهبة إِلَيْهِ، فَمَتَىٰ أعْطىٰ العَبْدَ هَذَا الْمِفْتَاحَ فقد أَرَادَ أَن يفتح لَهُ، وَمَتىٰ أضلّه عَن الْمِفْتَاح بَقِي بَاب الْخَيْر مُرْتَجًا دونه. قال أمير المؤمنين عمر بن الْخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه**(١).

وعَلىٰ قدر نيَّة العَبْد وهمَّتِهِ وَمرَاده ورغبته فِي ذَلِك يكون توفيقه سُبْحَانَهُ وإعانته؛ فالمعونة من الله تَنْزِلُ علىٰ الْعباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخِذلان يَنزِل عَلَيْهِم علىٰ حسب ذَلِك.

فَالله سُبْحَانَهُ أحكم الْحَاكِمين وَأعلم الْعَالمين، يضع التَّوْفِيقَ فِي موَاضعه اللائقة بِهِ، والخِذلانَ فِي موَاضعه اللائقة بِهِ، وهُوَ الْعَلِيم الْحَكِيم، وَمَا أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إِلَّا من قِبَل إِضَاعَة الشُّكْر وإهمال الافتقار وَالدُّعَاء، وَلَا ظَفِرَ من ظَفِرَ بِمَشِيئَة الله وعونه إِلَّا بقيامه بالشُّكر وَصدق الافتقار وَالدُّعَاء.

---

(١) ذكره ابن تيمية في الاقتضاء (٢/ ٢٢٩)، والفتاوىٰ (٨/ ١٩٣).

ومِلاكُ ذَلِك الصَّبْرُ؛ فَإِنَّهُ من الْإِيمَان بِمَنْزِلَة الرَّأْس من الْجَسَد؛ فَإِذا قُطِعَ الرَّأْس فَلَا بَقَاءَ للجسد »[1].

٥- تدبر آيات القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ قال: « كان المنافقون يجلسون عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال آنفا، ليس معهم قلوب »[2].

يشير إلىٰ قوله تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾ [محمد: ١٦].

وقال وهب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « نظرنا في هذا الحديث؛ فلم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب، ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبره »[3].

---

(١) الفوائد (ص/ ١٤١- ١٤٢).

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (١٢/ ١١١) رقم (١٣٥).

(٣) حلية الأولياء، (٨/ ١٤٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إِذا غُذِيَ الْقلبُ بالتذكُّر، وَسُقِي بالتفكُّر، ونُقِّيَ من الدَّغل؛ رأىٰ الْعَجَائِبَ وأُلهِمَ الْحِكْمَةَ »(١).

وقال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فوالله الذي لا إله إلّا هو، ما رأيت - وأنا ذو النفس الملأىٰ بالذنوب والعيوب - أعظم إِلَانةً للقلب واستدرارًا للدمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث علىٰ التوبة؛ من تلاوة القرآن وسماع القرآن »(٢).

٦- زيارة القبور والتفكر في حال أهلها ومصيرهم:

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: نهىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن زيارةِ القُبور، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك: «ألا إني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنها تُرِقُّ القلوب، وتُدمعُ العين، فزوروها، ولا تقولوا هُجْرًا»(٣).

قال المُناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من أعظم أدوية قسوة القلوب؛ زيارة القبور، وتأمل حال المقبور، وما بعده من البعث والنشور؛ الباعث علىٰ ذكر هاذم اللذات، ومُفرِّق الجماعات، وكذا مشاهدة المحتضرين، وتغسيل الموتىٰ والصلاة علىٰ الجنائز، فإن في ذلك موعظة بليغة »(٤).

---

(١) كتاب الفوائـــــد لابن القيم (ص/ ١٤٣).

(٢) تفسير ابن باديس (ص/ ٣٩).

(٣) رواه أحمد (١٣٦١٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٤).

(٤) فيض القدير (١/ ٦٩٦).

ونقل أبو طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ رجلاً سأل أبا عبد الله؛ يعني أحمد بن حنبل؛ فقال له: كيف يرقُّ قلبي؟ قال: أدخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم»(١).

٧- صنائع المعروف:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا، شكا إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسوة قلبه، فقال له: «**إن أردت أن يلينَ قلبُك، فأطعِمِ المسكينَ، وامسَحْ رأسَ اليتيمِ**»(٢).

٨- عيادة المريض:

عيادة المريض مأمورٌ بها شرعًا، وفيها ثواب عظيم، ومنفعة للقلوب؛ فأما الأمر بها والثواب عليها فقد جاء في أدلة كثيرة، ومنها:

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أطعِمُوا الجائعَ، وعودوا المريضَ، وفكُّوا العانيَ**»، قال سفيان: والعاني الأسير(٣).

وعن ثوبان مولىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من عاد مريضًا لم يزل في خُرْفَةِ الجنة**»، قيل: يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: «**جناها**»(٤).

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ (١/ ٣٩).

(٢) رواه أحمد (٧٥٧٦) والبيهقي في الشعب (١١٠٣٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤١٠).

(٣) رواه البخاري (٥٣٧٣).

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٨).

وأما الانتفاع بها؛ فإن الصحيح إذا زار المريض تذكَّرَ نعمةَ الله عليه، وأدركَ أهميَّةَ شكرِ هذه النعم؛ باستعمالها في طاعة الله، وكيف أنَّ الله عافاه مما ابتلىٰ به كثيرًا من الخلق، وفيه كبحٌ لجماحِ شهوةِ النَّفسِ، وتقييدٌ لطغيانها، ومن المعلوم أنَّ القلب يرِقُّ عند عيادة المريض، فكم من عائدِ مريضٍ خشعَ وبكىٰ عندما عاد مريضًا، وكم من شخصٍ تاب من ذنبه وأنابَ إلىٰ ربِّه عندما رأىٰ مبتلىٰ، وكم من غافل تذكَّر وانتبه عندما شاهد الذين فقدوا عافية أبدانهم.

٩- تحرِّي الحلال في المأكل والمشرب:

قال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي: « سألت أبا عبد الله - يعني: أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بم تلين القلوب؟ فأبصَرَ إليَّ، ثم أبصرَ إليَّ، ثم أطرقَ إليَّ ساعةً فقال: يا بُني! بأكل الحلال. قال: فذهبت إلىٰ أبي نصر بشر بن الحارث فقلت: له يا أبا نصر! بأي شيء تلين القلوب؟ فقال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فقلت: له فإني قد سألت أبا عبد الله، فتهلل وجهه لذكري لأبي عبد الله، قال: سألته؟ قلت: نعم، قال: هيه، قلت: قال لي: بأكل الحلال، قال: جاءك بالأصل، كما قال، قال: فذهبت إلىٰ عبد الوهاب بن أبي الحسن فقلت: يا أبا الحسن بم تلين القلوب؟ فقال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فقلت: قد سألت أبا عبد الله. فاحمرَّ وجهه من فرحِه بأحمدَ، فقال: سألت أبا عبد الله؟ قلت: نعم، قال: هيه، قلت: قال لي: بأكل

الحلال، فقال: لأصحابه: أما تسمعون؟ أجابه بالجوهر، أجابه بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال»[1].

١٠- مجالسة الصالحين:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأما قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ فهي عامة فيمن تناوله هذا الوصف؛ مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة، فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، سواء كانوا من أهل الصفة أو غيرهم، أمر الله نبيه بالصبر مع عباده الصالحين؛ الذين يريدون وجهه، وألا تعدو عيناه عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، وهذه الآية في الكهف وهي سورة مكية. وكذلك الآية التي في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقد رُوي أن هاتين الآيتين نزلتا في المؤمنين

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٢١٩) لأبي الحسين ابن أبي يعلىٰ ت ٥٢٦هـ. وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٨٢).

المستضعفين لما طلب المتكبرون أن يبعدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، فنهاه الله عن طرد من يريد وجه الله وإن كان مستضعفًا، ثم أمره بالصبر معهم، وكان ذلك قبل الهجرة إلىٰ المدينة وقبل وجود الصفة؛ **لكن هي متناولة لكل من كان بهذا الوصف من أهل الصفة وغيرهم. والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم أولياء الله وإن كانوا فقراء ضعفاء**، ولا يتقدم أحد عند الله بسلطانه وماله ولا بذله وفقره، وإنما يتقدم عنده بالإيمان والعمل الصالح، فنهىٰ الله نبيه أن يطيع أهل الرياسة والمال الذين يريدون إبعاد من كان ضعيفًا أو فقيرًا، وأمره ألا يطرد من كان منهم يريد وجهه، وأن يصبر نفسه معهم في الجماعة التي أمر فيها بالاجتماع بهم، كصلاة الفجر والعصر، ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر الله المتبعين لأهوائهم »[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: « يأمر تعالىٰ نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي -أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، **ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس علىٰ صحبتهم ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصىٰ**.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩).

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾: أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره »(١).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفيه فضيلةُ مجالسةِ الصالحين وأهلِ الخير والمروءةِ ومكارمِ الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنَّهيُ عن مجالسةِ أهلِ الشَّرِّ وأهلِ البِدعِ، ومن يغتابُ الناس، أو يكثُرُ فُجْرُهُ وبطالتُه، ونحوُ ذلك من الأنواع المذمومة »(٣).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٣٩) [الكهف: ٢٨].

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٦/ ١٧٨) حديث رقم (٢٦٢٨).

وفي كل الأحوال فإن مجالسة الأشرار مذمومة ضارَّة، ومجالسة الصالحين محمودة نافعة، ولذلك كان من وصايا ذلك العالِم للتائب من ذنب القتل؛ أن يذهب إلىٰ أرضٍ فيها أناسٌ صالحون ليجالسهم، وأن يتركَ بلَدَه، ويفارقَ جلساءَ السوء، ففي الحديث لما سأل: هل له من توبة؟ **فقال**: نعم، ومَنْ يحولُ بينه وبين التوبة، انطلِقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا فإن بها أُناسًا يعبدون الله فاعبدِ الله معهم، ولا ترجِعْ إلىٰ أرضك فإنها أرضُ سُوءٍ(١).

قال العلماء: « في هذا استحبابُ مفارقةِ التائبِ المواضعَ التي أصاب بها الذُّنوب، والأخدانَ المساعدينَ له علىٰ ذلك، ومقاطعتِهِم ما داموا علىٰ حالهم، وأن يستبدلَ بهم صحبةَ أهلِ الخير والصلاح والعلماء والمتعبِّدين الوَرِعِينَ ومن يَقْتَدِي بهم، ويَنتَفِعُ بصحبتهم، وتتأكدُ بذلك توبتُهُ »(٢).

١١- النظرُ في ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين:

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلىٰ مصارع ضُربائهم من مُكذّبي

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/ ٨٣) حديث رقم (٢٧٦٦).

رسل الله الذين خلوْا من قبلهم، كعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وشعيبٍ، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكَّروا فيها، ويعتبروا بها، ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فيُنيبُوا من عتوِّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبّروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلىٰ الحقّ ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ حُجج الله علىٰ خلقه وقدرته علىٰ ما بيّنا ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؛ يقول: أو آذان تُصغي لسماعِ الحقّ فتعي ذلك وتميز بينه وبين الباطل، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يقول: فإنها لا تعمىٰ أبصارهم أن يُبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم، ولكن تعمىٰ قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفته »(١)، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وعن عمر بن سُليم الباهلي، عن أبي الوليد أنه قال: « كان ابن عمر إذا أراد أنْ يتعاهد قلبه؛ يأتي الخَربة فيقف علىٰ بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلىٰ نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] »(٢).

وعن محمد بن قدامة قال: « كان الرَّبيع بن خُثَيم إذا وجد مِن قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات؛ في الليل فيُنادي: يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، ثم

(١) تفسير الطبري – جامع البيان (١٨/ ٦٥٧) [سورة الحج: ٤٦].

(٢) ذم قسوة القلب لابن رجب (ص/ ٢٦٩).

يقول: ليت شِعري!! ما فعلتَ وما فُعل بك؟ ثم يبكي حتىٰ تسيل دموعه، فُيعرف ذلك فيه إلىٰ مثلها »(١).

١٢- تنقية القلب من الأخلاط الرديئة:

في مختصر منهاج القاصدين: « ومَثَلُ الشيطان كمَثَل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيءٌ من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلبُ الذي غلب عليه الهوىٰ، فإنه يرفع الذكرَ إلىٰ حواشيه، فلا يتمكّن الذكر من سُوَيدائه، فيستقر الشيطان في السُّوَيداء »(٢).

إن تفريغ القلب من الباطل ومن محبتِه وأهلِه؛ شرطٌ في تعلقه بالله، لأنَّ القلب إذا امتلأ بالشُّبَهِ والشُّكوك لم ينتفعْ بالعلم؛ الذي به كمالُ فلاحِهِ وسعادَتِهِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قَبولُ المَحلِّ لما يُوضع فيه مشروطٌ بتفريغه من ضدِّه، وهذا كما أنَّه فِي الذوات والأعيان؛ فَكَذَلِك هُوَ فِي الاعتقادات والإرادات؛ فَإِذا كَانَ الْقلبُ ممتلئًا بِالْبَاطِلِ اعتقادًا ومحبّةً؛ لم يبْقَ فِيهِ لاعتقاد الْحقِّ ومحبّتِهِ مَوضِعٌ، كَمَا أَن اللِّسَان إِذا اشْتغل بالتَّكلُّم بِمَا لَا ينفعُ، لم يتَمَكَّنْ

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٠) رقم (٩٣٠٨).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٩٥).

صَاحبُهُ من النُّطْق بِمَا يَنْفَعُهُ؛ إِلَّا إِذا فرَّغَ لِسَانه من النُّطق بِالْبَاطِلِ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِحُ إِذا اشتغلت بِغَيْر الطَّاعَة؛ لم يُمكن شغلها بِالطَّاعَةِ إِلَّا إِذا فرَّغها من ضدِّها.

فَكَذَلِك الْقلبُ المشغولُ بمحبَّة غير الله وإرادته والشوق إِلَيْهِ والأُنْس بِهِ لا يُمكن شَغْلُهُ بمحبة الله وإرادتِهِ وحبِّه والشوق إِلَىٰ لِقَائِه؛ إِلَّا بتفريغِهِ من تعلُّقه بِغَيْرِهِ، وَلَا حَرَكَة اللِّسَان بِذكرِهِ والجوارح بخدمتِهِ، إِلَّا إِذا فرَّغها من ذكر غيره وخدمته؛ فَإِذا امْتَلَأَ الْقلبُ بِالشُّغلِ بالمخلوق والعلوم الَّتِي لَا تَنْفَعُ، لم يبْق فِيهَا مَوضِعٌ للشُّغل بِالله وَمَعْرِفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِه.

وسرُّ **ذَلِك**: أَنَّ إصغاء الْقلب كإصغاءِ الْأُذُنِ، فَإِذا صغىٰ إِلَىٰ غير حَدِيث الله؛ لم يبْقَ فِيهِ إصغاءٌ وَلَا فهمٌ لحديثِهِ، كَمَا إِذا مَال إِلَىٰ غير محبَّة الله؛ لم يبْق فِيهِ ميلٌ إِلَىٰ محبَّتِهِ، فَإِذا نطق الْقلبُ بِغَيْر ذِكرِه، لم يَبْقَ فِيهِ مَحلٌّ للنُّطقِ بذكرِهِ كاللسان، وَلِهَذَا فِي الصَّحِيح عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حتَّىٰ يَرِيهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[1]، فبيَّنَ أَنَّ الْجوفَ يمتلئُ بالشِّعرِ، فَكَذَلِك يمتلئُ بالشُّبه، والشُّكوكِ، والخيالاتِ، والتقديرات الَّتِي لَا وجود لَهَا، والعلوم الَّتِي لَا تَنْفَعُ، والمُفاكَهاتِ، والمُضحِكاتِ، والحكاياتِ وَنَحْوهَا، وَإِذا امْتَلَأَ الْقلبُ بذلك؛ جَاءَتْهُ حقائقُ الْقُرْآنِ وَالْعلم الَّذِي بِهِ كَمَالُهُ وسعادتُهُ، فَلم تَجِدْ فِيهِ فراغًا لَهَا وَلَا قبولًا، فتعَدَّتْهُ وجاوزَتْـهُ إِلَىٰ مَحلٍّ سواهُ؛ كَمَا إِذا بُذِلَتِ

(١) رواه البخاري (٦١٥٥) ومسلم (٢٢٥٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

النَّصِيحَةُ لقلبٍ ملآن من ضدِّها لَا منفذَ لَهَا فِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يقبلُهَا وَلَا تلجُ فِيهِ، لَكِن تَمُرُّ مجتازةً لَا مستوطنةً. وَلذَلِك قيل:

نَــزِّهْ فُــؤَادك مِــنْ ســوانا تَلْقنــا فجَنابُنــا حِــلٌّ لِكُــلِّ مُنَــزَّهِ
وَالصَّــبْرُ طِلَّسْــمٌ لِكَنْــزِ وِصــالِنا مَــنْ حَــلَّ ذَا الطِّلَّسْــمَ فَــازَ بِكَنْــزِهِ

وَبِاللهِ التَّوْفِيق»[1].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) الفوائد (ص/ ٤١- ٤٣)

المبحث الثالث: أسباب قسوة القلوب

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ من القلب الذي لا يخشع(١)؛ **لأن القلب إنما خلق لأن يتخشع لبارئه، وينشرح لذلك الصدر، ويقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قاسيًا؛ فيجب أن يستعاذ منه**(٢).

وكما أن لصلاح القلوب أسباب - تقدم ذِكرها - فكذلك لقسوة القلوب أسباب؛ تُعرف؛ لتُجتنب لا لتُرتكب، ومنها:

١- فضول الكلام:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُكثِروا الكلام بغير ذكرِ الله فإنَّ كثرةَ الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعدَ الناسِ من الله القلبُ القاسي**»(٣).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « لأن الكلام إما خيرٌ أو شر أو مباح، ففي الخير أجر، وفي الشر إثم، وفي المباح عفو لا إثم فيه ولا أجر، والمراد بذكر الله هنا ما فيه رضي الله من الكلام، كالتلاوة، والصلاة علي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتسبيح،

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢).

(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٩١٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٤١١). البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٥١) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨): إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

والتهليل، والدعاء للمؤمنين وما أشبه ذلك.. «كل كلام ابن آدم» فلا يخرج المباح من جملة ما عليه، وأقله أنْ يُحاسَب عليه، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق:١٨]، ويُورِثُ قساوةَ القلب... ولابد في الكلام من التقدير بأن يقال: إن أبعد القلوب من الله القلب القاسي، أو: إن أبعد الناس من الله القلب القاسي. أقول [أي: الطيبي]: ويمكن أن يعبر بالقلب عن الشخص؛ لأنه به، كما قيل: المرء بأصغريه؛ أي: بقلبه ولسانه، أو يقدر: ذو القلب »(١).

وقال عليّ القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «لا تكثر الكلام بغير ذكر الله» فيه إشارة إلىٰ أن بعض الكلام مباحٌ وهو ما يعنيه: «فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة»؛ أي: سببُ قساوةٍ «للقلب»، وهي النبوُّ عن سماع الحق، والميلُ إلىٰ مخالطة الخلق، وقِلةُ الخشية وعدمُ الخشوع والبكاء، وكثرةُ الغفلةِ عن دارِ البَقاء «وإن أبعد الناس من الله» أي: من نَظَرِ رحمتِه وعينِ عِنايته «القلبُ القاسي»؛ أي: صاحبه »(٢).

وعن أبي عمران الجوني، عن أبي الجَلْدِ أن عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أوصىٰ الحواريين: « لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فتقسُو قلوبُكم، وإنَّ القاسي قلبُهُ بعيد من الله عَزَّوَجَلَّ ولكن لا يعلم، ولا تنظروا إلىٰ ذنوبِ الناسِ كأنكم أربابٌ ولكن انظروا في ذنوبكم كأنكم عبيدٌ، والناسُ رجلان: معافًىٰ ومبتلًىٰ، فارحموا أهلَ البلاء في بَلِيَّتِهم، واحمدوا الله علىٰ العافية »(٣).

---

(١) شرح المشكاة للطيبي - الكاشف عن حقائق السنن (٥/ ١٧٣٧).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في كتاب الزهد (ص/ ٥٠) رقم (٣١١) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٨٦) رقم (٨).

وعن إبراهيم الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « قال بعضُ أهل المعرفة: لا يطمعُ أحدٌ في السَّهو مع الشِّبَع، ولا يطمعُ في الحزن مع كثرة النوم، ولا يطمع في صحة أمره مع مخالطة الظلمة، ولا يطمع في لين القلب مع فضول الكلام، ولا يطمع في حب الله مع حب المال والشرف، ولا يطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين، ولا يطمع في الروح مع الرغبة في الدنيا »(١).

وعن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « يهلك الناس في خلتين: فضول المال، وفضول الكلام »(٢).

٢- نقض العهود والمواثيق:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣]، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فتأويل الكلام علىٰ هذه القراءة: فلعنَّا الذين نقضوا عهدي، ولم يفُوا بميثاقي من بني إسرائيل، بنقضهم ميثاقهم الذي واثقوني ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾؛ أي: غليظة يابسةً عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعةً منها الرأفةُ والرحمة »(٣).

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص/ ١٧٧) رقم (٤١٣).

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا (ص/ ٩٠) رقم (١٠٣).

(٣) تفسير الطبري - جامع البيان (١٠/ ١٢٦) [المائدة: ١٣].

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقسوةُ القلب عقوبة لهم من قبل الله تعالىٰ علىٰ ما نقضوه من العهود، ونقض العهد أعظم وزر يلم به العبد، والعقوبة عليه أشد عقوبة يعاقب بها العبد، وقسوة القلب عدم التوجع مما يمتحن به من الصدّ، وعن قريب يمتحن بمحنة الرد بعد الصدّ، وذلك غاية الفراق، ونهاية البعد.

ويقال: قسوة القلب أولها فقد الصفوة، ثم استيلاء الشهوة، ثم جريان الهفوة، ثم استحكام القسوة، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة »[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فقد أخبر تعالىٰ أنه بترك ما أوجبه عليهم من الميثاق وإن كان واجبًا بالأمر حصلت لهم هذه العقوبات، التي منها فعل هذه المحرمات من قسوة القلوب؛ وتحريف الكلم عن مواضعه؛ وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به »[2].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أي: فبسببِ نقضِهم ميثاقِهم ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾: أي: طردناهم وأبعدناهم و﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾: أي: صلبةً لا تَعي خيرًا ولا تعقِلُهُ »[3].

---

(١) لطائف الإشارات - تفسير القشيري (١/ ٤١١) [المائدة: ١٣].

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ١١٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٦) [المائدة: ١٣].

وقال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يوماً في وعظِهِ: « يا من يجد من قلبه قسوة! احذر أنْ تكون نقضت عهداً! فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] »[١].

٣- كثرة الأكل:

عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « خصلتان تقسِّيان القلب: كثرةُ الكلام، وكثرةُ الأكل »[٢].

وقال المروذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قلتُ لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل -: يجد الرجلُ من قلبه رقَّة وهو يَشْبعُ؟ قال: ما أرىٰ »[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قسوة الْقلب من أَرْبَعَة أَشْيَاء إِذا جَاوَزتْ قدرَ الْحَاجة: الْأكل، وَالنَّوْم، وَالْكَلَام، والمخالطة »[٤].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لكلِّ شيءٍ صدأٌ، وصدأُ نورِ القلب شبعُ البطن، وكلُّ ما شغلك عن الله من أهلٍ أو مال أو ولد فهو شؤمٌ »[٥].

---

(١) كتاب ذم قسوة القلوب للحافظ ابن رجب الحنبلي (ص/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (ص/ ١٧٦) رقم (٤١٠).

(٣) الورع للإمام أحمد ابن حنبل رواية المروزي (ص/ ١٠٥) رقم (٣٢٣).

(٤) كتاب الفوائد (ص/ ١٤٢).

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٥٦).

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « نبني أمرنا هذا علىٰ أربع: لا نتكلم إلا عن وجد، ولا نأكل إلا عن فاقة، ولا ننام إلا عن غلبة، ولا نسكت إلا عن خشية »(١).

٤- كثرة الضحك:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُكثِروا الضَّحِكَ، فإنَّ كَثْرَةَ الضِّحكِ تُميتُ القلبَ**»(٢)؛ أي: تجعله قاسيًا لا يتأثر بالمواعظ؛ كالميت؛ أي: تصيره مغمورًا في الظلمات بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة ولا يدفع عنها مكروهًا، وهذا من جوامع الكلم(٣).

وعن أبىٰ هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقِلَّ الضحك، فإنَّ كثرةَ الضَّحكِ تميتُ القلبَ**»(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يأخذُ عني هؤلاء الكلماتِ فيعملُ بهن أو يُعلِّمُ من يعملُ بهن؟**»، فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعَدَّ خمسًا، وقال: «**اتَّقِ المحارم تكنْ أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكنْ أغنىٰ الناس، وأحسِنْ إلىٰ جارك تكن مؤمنًا، وأحِبَّ**

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص/ ١٧٧) رقم (٤١٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٣) والترمذي (٢٣٠٥) وأحمد (٨٠٩٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٠). وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٨٧).

(٣) شرح سنن ابن ماجه للهرري - مرشد ذوي الحجا والحاجة إلىٰ سنن ابن ماجه (٢٥/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٢) وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٠٣).

للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مسلمًا، ولا تُكثِرِ الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»[1].

قال محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله: «ولا تُكثِرِ الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»؛ أي: يخرجه عن حياته، وذلك لأن حياة القلب في استعماله لما خُلق له من معرفةِ الله، والإقبالِ عليه، والسكون إلىٰ ذكره، والتلذُّذِ بمناجاته، فلا حياة له ولا إنارة إلا بهذا، وكثرة الضحك لا تنشأ إلا عن الإعجاب بالأمور الدنيوية، والسرور بها، ووفور محبتها، والرغبة فيها، والقلب لا يتسع إلا لمحبوب واحد، فموت القلب هو خلوه عن ذكر الله، وإنارته بحبه وتعظيمه وخوفه ورجائه، ولما كان البشر لا يخلو عن إعجاب يتولد عنه ضحكه عفىٰ الله عن قليله لطفًا منه بعباده، فلم يجعله مميتًا للقلب »[2].

٥- جلساء السوء:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥) وأحمد (٨٠٩٥) والطبراني في الأوسط (٧٠٥٤) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٠٥).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (١/ ٣٢٠).

قال الثعلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكلّ من صدّ عن سبيل الله وأُطيع في معصيته فهو شيطان لِلْإِنْسانِ خَذُولًا عند نزول البلاء والعذاب به، وحكم هذه الآيات عامّ في كلّ متحابّين اجتمعا علىٰ معصية الله »(١).

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ودليل الخطاب يقتضي سرور المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم في الله، وأمّا الكافر فيضلّ صاحبه فيقع معه في الثبور، ولكن المؤمن يهدىٰ صاحبه إلىٰ الرشد فيصل به إلىٰ السرور »(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة**»(٣)، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفيه فضيلةُ مجالسةِ الصالحين وأهلِ الخير والمروءةِ ومكارمِ الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنَّهيُ عن مجالسةِ أهلِ الشَّرِّ وأهلِ البِدعِ، ومن يغتابُ الناس، أو يكثُرُ فُجْرُهُ وبطالتُه، ونحوُ ذلك من الأنواع المذمومة »(٤).

---

(١) تفسير الثعلبي - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ١٣١) [الفرقان: ٢٩].

(٢) لطائف الإشارات - تفسير القشيري (٢/ ٦٣٤) [الفرقان: ٢٩].

(٣)رواه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٦/ ١٧٨) حديث رقم (٢٦٢٨).

ولقد كان من وصايا ذلك العالِم للتائب من ذنب القتل أن يترك بلده ويفارق جلساء السوء، ففي الحديث لما سأل: هل له من توبة؟

فقال: «نعم، ومَنْ يحولُ بينه وبين التوبة، انطلِقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا فإن بها أُناسًا يعبدون الله فاعبدِ الله معهم، ولا ترجِعْ إلىٰ أرضك فإنها أرضُ سُوءٍ»[(١)].

قال العلماء: « في هذا استحبابُ مفارقةِ التائبِ المواضعَ التي أصاب بها الذُّنوب، والأخدانَ المساعدينَ له علىٰ ذلك، ومقاطعتِهم ما داموا علىٰ حالهم، وأن يستبدلَ بهم صحبةَ أهلِ الخير والصلاح والعلماء والمتعبِّدين الوَرِعِينَ ومن يَقْتَدِي بهم، ويَنتَفِعُ بصحبتهم، وتتأكدُ بذلك توبتُهُ »[(٢)].

٦- شدة الحرص على الدنيا:

قال أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إياك ثم إياك أن تشتغل بجمع المال، فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة، وينزع حلاوة الإيمان من قلبك »[(٣)].

وقال سليمان الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسم، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم؛ فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا – أو كما قال – »[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/ ٨٣) حديث رقم (٢٧٦٦).

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٦/ ٢٦٦).

(٤) فتاوىٰ ابن تيمية (٩/ ٣١٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « متىٰ رأيت القلب قد ترحَّل عنه حبُّ الله والاستعداد للقائه، وحلَّ فيه حبُّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها، فاعلم أنه قد خسف به »(١).

وعن سهيل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعت مالك بن دينار، يقول: حزنك علىٰ الدنيا للدنيا يذهب بحلاوة الآخرة من قلبك، وفرحك بالدنيا للدنيا يذهب بحلاوة الآخرة من قلبك »(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « شَغلوا قُلُوبهم بالدُّنيا، وَلَو شغلوها بِاللهِ وَالدَّار الْآخِرَة لجالَت فِي مَعَاني كَلَامه وآياته المشهودة، وَرجعتْ إِلَىٰ أَصْحَابهَا بِغَرَائِب الحكم وطُرَفِ الْفَوَائِد.

وقال أيضًا: إِذا زَهِدَت الْقُلُوبُ فِي مَوَائِد الدُّنْيَا قعدت علىٰ مَوَائِد الْآخِرَة بَين أهل تِلْكَ الدعْوَة، وَإِذا رَضِيَتْ بموائد الدُّنْيَا فاتتها تِلْكَ الموائد.

وقال أيضًا: لَا تَدْخُلُ محبَّةُ الله فِي قلب فِيهِ حبُّ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا يدْخل الْجملُ فِي سَمِّ الإبرة »(٣).

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٢٣٤).

(٢) كتاب الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص/ ٣٢) رقم (٩).

(٣) كتاب الفوائـد لابن القيم (ص/ ١٤٢- ١٤٣).

٧- التعلُّق بالشهوات:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كَمَا أَن الْبدن إِذا مرض لم ينفع فِيهِ الطَّعَامُ وَالشرَابُ؛ فَكَذَلِك الْقلب إِذا مرض بالشهوات لم تَنْجَعْ فِيهِ المواعظُ.

وَقال أيضًا: من أَرَادَ صفاءَ قلبه فليُؤْثِر الله علىٰ شَهْوَته.

وقال أيضًا: الْقُلُوبُ الْمُتَعَلّقَةُ بالشهوات محجوبةٌ عَن الله بِقدر تعلُّقهَا بهَا »(١).

٨- الذنوب والمعاصي:

يروىٰ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: « إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسِعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة لَسوادًا في الوجه، وظُلمةً في القلب، ووَهَنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضًا في قلوب الخلق »(٢).

وقال ابن القيم بعد هذا الأثر: « وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره، فما حصل للعبد حالٌ مكروهةٌ قطُّ إلّا بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر »(٣).

---

(١) المصدر السابق (ص/ ١٤٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتىٰ يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا تُرِكَ صَدِئ، فإذا ذُكِرَ جلاه.

وصدأُ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبًا علىٰ قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات علىٰ ما هي عليه، فيرىٰ الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل؛ لأنه لما تراكم عليه الصدأ أَظْلَم فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسْوَدَّ، ورَكِبَه الرَّانُ فَسَدَ تصوُّره وإدراكه، فلا يقبل حقًا ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصلُ ذلك من الغفلة واتباع الهوىٰ؛ فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨] » (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيتُ الذُّنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يورث الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخَيْرٌ لنفسك عِصيانُها

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٩٢).

وهـل أفسدَ الـدينَ إلا الملو ... كُ وأحبـارُ سـوءٍ ورُهبانُها
وباعوا النفوس ولم يَربَحوا ... ولم يغْلُ في البيع أثمانُها
فقـد رَتَع القـوم في جِيفةٍ ... يَبينُ لذي اللُّبِّ خسرانُها(١)

مطلب: تأثير الذنوب على صلاح القلوب:

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤].

قال المفسرون: «لما كثرت معاصيهم وذنوبهم أحاطت بقلوبهم. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الذنب على الذنب حتىٰ يَعْمَىٰ القلب فيموت»(٢).

وقال ابن الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية مذكورة في حق الكفار لكنْ ذَكَرَها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخويفًا للمؤمنين؛ كي يحترزوا عن كثرة الذنب؛ كيْلا تسْوَدَّ قُلوبُهم كما اسودَّتْ قلوبُ الكفار، ولذا قيل: المعاصي بريد الكفر»(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل هذا أنّ القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصدأ حتىٰ يصير رانًا، ثم يغلب حتىٰ يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف. فإن حصل له ذلك بعد الهدىٰ والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولّاه عدوّه، ويسوقه حيث أراد»(٤).

---

(١) مدارج السالكين (٤/ ١٦٨) والأبيات في ديوان ابن المبارك (ص/ ٢٦) والمجالسة للدينوري (٢/ ٣٠).

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤/ ٤١٥) [المطففين: ١٤].

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٢٣).

(٤) الداء والدواء – الجواب الكافي – ط عطاءات العلم (١/ ١٤٨).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**إن المؤمن إذا أَذنبَ كانت نُكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونَزَع واستغفرَ، صُقِلَ قلبُه، فإن زاد، زادت، فذلك الرَّانُ الذي ذكره الله في كتابه:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»(١).

قال الملا علي القاري رَحِمَهُٱللَّهُ: « قوله: «في قلبه» أي: كقطرةِ مِداذٍ تَقطُرُ في القرطاس، ويَختلِفُ علىٰ حسب المعصية وقدْرِها، والحملُ علىٰ الحقيقة أولىٰ من جعله من باب التمثيل والتشبيه حيث قيل: شبَّه القلبَ بثوبٍ في غايةِ النقاء والبياض، والمعصيةَ بشيء في غاية السوادِ أصابَ ذلك الأبيضَ، فبالضرورة أنه يذهبُ ذلك الجمالُ منه، وكذلك الإنسانُ إذا أصابَ المعصيةَ صارَ كأنه حصلَ ذلك السوادُ في ذلك البياضِ. «فإن تاب» أي: من الذنبِ «واستغفر» أي: أناب إلىٰ الرَّبِّ، وليس المُرادُ أنَّ لفظَ الاستغفارِ شرطٌ لِصحةِ التوبة خلافًا لمن توهَّمَه، وإنما المرادُ أنه كمالٌ فيها. «صُقِل قلبُه» المعنىٰ: نظُف وصَفيَ مرآةُ قلبه؛ لأن التوبة بمنزلة المِصْقَلةِ تمحُو وَسَخَ القلب وسوادَه حقيقيًا أو تمثيليًا. «وإن زاد» أي: في الذنب، أي بعينه أو بغيره من الذنوب، «زادت» أي: النكتة السوداء أو يظهر لكل ذنب نُكتة «حتىٰ تعلو» أي النكت «قلبه» أي: تُطفئ نور قلبه؛ فتُعمي بصيرتَه، فلا يُبصر شيئًا من العلوم النافعة والحكم الرائعة، وتزول

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٤) والترمذي (٣٣٣٤) وأحمد (٧٩٥٢). وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٤١).

عنه الشفقة والرحمة علىٰ نفسه وعلىٰ سائر الأمة، ويثبت في قلبه آثار الظلمة والفتنة والجراءة علىٰ الأذية والمعصية. «فذلكمُ الرَّانُ الذي ذكر الله تعالىٰ» أي: في كتابه »[1].

وكان الربيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: « قولوا خيرًا وافعلوا خيرًا ودوموا علىٰ صالح ذلك واستكثروا من الخير، واستقلّوا من الشرّ، لا تقسو قلوبكم ولا يطول عليكم الأمَد، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: ٢١] »[2].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهو يذكر أضرار الذنوب وعقوباتها: فمنها: الختم علىٰ القلوب والأسماع، والغشاوة علىٰ الأبصار، والإقفال علىٰ القلوب، وجعل الأكِنَّة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الربِّ وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهيرَ القلب، وجعل الصدر ضيّقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا علىٰ مرضها، وإركاسِها ونكسها، بحيث تبقىٰ منكوسة »[3].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٢٢- ١٦٢٣).

(٢) الطبقات الكبير (٨/ ٣٠٧) ومصنف ابن أبي شيبة (٣٤٨٤٠) بنحوه.

(٣) الداء والدواء (ص/ ٢٧٣-٢٧٤).

وعن فهد بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « سمعتُ صالحًا المري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يبكي ويقول: يا إخوتاه! ابكو على الذنوب؛ فإنها تَرِين القلوبَ حتى تنطمس، فلا يصلُ إليها من خيرِ الموعظة شيء »[1].

وقال المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اعلم أنَّ الذنوب تورث الغفلة، والغفلة تورث القسوة، والقسوة تورث البعد من الله، والبعد من الله يورث النار، وإنَّما يتفكر في هذا الأحياء، وأما الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا »[2].

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أرقُّ الناس قلوبًا أقلهم ذنوبًا »[3].

مطلب آخر: نصيحة بازية:

سُئل ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف يتخلص الإنسان من قسوة القلب وما هي أسبابه؟

فأجاب: أسباب قسوة القلب: الذنوب والمعاصي، وكثرة الغفلة وصحبة الغافلين والفساق، كل هذه الخلال من أسباب قسوة القلوب، ومن لين القلوب وصفائها وطمأنينتها: طاعة الله جَلَّ وَعَلَا وصحبة الأخيار، وحفظ الوقت بالذكر وقراءة القرآن والاستغفار. ومن حفظ وقته بذكر الله وقراءة القرآن وصحبة الأخيار والبعد عن صحبة الغافلين والأشرار؛ يطيب قلبه ويلين: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] »[4].

---

(١) الرقة والبكاء (ص/ ١٤٥) رقم (١٨٧).

(٢) رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص/ ١٥٥).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص/ ٣١٣) رقم (٢٢٨٣) وحلية الأولياء (٥/ ١٨٠).

(٤) الدرر الثرية من الفتاوى البازية (ص/ ٤٥).

المبحث الرابع: مظاهر قسوة القلوب

من فوائد العلم بمظاهر قسوة القلوب أن يعرف المسلم من خلالها مدى قسوة قلبه، فيبادر العاقل إلى إزالة تلك القسوة، ويحرص على تليين قلبه، وأن يأخذ بأسباب صلاحه، ومظاهرُ قسوة القلوب كثيرة؛ ومنها:

١- بغض الطاعات والانزعاج منها.

٢- التقصير في أداء العبادات؛ كتأخيرها عن أوقاتها، أو التكاسل عند أدائها.

٣- فقدان الخشوع في العبادة، وعدم الرغبة فيها والمحبة لها.

٤- انعدام التدبر والخشوع عند تلاوة القرآن الكريم.

٥- تكرار ارتكاب المحرمات، وتأخير التوبة منها.

٦- الأمن من خطر الشبهات، واستمراء البدعة ومحبة أهلها.

٧- عدم محاسبة النفس ومعاتبتها عند ترك الواجبات أو ارتكاب المحرمات.

٨- سوء المعاملة مع الآخرين، والتعدي عليهم باللسان أو باليد.

٩- ظهور بعض أمراض القلب في التعامل؛ كالكبر والعجب واحتقار الآخرين.

١٠- سوء الظن بأكثر الناس، والتعامل معهم بموجب ذلك.

١١- قلة ذكر الله باللسان.

١٢- التكسب من الحرام، ومن الأموال المشبوهة.

١٣- النفرة من بيوت الله، ومن مجالس العلم والذكر.

١٤- الإفراط في حب اللهو وجلساء السوء.

١٥- الرضا بالجهل، والرغبة عن تعلم أمور الدين، لا سيما ما يجب أن يتعلمه المسلم من أمور صلاته وطهارته، وشؤون أهله.

المبحث الخامس: أنواع القلوب وكيفية تحصينها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أنواع القلوب:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجْرَدُ فيه مثلُ السِّراجِ يَزْهَرُ، وقلبٌ أَغلفُ مربوطٌ علىٰ غلافِه، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مُصْفَحٌ، فأما القلبُ الأجْرَدُ: فقلبُ المؤمن سِراجُه فيه نورُه، وأما القلبُ الأغْلَفُ: فقلبُ الكافرِ، وأما القلبُ المنكوسُ: فقلبُ المنافِقِ عرفَ، ثم أنكرَ، وأما القلبُ المُصْفَحُ: فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، فمثَلُ الإيمانِ فيه كمَثَلِ البَقْلةِ يَمُدُّها الماءُ الطيِّبُ، ومثَلُ النفاقِ فيه كمثل القُرْحة يَمُدُّها القَيْحُ والدَّمُ، فأيُّ المَدَّتين غلبتْ علىٰ الأخرىٰ غلَبت عليه»(١).

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « القلوب أربعة: فقلبٌ أجرَدُ فيه سراج يُزْهِر، فذلك قلب المؤمن. وقلبٌ أغلَفُ، فذلك قلب الكافر. وقلبٌ منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلبٌ تُمِدُّه مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غَلَبَ عليه منهما »(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١١٢٩) والطبراني في المعجم الصغير (١٠٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٨٥) باختلاف يسير، وجود إسناده الشوكاني في فتح القدير (١/ ١٦٥) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٣).

(٢) الداء والدواء (ص/ ٢٧٤). وصححه السفاريني الحنبلي في شرح ثلاثيات المسند (١/ ٥٤٦). والألباني في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (٥٤).

وفي مختصر منهاج القاصدين: « واعلم أنَّ القلوبَ في الثبات علىٰ الخير والشر والتردد بينهما، ثلاثةٌ:

القلب الأول: قلبٌ عُمِّرَ بالتقوىٰ، وزُكِّيَ بالرياضة، وطُهِّرَ عن خبائث الأخلاق، فتتفرّج فيه خواطرُ الخير من خزائن الغيب، فيمدّه المَلَكُ بالهدىٰ.

القلبُ الثاني: قلبٌ مخذول، مشحونٌ بالهوىٰ، مُنْدَسٌّ بالخبائث، مُلَوَّثٌ بالأخلاق الذميمة، فيقوىٰ فيه سلطانُ الشيطان لاتّساع مكانه، ويضعُفُ سلطان الإيمان، ويمتلئُ القلبُ بدُخان الهوىٰ، فَيُعْدَمُ النور، ويصيرُ كالعين المُمْتَلئة بالدخان، لا يُمكنها النظر، ولا يُؤثّر عنده زجرٌ ولا وعظٌ.

والقلب الثالث: قلبٌ يبتدئ فيه خاطرُ الهوىٰ، فيدعوه إلىٰ الشر، فيلحقُه خاطر الإيمان فيدعوه إلىٰ الخير.

مثالُه: أن يحملَ الشيطانُ حملةً علىٰ العقل، ويُقَوِّي داعيَ الهوىٰ، ويقول: أما ترىٰ فلانًا وفلانًا كيف يطلقون أنفسهم في هواها!! حتىٰ يعدّ جماعةً من العلماء، فتميل النفس إلىٰ الشيطان، فيحمل المَلَكُ حملةً علىٰ الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتَر بغفلة الناس عن أنفسهم، أرأيتَ لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيتٌ بارد، أكنتَ توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلىٰ النار؟ فتميل النفس إلىٰ قول المَلَك، ويقع التردد بين الجُنْدين، إلىٰ أن يغلب علىٰ القلب ما هو أولىٰ به، فمن خُلق للخير يُسّر له، ومن خُلق للشر يُسِّر له:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥] اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه »[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

« **والقلوب ثلاثة**: قلبٌ خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مُظْلِمٌ، قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكَّم فيه بما يريد، وتمكَّن منه غاية التمكُّن.

القلب الثاني: قلبٌ قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هنالك إقبالٌ وإدبارٌ، ومجاولات ومطامع، فالحرب دُوَلٌ وسِجال. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم مَن أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلبٌ مَحْشُوٌّ بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فَلِنُوره في قلبه إشراق، ولذلك الإشراق إيقادٌ، لو دنا منه الوسواس احترق به.

فهو كالسماء التي حُرِسَت بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان ليتخطاها رُجِم فاحترق.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٩٦- ١٩٧).

وليست السماء بأعظم حُرْمَةً من المؤمن، وحراسةُ الله تعالىٰ له أتمُّ من حراسة السماء!

والسماء مُتَعَبَّدُ الملائكة، ومُسْتَقَرُّ الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلبُ المؤمن مُسْتَقَرُّ التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيقٌ أن يُحْرَسَ ويُحْفَظَ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئًا إلا علىٰ غِرَّةٍ وغفلةٍ خَطْفَةً»[(١)].

المطلب الثاني: أمثلة تحصين القلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد مُثِّل ذلك بمثال حسن، وهو ثلاثة بيوت: بيتٌ للمَلِك؛ فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيتٌ للعبد؛ فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره، وليس فيه جواهر الملك وذخائره، وبيتٌ خالٍ صِفْرٌ لا شيء فيه.

فجاء اللص ليسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق؟

فإن قلت: من البيت الخالي، كان محالًا؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يُسْرَق؛ ولهذا قيل لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟!»[(٢)].

وإن قلتَ: يَسْرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع؛ فإنَّ عليه من الحرس واليَزَكِ[(٣)] ما لا يستطيع اللص الدُّنُوَّ منه، كيف وحارسه الملك

(١) الوابل الصيب (ص/ ٥٢- ٥٦).

(٢) أخرج أحمد في الزهد (٢٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٥).

(٣) اليزك: كلمة فارسية، معناها: طلائع الجيش.

بنفسه؟! وكيف يستطيع اللص الدُّنُوَّ منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟! فلم يبق لِلِّصِّ إلا البيت الثالث، فهو الذي يّشُنُّ عليه الغارة.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حقَّ التأمل، ولينزله علىٰ القلوب، فإنها علىٰ منواله.

فقلبٌ خلا من الخير كله، وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك بيت الشيطان، قد أحرزه لنفسه واستوطنه، واتخذه سكنًا ومستقرًا، فأي شيء يسرق منه، وفيه خزائنه وذخائره، وشكوكه وخيالاته ووساوسه؟!

وقلبٌ قد امتلأ من جلال الله، وعظمته، ومحبته ومراقبته، والحياء منه، فأي شيطان يجترئ علىٰ هذا القلب؟!

وإنْ أراد سرقة شيء منه فماذا يسرق؟! وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخَطْفَةٍ ونَهْبَةٍ، تحصل له علىٰ غِرَّةٍ من العبد وغفلةٍ لا بد له؛ إذْ هو بشر، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو، والذهول وغلبة الطبع....

وقلبٌ فيه توحيد الله تعالىٰ ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ووعيده، وفيه شهوات النفس وأخلاقها، ودواعي الهوىٰ والطبع.

وقلبٌ بين هذين الداعيين: فمرة يميل بقلبه داعي الإيمان والمعرفة، والمحبة لله تعالىٰ وإرادته وحده، ومرة يميل بقلبه داعي الهوىٰ والشيطان والطِّباع، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع، وله منه منازلات ووقائع، ويُعْطِي الله النصر لمن يشاء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه، فيدخل الشيطان إليه فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به؛ فإنَّ أسلحته هي الشهوات والشبهات، والخيالات والأماني الكاذبة، وهي في القلب، فيدخل الشيطان فيجدها عنده فيأخذها ويصول بها علىٰ القلب؛ فإنْ كان عند العبد عُدَّةٌ عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العُدَّةَ وتزيد عليها، انتصف من الشيطان، وإلا فالدُّوْلة لعدوه عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم!

فإذا أَذِنَ العبدُ لعدوه، وفتح له باب بيته، وأدخله عليه، ومَكَّنه من السلاح يقاتله به، فهو المَلُوم.

فَنَفْسَكَ لُمْ ولا تَلُمِ المطايا ... ومُتْ كمدًا فليس لك اعتذارُ» (١)

المطلب الثالث: كيفية العناية بشجرة الإيمان في القلب:

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن شجرة الإيمان في القلب لا تنمو وتتم إلا بالعناية والرعاية، ثم بين كيفية العناية بها؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

« ومنها: أن الشجرة لا تبقىٰ حيَّةً إلا بمادّةٍ تسقيها وتنميها، فإذا قُطِعَ عنها السقيُ أوشك أن تَيْبَس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت: **بالعلم النافع، والعمل الصالح، والعَوْدِ بالتذكُّر علىٰ التفكُّر، والتفكُّر علىٰ التذكُّر، وإلا أوشك أن تيبس!**

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٥٢- ٥٦).

وبالجملة: فالغَرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك؛ ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلىٰ ما أمر الله به من العبادات علىٰ تعاقُب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلىٰ عباده بأن وظَّفها عليهم وجعَلَها مادةً لسقي غِراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرىٰ الله سبحانه العادة أنه لا بدَّ أن يخالطه دَغَلٌ ونبتٌ غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربُّه ونقَّاه وقلَعَه كملَ الغرس والزرع، واستوىٰ، وتمَّ نباته، وكان أوفر لثمرته، وأطيب وأزكىٰ، وإن تركه أوشك أن يغلب علىٰ الغِراس والزرع، ويكون الحُكْمُ له، أو يُضعِفَ الأصلَ ويجعل الثمرةَ ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقهُ نفس في هذا ومعرفةٌ به، فاتَـــه ربحٌ كثير وهو لا يشعر!

فالمؤمن دائمًا سعيُه في شيئيـن: سقيِ هذه الشجرة، وتنقيةِ ما حولها؛ فبسقيها تبقىٰ وتدوم، وبتنقيةِ ما حولـها تكمل وتتمّ. والله المستعان، وعليه التّكلان »(١).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) اعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٣٥٠).

المبحث السادس: مرض القلوب وموتها وأنواع علاجها

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: ذِكْرُ نوعي مرض القلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهةٍ وشكٍّ، ومرض شهوةٍ وغيٍّ، وكلاهما في القرآن.

قال تعالىٰ في مرض الشُّبهة: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٣١].

وقال تعالىٰ في حقِّ من دُعي إلىٰ تحكيم القرآن والسُّنَّة، فأبىٰ وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٨-٥٠] فهذا مرض الشُّبهات والشُّكوك.

وأمَّا مرض الشَّهوات، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزِّنا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ »(١).

وفي مختصر منهاج القاصدين: « اعلم أنَّ كلَّ عُضوٍ خُلق لفعل خاص، فعلامةُ مرضه أن يتعذَّر منه ذلك الفعلُ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرضُ اليد تعذّر البطش، ومرضُ العين تعذّر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذّر عليه فعلُه الخاصُّ به الذي خُلِقَ لأجله؛ وهو العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ، وحبُّ الله تعالىٰ وعبادتُه، وإيثارُ ذلك علىٰ كلِّ شهوة.

فلو أن الإنسانَ عرف كلَّ شيءٍ ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنَّه لم يعرفْ شيئًا.

وعلامةُ المعرفةِ: الحبُّ، فمن عرف الله أحبّه، وعلامةُ المحبة أنْ لا يُؤْثِرَ عليه شيئًا من المحبوبات، فمَن آثرَ عليه شيئًا من المحبوبات فقلبُه مريضٌ، كما أن المعدة التي تُؤْثِرُ أكلَ الطين علىٰ أكل الخبز -وقد سقطت عنها شهوةُ الخبز- مريضةٌ.

ومرضُ القلب خفيٌّ قد لا يعرفه صاحبُه، فلذلك يغفُلُ عنه، وإنْ عرفه صعُبَ عليه الصبرُ علىٰ مرارة دوائه، لأنَّ دواءَه مخالفةُ الهوىٰ، وإن وَجَد الصبرَ لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإنَّ الأطباءَ هم العُلماءُ والمرضُ قد استولىٰ عليهم،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٥).

والطبيبُ المريضُ قلَّما يلتفت إلىٰ علاجه، فلهذا صار الداءُ عُضالًا، واندرس هذا العلمُ، وأُنكر طبُّ القلوب ومرضها بالكليّة وأقبل الناسُ علىٰ أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ وباطنُها عاداتٌ فهذه علامة أصل المرض!

وأما عافيتُه وعودُه إلىٰ الصحة بعد المعَالجَة، فهو أن ينظر إلىٰ العلّة، فإن كان يعالج داء البُخْل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يُسرف، ويصير إلىٰ حدّ التبذير فيحصل داءٌ آخرُ، فيكون كمن يعالج البرودَة بالحرارةِ الغالبةِ حتىٰ تغلب الحرارةُ، فيكون داءً أيضًا، بل المطلوب الاعتدال »[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « خرابُ الْقلبِ من الْأَمْنِ والغفلة، وعِمارتُهُ من الخشية وَالذِّكْـرِ »[2].

المطلب الثاني: موت القلب وعلاماته:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلىٰ الله، وترك الذنوب، والغفلةُ الجاثمةُ علىٰ القلب والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالىٰ عليه حتىٰ يموت.

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٢٠١- ٢٠٢).

(٢) كتاب الفوائد لابن القيم (ص/ ١٤٣).

وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أتدرون من ميت القلب الذي قيل فيه:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه. إذْ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح؛ فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة؛ فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **لو أن الحياة الدنيا من أولها إلىٰ آخرها، أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يسُرُّهُ، ثم استيقظ؛ فإذا ليس في يده شيء.**

وقد قيل: "**إن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي، فمن أمات نفسه موتًا إراديًا كان موته الطبيعي حياة له**"، ومعنىٰ هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة، فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته والاشتغال به، ويرىٰ حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب علىٰ العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران.

فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذ: إما أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مخرجًا عن وطنه

ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه، أو قتيلًا ميتًا، وما لجرح به إيلام، وأحسن أحواله: أن يكون في حربٍ يُدالُ له فيها مرة، ويُدالُ عليه مرة، فإذا مات العبد موته الطبيعي، كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته ههنا علىٰ حسب موته الإرادي في هذه الدار، وهذا موضع لا يفهمه إلا ألبَّاءُ الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية »[1].

المطلب الثالث: مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان:

في مختصر منهاج القاصدين: « اعلم أنَّ القلبَ بأصل فطرته قابلٌ للهُدىٰ، وبما وُضع فيه من الشهوة والهوىٰ، مائلٌ عن ذلك، والتطاردُ فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائمٌ، إلىٰ أن ينفتح القلبُ لأحدهما، فيتمكّن، ويستوطن، ويكون اجتيازُ الثاني اختلاسًا كما قال تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكرُ الله تعالىٰ، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مثل القلب كمثل حِصْن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحِصْن، ويملكه ويستولىٰ عليه، ولا يمكن حفظُ الحِصْن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر علىٰ حراسة أبوابه من لا يعرفُها، ولا يتوصل إلىٰ دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله.

(١) مدارج السالكين (٤/ ١١٥٨).

ومداخلُ الشيطان وأبوابُه؛ صفاتُ العبد، وهي كثيرةٌ، إلا أنا نشير إلىٰ الأبواب العظيمة الجارية مجرىٰ الدُّرُوب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحَسَد، والحِرْص، فمتىٰ كان العبد حريصًا علىٰ شيء، أعماه حرصُه وأصمَّه، وغطَّىٰ نورَ بصيرته التي يعرف بها مداخلَ الشيطان.

وكذلك إذا كان حسودًا، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلىٰ شهوته، وإن كان منكرًا أو فاحشًا.

ومن أبوابه العظيمة: الغضبُ، والشهوةُ، والحِدَّةُ؛ فإنَّ الغضبَ غولُ العقلِ، وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العقل هجم حينئذ الشيطانُ فلعب بالإنسان.

وقد رُويَ أنَّ إبليس يقول: **إذا كان العبد حديدًا، قلَّبناه كما يُقلِّب الصبيان الكُرَة.**

ومن أبوابه: حبُّ التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلىٰ عمارة الدار وتزيين سُقُوفها وحيطانها، والتزيّن بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسانُ طولَ عُمُره في ذلك.

ومن أبوابه: الشِّبَع، فإنه يُقَوي الشهوة، ويشغل الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإنَّ مَنْ طمِع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العَجَلَة، وترك التثبّت، وقد قال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**العجَلةُ من الشَّيطانِ والتَّأنِّي من اللهِ تعالَىٰ**»[١].

---

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٢٠٢٧٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠١١).

ومن أبوابه: حبّ المال، ومتىٰ تمكَّن من القلب أفسدَه، وحمله علىٰ طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلىٰ البخل، وخوَّفه الفقر، فمنع الحقوقَ اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوام علىٰ التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

ومن أبوابه أيضًا: حمل العوامِّ علىٰ التفكير في ذات الله تعالىٰ، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتىٰ يُشكِّكهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظنِّ بالمسلمين، فإنَّ مَنْ حكم علىٰ مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانَه، ورأىٰ نفسَه خيرًا منه، وإنما يترشّح سوءُ الظن بخبث الظانِّ؛ لأن المؤمنَ يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التُّهم؛ لئلا يُساءَ به الظنّ، فهذا طَرَفٌ من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سدُّ المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام عن هذه الصفات، إن شاء الله تعالىٰ مفصلًا.

إذا قُلعت من القلب أصولُ هذه الصفات، بقيَ للشيطان بالقلب خَطَراتٌ واجتيازاتٌ من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالىٰ، وعمارة القلب بالتقوىٰ »[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/ ١٩٣- ١٩٥). وقد أوردته بتمامه لأهميته وعظيم الانتفاع به لمن تأمله.

المطلب الرابع: من أين يُؤخذُ طب القلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فأمَّا طبُّ القلوب، فمسلَّمٌ إلىٰ الرُّسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولا سبيل إلىٰ حصوله إلا من جهتهم وعلىٰ أيديهم، فإنَّ صلاح القلوب أن تكون عارفةً بربِّها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مُؤْثِرةً لمرضاته ومحابِّه، متجنِّبةً لمناهيه ومساخطه؛ ولا صحَّة لها ولا حياة البتَّة إلا بذلك، ولا سبيل إلىٰ تلقِّيه إلا من جهة الرُّسل.

وما يُظَنُّ من حصول صحَّة القلب بدون اتِّباعهم فغلطٌ ممَّن يظنُّ ذلك، وإنَّما ذلك حياة نفسه البهيميَّة الشَّهوانيَّة وصحَّتها وقوَّتها؛ وحياةُ قلبه وصحَّتُه وقوَّتُه عن ذلك بمعزلٍ، ومن لم يميِّز بين هذا وهذا، فليبكِ علىٰ حياة قلبه فإنَّه من الأموات، وعلىٰ نوره فإنَّه منغمسٌ في بحار الظُّلمات »(١).

المطلب الخامس: علاج القلوب:

قال الغزالي في رسالة كتبها إلىٰ بعض أهل عصره:

« فعلاج مرض القلب أهمُّ من علاج مرض الأبدان، ولا ينجو إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، وله دواءان:

أحدهما: ملازمة ذكر الموت، وطول التأمل فيه، مع الاعتبار بخاتمة الملوك، وأرباب الدنيا أنهم كيف جمعوا كثيرًا، وبنَوا قصورًا، وفرحوا بالدنيا بطَرًا وغرورًا، فصارت قصورهم قبورًا، وأصبح جمعهم هباءً منثورًا:

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٧).

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾ [السجدة: ٢٦] فقصورهم، وأملاكهم، ومساكنهم، صوامت ناطقة، تشهد بلسان حالها علىٰ غرور عُمّالها، فانظر الآن في جميعهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨].

الدواء الثاني: تدبر كتاب الله تعالىٰ، ففيه شفاءٌ ورحمةٌ للعالمين، وقد أصبح أكثرُ الناس أمواتًا عن كتاب الله تعالىٰ، وإن كانوا أحياء في معايشهم، وبُكْمًا عن كتاب الله تعالىٰ وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، وصُمًّا عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم، وعُميًا عن عجائبه وإن كانوا ينظرون إليه في صحائفهم ومصاحفهم، نائمين عن أسراره، وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم، فاحذرْ أن تكون منهم، وتدبَّرْ أمرك، وأمرَ من لم يتدّبر كيف يقوم ويُحشر! وانظر في أمرك وأمر من لم ينظر في أمر نفسه، كيف خاب عند الموت وخسر!

واتّعِظ بآية واحدة من كتاب الله، ففيه مقنع وبلاغ لكل ذي بصيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩] إلىٰ آخرها! »[(١)].

---

(١) المختار من طبقات الشافعية الكبرىٰ (ص/ ١٢٢-١٢٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « القلب يَمرضُ كما يمرض البدنُ، وشفاؤهُ في التوبة والحِمْية، ويَصْدَأ كما تَصْدأ المرآةُ، وجلاؤهُ بالذكر، ويَعْرَىٰ كما يَعْرَىٰ الجسمُ، وزينتُهُ التَّقوىٰ، ويجوعُ ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفةُ والمحبة، والتوكل، والإنابة، والخدمةُ »(١).

وقال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **دواء القلب خمسة أشياء:**

قراءة القرآن بالتدبُّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين »(٢).

وقد جُمعت في قول الشاعر:

دواءُ قلبك خمسٌ عند قسوته ... فادْأبْ عليها تفُزْ بالخيرِ والظَّفَرِ

خلاءُ بطنٍ وقرآنٌ تَدَبَّرَهُ ... كذا تضرُّعُ باكٍ ساعةَ السَّحَرِ

ثم التَّهَجُّد جنحَ الليل أوسطَه ... وأنْ تُجالسَ أهلَ الخيرِ والخبَرِ(٣)

فائدة: أنفع دواء للقلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وليس لشفاء القلوب دواءٌ قطُّ أنفعُ من القرآن، فإنه شفاؤها التامُّ الكاملُ الذي لا يُغادِرُ فيها سقَمًا إلا أبْرأَه، ويحفظُ عليها صحَّتَها المُطْلقةَ، ويَحْمِيهَا الحمية التامَّةَ من كلِّ مُؤْذٍ ومُضِرٍّ »(٤).

---

(١) الفوائد (ص/ ١٤٣).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن(ص/ ٧٧).

(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ٢٨٦).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٨٠).

المبحث السابع: حياة القلب وسلامته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حياة القلوب:

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ مَثَلَ ما بعثني اللهُ به عَزَّوَجَلَّ من الهُدىٰ والعِلمِ كمثلِ غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منه طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماءَ فأنبتتِ الكَلَأ والعُشْبَ الكثيرَ، وكان منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ، فشرِبُوا منها وسقَوا ورَعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرىٰ، إنما هي قِيعانٌ لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلَأً.**

فذلك مثَلُ من فقُهَ في دينِ الله، ونفَعَهُ بما بَعَثَني اللهُ به، فعلِمَ وعلَّمَ، ومثَلُ منْ لم يرفعْ بذلك رَأسًا، ولم يقبلْ هُدىٰ اللهِ الذي أرسلتُ به»(١).

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: « ومعناه: «أن الأرض ثلاثة أنواع»، وكذلك الناس؛ فالنوع الأول من الأرض: ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس؛ يبلغه الهدىٰ والعلم فيحفظه فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس؛

---

(١) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ له.

لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتىٰ يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والنوع الثالث من الأرض: السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس؛ ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم، وفي هذا الحديث أنواع من العلم: منها ضرب الأمثال، ومنها فضل العلم والتعليم، وشدة الحث عليهما، وذم الإعراض عن العلم، والله أعلم »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « المرتبة الخامسة - أي: من مراتب الحياة: الحياة التي أشار إليها المصنف، وهي (حياة العلم من موت الجهل) فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهلِه ... وأجسامُهم قبل القبورِ قبورُ

وأرواحُهُم في وَحْشةٍ من جسومهمْ ... فليس لهم حتى النشورِ نشورُ

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإنْ كان حي البدن فجسده قبر يمشي به علىٰ وجه الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٤٧) حديث رقم (٢٢٨٢).

[الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾ [الروم: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾[فاطر: ٢٢]، وشبَّههم في موت قلوبهم بأهل القبور، فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور كذلك لا يسمع هؤلاء. وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة وملزومهما؛ فهذه القلوب لمَّا لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح »(١).

وعن مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصىٰ ابنه فقال: « **يا بُني جالِسِ العُلماءَ، وزاحمْهُمْ برُكبتيك، فإنَّ الله يُحيي القُلوبَ بنورِ الحِكمةِ، كما يحيي اللهُ الأرضَ الميتةَ بوابلِ السماءِ** »(٢).

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « تعلموا العلم، فإن تعلُّمَه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وَبَذْلَه لأهله قُرْبَة؛ لأنه مَعالمُ الحلال والحرام، ومنارُ سُبل أهل الجنة .

(١) مدارج السالكين (٤/ ١١٥٦ - ١١٥٧).

(٢) موطأ مالك (١).

وهو الأنيسُ في الوَحشة، والصاحبُ في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل علىٰ السراء والضراء، والسلاح علىٰ الأعداء، والزين عند الأخِلَّاء.

يرفع الله به أقوامًا؛ فيجعلُهم في الخيرِ قادةً، يُقتدىٰ بهم، وأئمةً في الخلق تُقْتَصُّ آثارُهم، ويُنْتَهَىٰ إلىٰ رأيهم، ترغب الملائكة في خُلَّتهم، وبأجنحتِها تمسَحُهم، يستغفر لهم كلُّ رطْب ويابسٍ، وحيتانُ البحر وَهَوَامُّه، وسباعُ البر وأنعامُه؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوب من الجهل، ونورُ الأبصار من الظُّلَم، وقوةُ الأبدانِ من الضَّعف، يبلغُ العبدُ بالعلم منازلَ الأخيار، ومُجالسةَ المُلوك، والدرجاتِ العُلىٰ في الدنيا والآخرة، التفكرُ فيه يعدلُ الصيام، ومدارستُه تعدل القيامَ، به يُطاعُ الله عَزَّوَجَلَّ، وبه يُعبدُ الله عَزَّوَجَلَّ، وبه تُوصلُ الأرحام، وبه يُعرفُ الحلالُ من الحرام.

وهو إمامُ العمل، والعملُ تابع له، يُلْهَمُه السُّعداءُ، ويُحْرَمه الأشقياء »[١].

قال ابن القيم بعد قول معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والمقصود: قوله: « **"لأن العلم حياة القلوب من الجهل"** فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان »[٢].

المطلب الثاني: قوت القلوب:

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: « ومن فوائد الذكر؛ أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

---

(١) أخلاق العلماء للآجري (ص/ ٣٤) وقوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٢٣٣). وقال ابن القيم: وقد روي مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والوقف أصح - المدارج (٤/ ١١٥٧).

(٢) مدارج السالكين (٤/ ١١٥٧).

قال: وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلىٰ الفجر ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر. أو كلاماً هذا معناه »[1].

المطلب الثالث: سلامة القلوب:

قال الله تعالىٰ - عن الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أنه قال في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩] قال: « شهادة أن لا إله إلا الله »[2].

وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ قال: « ليس فيه شكّ في الحقّ »[3].

---

(١) الوابل الصيب (ص/ ٩٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨٣) [الشعراء: ٨٩].

(٣) تفسير الطبري - جامع البيان (١٩/ ٣٦٦) [الشعراء: ٨٩].

وعن عوف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: « قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم بأن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور »(١).

وقال ابن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قلت لسفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ الذي يلقي ربه وليس فيه أحد غيره. فبكىٰ وقال: ما سمعتُ منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير »(٢).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والذي عَنيَ به من سلامة القلبِ في هذا الموضِعِ: هو سلامةُ القلب من الشكِّ في توحيد الله، والبعثِ بعد الممات »(٣).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والذي عندي أنه لا يكون القلبُ سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا، مُعجبًا مُتكبرًا، وقد شرط النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. والله الموفق برحمته »(٤).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أما السليم ففي ثلاثة أوجه: **الأول**: **وهو الأصح**، أنَّ المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال، ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور فكذلك سلامة القلب عبارة عن

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨٣) [الشعراء: ٨٩].

(٢) العقد الفريد (٣/ ١٣٦).

(٣) تفسير الطبري – جامع البيان (١٧/ ٥٩٥) [الشعراء: ٨٩].

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٤٥٩) [الشعراء: ٨٩].

حصول ما ينبغي له؛ وهو العلم والخلق الفاضل، ومرضه عبارة عن زوال أحدهما.

فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة والميل إلىٰ شهوات الدنيا ولذاتها.

فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أنَّ من سلم قلبه كان ناجيًا وأنه لا حاجة فيه إلىٰ سلامة اللسان واليد؟

جوابه: أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب. **التأويل الثاني**: أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالىٰ. **التأويل الثالث**: أن السليم هو الذي سلم وأسلم وسالم واستسلم، والله أعلم »(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغِل، والحقد، والحسد، والشحّ، والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلِمَ من كلِّ آفة تُبعده من الله، وسلمَ من كلّ شبهة تُعارضُ خبَرَهُ، ومن كل شهوةٍ تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تُزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعُ عن الله. فهذا القلبُ السليمُ في جنةٍ مُعَجَّلَةٍ في الدنيا، وفي جنةٍ في البرزخ، وفي الجنةِ يوم المعاد »(٢).

---

(١) تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٤/ ٥١٧) [الشعراء: ٨٩].

(٢) الداء والدواء (ص/ ٢٨٢).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واختُلف في معنىٰ القَلبِ السَّليمِ؛ فقيل: السليمُ من الشرك، فأما الذُّنوبُ فليس يسلمُ منها أحد، **قاله** أكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليمُ: الصحيحُ، وهو قلبُ المؤمن، لأن قلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ، **وقيل**: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلىٰ السنة، **وقيل**: السالم من آفةِ المال، والبنين. وقال الضحاك: السليم: الخالص. وقال الجنيد: السليم في اللغة: اللديغ، فمعناه: أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالىٰ. وهذا تحريف وتعكيسٌ لمعنىٰ القرآن »(١).

وقد خُتمَ الكتابُ بهذا العنوان (**سلامة القلوب**) رجاءَ أن يكون قارئ الكتاب قد استفاد وانتفَع، ولانَ قلبُه لله وخشَع، حتىٰ وصل إلىٰ السلامة المنشودة، ونال الكرامةَ المحمودة؛ فينجو من العطَب، ويرقىٰ أعلىٰ المقامات والرُّتَب.

وليجعل العاقلُ اللبيبُ نُصْبَ عينيه، ومسمع أُذُنُيه: العنايةَ بقلبه، والحرصَ علىٰ إرضاء خالقه وربِّه، **حتىٰ ينجو يوم لا ينجو إلا من أتىٰ الله بقلب سليم**.

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٢٤) [الشعراء: ٨٩].

الخاتمة شعرًا

بدا للمؤلف أن يكتب الخاتمة شعرًا، فنظم هذه الأبيات، وأشار فيها إلىٰ أهمية السعي في تحقيق الخشوع، ثم ذَكَـرَ بعض ما حواه الكتاب، راجيًا نفعه في يوم الحساب، فإنْ أصبتُ فمن توفيق الله وحده، وإنْ أخطأتُ فأنا أبوء بذنبي، وأعترف بتقصيري وعَطَبي، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو الغفور التواب.

١- حمـدًا لربِّـي باللسـانِ وباليـدِ	والقلـبُ يشـكُره بكـلِّ تـودُّدِ
٢- بـالنُّطقِ أحمـدُهُ وأكتـبُ حمـدَه	حَمْـدًا كـثيرًا طيِّبًـا بِتَجَـدُّدِ
٣- ثـم الصـلاةُ علـى الـنبيِّ محمـدٍ	عـدَّ النجـومِ قريبِهـا والأبعـدِ
٤- يـا قارئًـا مـا في الكتـاب وآخِـذًا	نُصْـحَ النَّصـيحِ بقـوةٍ وتجلُّـدِ
٥- إنَّ الخُشـوعَ عبـادةٌ تحقيقُهـا	يسـعى لـه الأبـرارُ دون تَـرَدُّدِ
٦- فَبِـهِ فـلاحُ المـؤمنين وفـوزُهمْ	وظِلالهـم مـن حـرِّ يـومِ المَشْـهدِ
٧- ونجـاتُهم مـن غفلـةٍ آثارُهـا	تَـدَعُ القلـوبَ كَكـوزِ مـاءٍ مُلْبَـدِ
٨- ولقدْ جمَعْتُ مِنَ النّصوصِ لِمَنْ وعى	زادًا يُعِـينُ النـاظرينَ إلى غَـدِ
٩- ومُحَفِّـزًا للمُخْبِـتينَ لـربِّهمْ	وذخـيرةً للخاشِـعينَ السُّـجَّدِ

١٠- السائرين إلى الإلهِ برغبةٍ ... من قائمٍ في الليلِ أو متَهَجِّدِ(١)
١١- فيهِ مِنَ الآياتِ والعِبَرِ التي ... من وحيِ ربّي والحديثِ المُسْنَدِ
١٢- وكلامِ أهلِ العلمِ في تفسيرِها ... وشروحِها، أنعِمْ بهم يا مهتدِ
١٣- يَسلُو به الخُطباءُ في تحضيرِهِمْ ... والواعظون لِقومِهِمْ في المسجدِ
١٤ والمصلحون لأهلِهِمْ وذويهِمُ ... لا يَرتَضُونَ لهم بغيرِ السُّؤدَدِ
١٥- من يحرصون على صلاحِ قلوبِهِمْ ... ونفوسُهُمْ في هِمَّةٍ وتَزوُّدِ
١٦- فيه تعاريفُ الخشوعِ ونوعُه ... وكلامُ أهلِ العلمِ ليس بمُعْضَدِ(٢)
١٧- فيهِ فضائلُ للخُشوعِ وأهلِه ... وثماره فاقطف ولا تتردَّدِ
١٨- وبيانُ أنَّ العلمَ ينفعُ أهلَه ... فالعلمُ مُثْمِرُ خشيةٍ وتَعَبُّدِ
١٩- وذكرتُ ألفاظًا تُرَادِفُ لفظَهُ ... وتَصُبُّ في معناهُ أو في المَقْصِدِ
٢٠- وكذاك من وُصِفوا به مِنْ غيرِنا ... فالأرضُ تخشعُ والجبالُ الصُّمَّدِ(٣)
٢١- ثم الصلاةُ لها خشوعٌ واجبٌ ... وخشوعُ فضلٍ؛ فاغتَنِمْه وازدَدِ
٢٢- والحثُّ والترغيبُ فيه واردٌ ... وبقَدْرِ ما تخشعْ تُثابُ وتهتدي
٢٣- وزواجِرٌ تنهى المُصِرَّ على الخطَا ... عن غيِّهِ وقصوره المُتَعَمَّدِ
٢٤- ثم التظاهرُ بالخشوعِ خطيئةٌ ... فاحذرْ وقل يا ربِّ عبدَكَ سدِّدِ
٢٥- إنَّ الرياءَ مصيبةٌ، وَيْ إنَّه ... أخفى من النَّملِ الصغيرِ الأسودِ
٢٦- مِنْ بينِ أسبابِ الخشوعِ ذكرتُ ما ... يتحقَّقُ المقصودُ للمُتَعَبِّدِ

---

(١) التهجد هو الصلاة في الليل بعد نوم، أما القيام فهو أعم من ذلك.

(٢) العَضَدُ: داء في أعضاد الإبل، وما نُشر من ورق الشجر، وما قُطع من قضبان الشجر.

(٣) معنىٰ الصُّمَّد: العالية الثابتة

٢٧- ومعـانِ أقـوالِ الصـلاةِ وفعلِهـا — وبيـان سِـرٍّ جميعِهـا والمقصـدِ
٢٨- وخشـوع خـيرِ الخلـق فيـهِ عـبرةٌ — وكـذا الصـحابة فضـلهم لم يُفقـدِ
٢٩- ونمـاذجٌ للخاشـعين ذكرتُهـا — فـاقرأ كأنـك حاضـرٌ في المشـهدِ
٣٠- ثـم الموانـعَ فاجتنِبْهـا دائمًـا — والحُكـمَ والترتيـبَ فافقَـهْ ترْشُـدِ
٣١- وإذا قـرأتَ كـلامَ ربـي فـاعتبرْ — واخشـع لصـوتِ مرتِّـلٍ ومجـوِّدِ
٣٢- فـالله أنزلـه لكـي يتـدبّروا — آياتِـه بتفكّـرٍ وترشُّـدِ
٣٣- وبـه فوائـدُ نافعـاتٌ أهلَهـا — فـاقرأْ وأَقـرئ مخلِصًـا متجـرِّدِ
٣٤- أسباب لـين القلـب خـذْ دومًـا بهـا — فالأخـذ بالأسـباب دأبُ المُرشِـدِ
٣٥- ثـم الموانـعَ فاجتنِبْهـا دائمًـا — وتأمَّـلِ المعنـى، ولفظًـا جـوّدِ
٣٦- وذكـرتُ مـن قَصـصِ الـذين تـأثروا — بكـلامِ ربـي وحـده المتفـرِّدِ
٣٧- ثـم البكـاءُ بخشـية وتخشُّـعٍ — فيـه فضـائلُ مـن يَحُزْهـا يَسـعدِ
٣٨- واقـرأْ نمـاذجَ مـن بكـاءِ المصطفى — والصحبِ والأتبـاعِ أعـذَبَ مـوردِ
٣٩- وجوابَ مـن فقـدوا ضيـاءَ عيـونِهم — والـدمع خـطَّ مسـيره كالأخـدُدِ
٤٠- والخاشـعون لـربهم في خُفيـةٍ — لا يُظهـرون دمـوعَهم في المَشْـهدِ
٤١- ونمـاذجٌ ممـن بكـى في وعظـهِ — أو مـن بكـى عنـد السـماع الجيِّـدِ
٤٢- فـالوعظُ والتـذكيرُ ينفـع غالبًـا — حتـى الخليفـةَ والأمـيرَ السـامد
٤٣- ويجـوز أن نبكـي فـراقَ أحبـةٍ — مـن غـير شـقٍّ أو كـلامٍ فاسـدِ
٤٤- وأضـفتُ فصـلًا للقلـوب لأنَّهـا — أرضُ الخشـوع تمـدُّهُ بـالموردِ
٤٥- فـذكرتُ أسـباب الصـلاح وضـدَّها — ومظـاهرَ القلـبِ السـقيمِ الجامـدِ
٤٦- وكـذا تفاصـيلَ القلـوبِ ونوعَهـا — وعـلاجَ كـلِّ مُغَلَّـفٍ ومُقيَّـدِ

٤٧- وبيانَ أنواعِ الحصون ودَورَها ... في صدِّ وسواسِ اللعينِ المُبعدِ

٤٨- وحياتُها بالعلمِ من أسقامها ... والقلبُ يَسلمُ بالتُّقى لا بالدَّدِ(١)

٤٩- ووَددتُ أنَّ الله يفتحُ للورى ... فيه بفضلٍ منه غيرِ مُحَدَّدِ

٥٠- فيُفيدُ منه الدارسون بدَرْسِهِمْ ... والقارئون بجمعِهِمْ والمفرَدِ

٥١- يَسْقونَ منه كالزُّروعِ قلوبَهُمْ ... عَلاًّ مساءً بعدَ نَهْلٍ في غدِ(٢)

٥٢- ورْدًا بوِرْدٍ يغسِلون قلوبَهم ... من رانِ غَفْلتِها وقسوةِ جَلْمَدِ(٣)

٥٣- هذا، وكلُّ إصابةٍ فيهِ فمِنْ ... توفيقِ ربّي وحدَهُ المُتَفَرِّدِ

٥٤- والنقصُ والتقصيرُ مني واردٌ ... وشِراكُ إبليسٍ لنا بالمَرْصَدِ

٥٥- لكنَّ عَفْوَ اللهِ ربي واسعٌ ... أرجوهُ توفيقًا وحُسْنَ المقصدِ

٥٦- خُذْ غُنْمَه، والغُرمُ لا تَحفلْ بهِ ... واحذرْ طِباعَ الشامتينَ الحُسَّدِ

٥٧- وإذا وجدتَ نصيحةً بادِرْ بها ... فالنصحُ مطلوبٌ لكلِّ موحِّدِ

٥٨- واحفَظْ سهامك دائمًا في جَعْبَةٍ(٤) ... حتى ترى صيدًا فقُمْ وتصيَّدِ

٥٩- لا تُطْلِقَنْها عابِثًا فلرُبَّما ... قتَلَتْ سِهامُكَ مَنْ تُحبُّ وتَفتَدي

٦٠- ما كلُّ سوداءٍ تراها تمْرَةً ... كلاَّ ولا كلُّ الحجارِ بإثْمِدِ

٦١- يا ربِّ فاغفرْ ذنْبَنا وقصورنا ... هَبْنِي الجِنانَ بفضلِكَ المُتَجدِّدِ

٦٢- واحْفَظْ إلهي والديَّ وهَبْهُما ... عَفْوًا، وجُدْ لهما بعيشٍ أرغدِ

---

(١) الدّد: اللهو واللعب. كما في المعجم الوسيط.

(٢) النَّهْل: هي الشربة الأولىٰ، والشربة الثانية تُسَمَّىٰ عَلًّا.

(٣) الجَلْمَد: الصَّخْر.

(٤) الجَعْبَة: وعاء السِّهام والنبال. والجمع: جعاب.

٦٣- وارزقهما قُربَ النبي محمدٍ ... في جنةِ الفردوسِ أعلى مقعَدِ
٦٤- والشكرُ موصولٌ لمَنْ يُعنى به ... مِنْ ناشرٍ ومُراجِعٍ ومؤيِّدِ
٦٥- والحمدُ في ختمي وبَدئي دائمًا ... لله في قولي وخَطِّي باليدِ
٦٦- صلواتُ ربي والكرامِ جميعِهِمْ ... والصالحينَ على النبيِّ مُحَمَّدِ
٦٧- والآلِ والأصحابِ ما غيثٌ همَى ... في كلِّ يومٍ دائمٍ ومُخَلَّدِ

هذا؛ وما كان في الكتاب من صوابٍ فمن اللَّه وحده؛ فهو المحمود المستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مُصَنِّفِه ومن الشيطان، واللَّهُ بريء منه ورسولُه.

وهذه بضاعةُ مؤلِّفِه المُزجاةُ تُساقُ إليك، وسلعتُه تُعرضُ عليك، فلقارئه غُنمه، وعلى مؤلفه غرمه(١).

وبالله التوفيق، وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك على نبينا محمد، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

كتبه/ أبو الخطاب عبد الرزاق بن فاضل الربيعي.

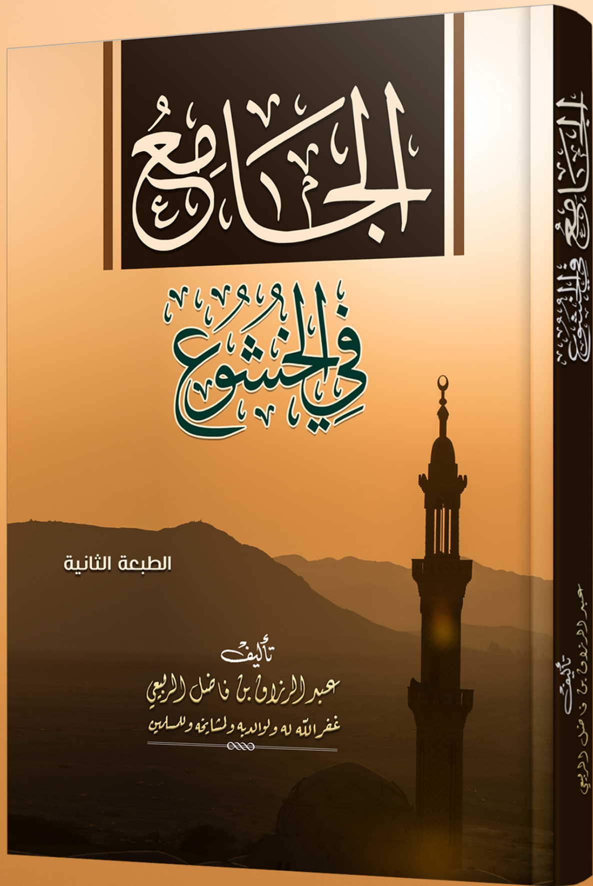
الخميس ١١ شوال ١٤٤٣هـ

الذخيرة – حرسها وسائرَ بلاد المسلمين آمين.

---

(١) مقتبس من كتاب «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (١/ ١١).

فهرس الكتاب



حَوى ألْفَ نصٍّ، بل تزيدُ نصوصُهُ … على مئتي نَقْل وألفِ مكمّلِ

وصفْحاتُهُ خمسٌ مئاتٌ وفوقَها … ثمانونَ زِدْ سِتًّا ودونَك فانْهَلِ

به الآيُ والآثارُ والقَصصُ التي … تَفي بمُرادِ فاتَّعِظْ وتأمَّلِ